يوسف سامي اليوسف

تاريخ فلسطين عبر العصور

الأهالي

يوسف سامي اليوسف

تاريخ فلسطين عبر العصور

جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأولى ٢٠٠٠/ ٢/ ١٩٨٩

الأهالي

للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق هاتف: ٤٢٠٢٩٩ ص.ب ٩٥٠٣ تلكس ٤١٢٤١٦

كلمة

ليس في نيتي أن اكتب تاريخ فلسطين لكي ابرهن على أسبقية الوجود الكنعاني على الوجود «العبراني» في بلادنا المحتلة، إذ إن التوراة نفسها قد أعفت المؤرخين من تحمل مشقة هذه المهمة، وأثبتت هذه الحقيقة التي لم تخضع للجدالِ في أي يوم من الأيام.

إذن، لماذا ينبغي ان يكتب تاريخ فلسطين؟

حباً في الحقيقة نفسها، حباً بها لذاتها، أو قل لأن الانسان ذاكرة ورغبة في التعرف على ماضيه، إذ لا شك في أن وعي الإنسان العامّ لنفسه لا بد له من أن يمر بفهمه لماضيه.

مما هو لافت للانتباه حقاً أن الفلسطينيين، الذين يصارعون غزاتهم الصهاينة منذ أكثر من مائة سنة، لم يكتبوا بعدُ تاريخ قطرهم ابتداء من أقدم العصور الحجرية حتى اليوم.

وهذا نقص واضح في حركة الثقافة العربية بعامة والفلسطينية بخاصة. فليس في المكتبة العربية الآن سوى كتب تتناول تاريخ فلسطين خلال هذه الحقبة التاريخية أو تلك، أو تاريخ هذه المدينة الفلسطينية أو تلك، أما تاريخ فلسطين العام والشامل فلم يكتب في اللغة العربية حتى الآن. كما أن معظم هذه الكتب لا ترقى إلى المستوى الثقافي العالي، فضلاً عن أن الكثير منها مملوء بالأغلاط المتعلقة بالمعلومات. ومعظم هذه الكتب لا تعرض لتاريخ فلسطين قبل «الحقبة التوراتية»، أي منذ فجر التاريخ وحتى القرن الثالث عشر، أو الثاني عشر، قبل الميلاد. فالحقيقة ان معظم ما كتب عن تاريخ فلسطين، هذه الأيام، قد حتمته

الظروف السياسية السائدة في القرن العشرين. وهكذا انصبت الابحاث، بالدرجة الأولى، على مناقشة التوراة وعلى دراسة التاريخ أثناء «العصور التوراتية»، مع ان تاريخ فلسطين، او سواها، ينبغي ان يدرس كاستجابة لنزعة العقل البشري الرامية إلى الكلية، وإلى معرفة الحقيقة في ذاتها ولذاتها، وبغض النظر عن نتائجها السياسية، مهما يكن نوعها. والحقيقة أن تاريخ فلسطين إذا درس انطلاقاً من الرغبة في الحق فانه لن يكون إلاّ في صالح الفلسطينيين من تلقاء ذاته، أو وفقاً لطبيعته الموضوعية.

* * *

كل مايبتغيه هذا الكتاب الراهن هو أن يقدم سرداً مبسطاً وسريعاً، أو مختصراً، لمجمل التاريخ الفلسطيني، منذ العصور الحجرية وحتى القرن العشرين. وقد تعمدت أن يجيء سهلاً وميّسراً لفهم القارىء العام المتوسط الثقافة، مع أنني استقيت معلوماته من مصادر كثيرة ومعقدة أو ميالة إلى العمق.

أما المنهج الذي سوف يلتزم به الكتاب، في الغالب، فهو اجتناب الدخول في التفاصيل، ولا سيما في أخبار الدول التي أثرت على تاريخ فلسطين في أي عصر من العصور، اللهم إلا ماكان منها وثيق الصلة بمصير هذا القطر، وذلك اجتناباً للإطالة أو الإسهاب الذي لايخدم الموضوع. فمثلاً، أثرت الدول الفرعونية أيما تأثير بتاريخ فلسطين. ولكن الكتاب سوف لن يسرد تاريخ تلك الدول الفرعونية، بل ما كان منه وثيق العلاقة بوطننا وحده. وقل الشيء نفسه عن الآشوريين والرومان والبيزنطيين وسواهم.

ولكن هناك نقطة جديرة بالانتباه، وخلاصتها أن تاريخ فلسطين لا يمكن أن يكتب بمعزل عن تاريخ الشام والعراق ومصر بالدرجة الأولى، والأهم من ذلك أنه لا يمكن أن يكتب بمعزل عن تاريخ العالم كله. إذ لقد صارت القضية الفلسطينية قضية عالمية دون أدنى ريب.

أما حدود فلسطين التي اود كتابة تاريخها فهي حدودد الأرض التي يحتلها الصهاينة اليوم تقريباً، أو قل إنها الحدود كما كانت عليه أيام الانتداب البريطاني. غور الأردن ووادي العربة من الشرق. البحر المتوسط ووادي العريش من الغرب. خليج العقبة من الجنوب. وهذه كلها حدود طبيعية. أما من جهة الشمال حيث لا وجود لحد طبيعي فقد رسم خط الحدود بناء على تمايز في اللهجة وحسب، لأن جبال الجليل الفلسطينية هي امتداد طبيعي لجبال لبنان. وفي الحق أن الجليل نادراً ما كان يعد من فلسطين. فالجغرافيون العرب في القرن العاشر الميلادي، ولا سيما الاصطخري وابن حوقل، يضعون الحد الشمالي لفلسطين عند مجدو (اللجون)، أو عند جبل الكرمل. والحقيقة أن مصلحة الاستعمار البريطاني والفرنسي هي التي اقتضت رسم الحدود بالطريقة التي تثبتت أثناء الانتداب. أما المؤرخ العربي المعاصر فقد بات ملزماً بقبول هذه الحدود لأنها الإطار الذي يضم جميع الأراضي المحتلة على وجه التقريب.

تنقسم الأرض داخل حدود الانتداب البريطاني إلى ستة أقسام طبيعية: جبال الجليل في الشمال، وأعلاها جبل الجرمق وجبل كنعان، ثم مرج بني عامر الذي يفصل الجليل عن جبال نابلس، والذي يبدأ من بيسان شرقاً ليتجه إلى الغرب حيث يلتقي بسهل عكا الساحلي عند الطرف الشمالي الشرقي لجبل الكرمل، أو قل عند مجدو ومدينة شفاعمرو الواقعة إلى الشمال الغربي من الناصرة. وتأتي بعد ذلك كتلة جبلية لتشمل منطقة نابلس ومنطقة القدس وهي تمتد على هيئة مرتفعات خفيفة من شمال غرب نابلس لتبلغ إلى جبل الكرمل الملامس للبحر عند حيفا. ويوازي هذه الكتلة الجبلية من جهة الغرب، وإلى الجنوب من الكرمل سهل ساحلي يمتد حتى غزة. وتقع أجود أراضيه حول يافا، وقرب اللد والرملة. وإلى الجنوب من تلك الكتلة الجبلية الكبرى تمتد صحراء النقب شبه القاحلة أيام الانتداب البريطاني. أما القسم السادس فهو غور الأردن

الممتد من اطراف جبل الشيخ حتى البحر الميت. ولكن هذا الغور يتابع سيره كحفرة مستطيلة تسمى وادي العربة حتى يبلغ إلى البحر الأحمر.

وفي كثير من العصور التاريخية، ولاسيما بعد الفتح العربي، لم يكن الجليل وشطر من وادي الأردن قسماً من فلسطن، بل ولاية قائمة بذاتها تسمى «جند الأردن»، وتمتد شرقاً حتى تشمل الجولان وحوران. أما عاصمة الولاية فهي مدينة طبرية. وكانت مدينة عكا خارج هذه الولاية، لأنها يومذاك جزء من ولاية صور.

* * *

أثبتت الاركيولوجيا (أو علم الآثار والتنقيب عن مخلفات الماضي) أن فلسطين، في احدى مراحلها التاريخية، قد عرفت دولتين تتوافق بعض من أوصافهما مع الأوصاف التي قدمتها التوراة لمملكة اسرائيل ومملكة يهودا. غير أن الوثائق التي بين أيدي المؤرخين لا تؤكد نوع الدين الذي ساد في أي منهما. فالمؤرخون اليوم يجهلون متى بدأت الديانة اليهودية بالضبط. وربما كان هنالك اجماع بين المتخصصين على أن تلك الديانة قد أخذت شكلها النهائي، أو خطوطها العريضة على الأقل، في القرن الخامس قبل الميلاد، أي بعد خراب الدويلتين الأنفتي الذكر. والجدير بالاهتمام أن التوراة نفسها تؤكد في مائة موضع، دون مبالغة، على أن العبادات الوثنية قد كانت اكثر انتشاراً من عبادة التوحيد في الدويلتين كلتيهما.

أما بخصوص اللغة السائدة فيهما فقد تأكد علماء اللغات اليوم من أنها ليست سوى لهجة كنعانية فقط. كما ثبت أن كل ما هو شعري في التوراة، وكل ما هو من فصيلة الحكمة، ومن صنف المعتقدات الدينية الجوهرية، له أصل كنعاني بالدرجة الأولى، وأصل مصري وبابلي، بالدرجة الثانية.

وعلى أية حال، فان اثبات وجود هاتين الدويلتين، وحتى اثبات تأسيسهما على أيدي «العبرانيين»، لا الكنعانيين، ليس من شأنه ان يكون أساساً منطقيا كافياً لقيام «دولة يهودية» في فلسطين. إن انقطاع الوجود «اليهودي» في بلادنا طوال

ثمانية عشر قرناً على وجه التقريب هو أساس الحجة التي تحرم اليهود من الحق في انشاء دولة لهم على أي شبر من تراب فلسطين. وفضلاً عن ذلك، فان توراتهم نفسها تعترف بأنهم طارئون على «أرض اللبن والعسل». وباندثار أمرهم فيها سنة ١٣٥م، تكون البلاد قد عادت إلى أصحابها الشرعيين بعدما تحملت ويلاتهم طوال ألف سنة، أو زهاء ذلك.

يقيناً، إن وجودهم الراهن في فلسطين لم يحدده الحق، بل القوة، وإن طردهم منها لن يحدده الحق، بل القوة، أيضاً. ولهذا فان مناقشة المشكلة بالطرق المنطقية ليست سوى اضاعة للوقت.

* * *

يأمل كاتب هذه السطور أن تتاح، له أو لسواه، فرصة كتابة التاريخ الفلسطيني الموسّع والموثّق، وهذا مشروع يحتاج إلى عدة مجلدات قد لا يقل عدد صفحاتها عن ألفي صفحة. ولكن هذا الانجاز لا يمكن أن يكون رغبة ذاتية. فالكاتب الحقيقي هو المجتمع دوماً. وكتابة التاريخ حصراً تحتاج إلى حضارة شديدة العمق أو موغلة في النضج والرفعة، ولا ينجزها إلا مجتمع تطور فيه كل شيء.

● مخيم اليرموك
الأول من حزيران ١٩٨٨

الفصل الأول

فجر الحضارة

١ ـ تقسيم العصور السابقة للتاريخ :

يبدأ التاريخ البشري بحادثين حاسمين، اولهما اختراع الكتابة في سومر، وذلك في اواخر الألف الرابع (ق. م). وثانيهما توحيد التاجين المصريين، تاج الشمال وتاج الجنوب، في تاج واحد على يد الملك مينا(= الخالد)، وقد تم هذا التوحيد بعد اختراع الكتابة في سومر بقليل. وتأتي أهميته من أنه أنشأ الدولة القومية الموحدة لأول مرة في الزمان.

بيد أن هذين الحادثين ما كان لهما أن يتحققا لولا اكتشاف المعادن وتطوير الملاحة والزراعة وتدجين الحيوان وتنمية أدوات الانتاج، ولا سيما دولاب الخزّاف ومنجل الحصاد ونول الحياكة واكتشاف المعادن.

والحقيقة أن تقسيم العصور، التاريخية أوغير التاريخية، بطريقة منهجية أو منطقية، هومن أصعب الأعمال التي يقوم بها الذهن البشري. ومع ذلك فان في

امكانك أن تقسّم الزمن الفلسطيني السابق للتاريخ على النحو التالي:

أولاً ـ العصر الحجري القديم، وهو يمتد من وقت يتعذر تحديده وحتى بداية الألف الثاني عشر (ق.م).

ثانياً ـ العصر النطوفي (نسبة إلى وادي النطوف): وهو يمتد من نهاية العصر السابق وحتى أواخر الألف التاسع (ق.م).

ثالثاً ـ عصر أريحا: ويمتد من أواخر لألف التاسع وحتى اواخر الألف الخامس.

رابعاً ـ طور الانتقال إلى التاريخ: ويمتد من الألف الرابع وينتهي في أواسط الألف الثالث (ق.م)، أي من ٤٠٠٠ إلى ٢٥٠٠ ق.م.

وبعد ذلك بقليل تدخل فلسطين في التاريخ. وهذا يعني أن دخولها قد جاء متأخراً اكثر من خمسمائة سنة عن دخول مصر أو العراق.

٢ ـ العصر الحجري القديم:

نشطت التنقيبات عن الآثار في فلسطين منذ اواسط القرن الماضي، وذلك بهدف التأكد من صحة المعلومات شبه التاريخية التي يُقدمها العهد القديم (= التوراة). فاكتشف المنقبون كثيراً من الهياكل العظمية في بعض الكهوف، وذلك في أربع مناطق، هي: كهوف الكرمل التي نبشتها المنقبة المشهورة دوروثي غارود، ومغارة أم قطفة الواقعة إلى الشمال الغربي من البحر الميت، ومغارة الزطية في وادي العمود، إلى الشمال الغربي من بحيرة طبرية، ومغارة جبل القفزة الواقع إلى الجنوب من الناصرة.

وترقى هذه الهياكل العظمية إلى مائة ألف سنة، أو زهاء ذلك. وأهم ما في أمرها أنها تتميز عن الهياكل المعاصرة لها، والمكتشفة في أماكن أخرى من العالم، وذلك لشدة اقترابها من الهياكل العظمية للإنسان الحديث. إذ من المعروف أن

الإنسان المسمى انسان نياندرتال، وقد عاش قبل مائة ألف سنة، كان قصير القامة، هزيل الجسم، صغير الجمجمة، وضامر الذقن. أما الهياكل العظمية الفلسطينية في تلك الحقبة، فهي ميالة إلى الطول والجسامة، لا سيما ضخامة الجمجمة واتساع الذقن.

وفي أحد كهوف الكرمل عثر المنقبون على أقدم فحم عرفته متاحف العالم، وهو يعود إلى مائة وخمسين ألف سنة، على حد قول المتخصصين. وفي مغارة أخرى تسمى مغارة الوادي، وتقع في السفح الغربي لجبل الكرمل، اكتشف المنقبون كمية أخرى من الفحم تعود إلى الألف الثامن عشر (ق. م). وقد جاء هذا الفحم من أشجار الزيتون والكرمة والسنديان.

ووجدت في فلسطين ادوات حجرية كثيرة من ذلك العصر الأول. وقد استعمل الناس تلك الأدوات بمثابة بلطات ومطارق، وقد أخذت تميل إلى صغر الحجم في أواخر العصر الحجري القديم، مما يدل على نمو في ذكاء الانسان قبل عشرين ألف سنة من يومنا هذا.

٣ ـ العصر النطوفي:

منذ الألف الثاني عشر (ق. م). بدأ الناس في فلسطين يمهدون الشرفات أمام الكهوف، ويحفرون فيها حفراً مستديرة كانوا يسقفونها ويستعملونها للسكن. وقد اتخذت تلك الشرفات بمثابة محطات استراحة للصيادين والباحثين عن الطعام. وقد اكتشف المنقبون عن الآثار عدة مواقع من هذا القبيل، وكان أبرزها ذلك الموقع الذي اكتشف في عين جويف، في غور الأردن.

ولكن دوروثي غارود اكتشفت قرية في وادي النطوف الواقع شمال غرب القدس. وتعود هذه القرية إلى الألف العاشر (ق. م)، أو نحو ذلك. ثم تابع المنقبون أعمالهم فاكتشفوا ثلاث عشرة مستوطنة في بلاد الشام، معظمها في فلسطين

قرية شقبة في وادي النطوف.

الحضارة النطوفية هي أقدم حضارة قروية على الأرض.

ووادي الأردن. ولقد أطلق على هذه المستوطنات كلها اسم **الحضارة النطوفية**، التي هي أقدم حضارة قروية على الأرض، وفقاً للتنقيبات الأثرية حتى الآن.

وزهاء عام ٩٠٠٠ ق.م. أخذت القرية الفلسطينية هيئة مستوطنة دائمة ومتطورة، وتراوح عدد سكانها بين المائة والثلاثمائة نسمة، وبلغت مساحتها في بعض الأحيان زهاء ألف متر مربع، وبلغ عدد البيوت في القرية الواحدة إلى نحو من خمسين بيتاً. وقد كان البيت الواحد بمثابة حفرة مستديرة يبنى في داخلها جدار من الحجر الغشيم، أو الخام، ثم يبنى فوقه جدار من الطين، ويسقف بعد ذلك بالطين وأغصان الشجر.

القرى النطوفية

وهذه هي القرى التي ظهرت في فلسطين خلال الألف التاسع (ق.م): الملاحة، على الشاطىء الغربي لبحيرة الحولة، ولعلها أقدم قرية على الإطلاق، وشقبة في وادي النطوف، وأبو سيف والخيام، إلى الغرب من البحر الميت، ورأس زين ورأس حريس في النقب الشمالي، والبيضا في وادي العربة. أما خارج فلسطين فقد ظهرت الطيبة، إلى الشرق من اربد الحالية، ويبرود، إلى الشمال من دمشق، وأبو هريرة والمريبط على الفرات. وقد لوحظ أن الحضارة في جميع هذه القرى متجانسة، سواء في فلسطين أو في سواها.

والجدير بالملاحظة أن الناس قد استقروا في القرى اولاً ثم راحوا يمارسون الزراعة وتدجين الحيوان بعد ذلك. وهذا يعني أن الإنسان قد زرع لأنه استقر، وليس العكس، الأمر الذي يؤكد أن التطور الاجتماعي أسبق من التطور الاقتصادي. والحقيقة ان الناس لم يمارسوا الزراعة ولا تدجين الحيوان في هذه القرى الأولى، بل ظلوا يعيشون على الصيد وعلى جمع المحاصيل النباتية البرية.

أما في مضمار الصناعة فقد ابتكر الإنسان السهم ذا الرأس الصواني المزوّد بفرضة من شأنها أن تدل على أن الأداة قد غدت شيئاً مركباً من قطعتين. وهذا يعني أن العقل قد أخذ يسيطر على الواقع بالتدريج، من خلال ابتكاره للأداة المعقدة بعض الشيء.

الفن في العصر النطوفي .

وفي هذه المرحلة طوّر الإنسان الأدوات الصوانية بحيث صارت لها أشكال هندسية، مثل شبه المنحرف على وجه الخصوص، وصنع الناس الأواني المطبخية، وكذلك تلك التي تصلح لجرش الحبوب وسحقها والتي نستعمل في تقطيع اللحم، وكلها من الصوان والعظام. وقد عثر في الملاحة على مقالع للصخور من ذلك العصر، الأمر الذي يعني استقرار الناس في ذلك المكان على نحو دائم، أو رغبتهم في الاستقرار، على الأقل. وعثر كذلك على صوامع لاختزان الحبوب. وقد ترك لنا أهل الملاحة الكثير من المناجل، كما تركوا اكياساً من الجلد اعتادوا على استخدامها من أجل تخزين الحبوب.

وكثرت في هذا الطور العظام المحفورة والحجارة المنحوتة. ومن أجود ما وصلنا من هذا العصر تمثال صغير لغزال صنع من العظم. وفي أحد كهوف الكرمل عثر المنقبون على صورة لرأس ثور نقشها انسان ذلك الزمان على عظمة صغيرة. كما وصلتنا رسوم لحيوانات نقشت على الصخر في صحراء النقب. فلقد كان الغزال هو اكثر الحيوانات انتشاراً في فلسطين خلال تلك الحقبة. والحقيقة ان النحت قد انصب على الحيوانات، وعلى التماثيل ذات العلاقة بالغرائز الجسدية، وهذا يعني أن الإنسان قد عبد، أول ما عبد، تلك العناصر التي تصون حياة النوع البشري وتضمن استمراره.

ومارس النطوفيون التجارة على نطاق واسع نسبياً. فلقد عثر في قراهم على أصناف من الحلي الصدفية جاءت من شواطىء البحر المتوسط والبحر الأحمر. ولدى المتخصصين بشؤون ما قبل التاريخ من القرائن ما يؤكد أن النطوفيين قد تاجروا بالملح والجلود، وكذلك بالعظام المحفورة.

أما على الصعيد الديني، فلا ريب في أن انسان الحضارة النطوفية قد كان يؤمن بحياة بعد الموت. والدليل على ذلك ما عثر عليه المنقبون من أواني الطعام في المقابر، وكذلك من التقدمات النذرية التي تدل على أن الميت ما انفك يعيش، ولكن خارج هذا العالم، حسب اعتقادهم.

وأهم ما في أمرهم أنهم كانوا يعبدون جماجم الموتى. فقد اعتادوا على قطع رأس المتوفى والاحتفاظ به لديهم، ونقله معهم حين يرحلون. إلا أن عبادة الربة الأم قد كانت العبادة الأولى في هذه الحقبة، وفي الأحقاب السابقة. والدليل على ذلك كثرة تماثيل الربة الأم التي خلفتها العصور الحجرية. وما عبدت الأم إلا لأنها مصدر الحياة البشرية. فالانسان قد عبد الحياة في مصادرها الثلاثة: الطعام والجنس والأمومة.

ومما هو لافت للانتباه أن انسان الحضارة النطوفية أقصر وأنحف من انسان العصر الحجري القديم. ولكن جمجمته ميالة إلى الاستدارة. وأغلب الظن أن النطوفيين قد جاؤوا إلى فلسطين من خارجها. وربما جاؤوا من اليمن، لأن اجسامهم تشبه أجسام اليمنيين.

وفي أواخر الألف التاسع (ق.م). راح النطوفيون يهجرون قراهم لسبب لا يعرفه أحد على وجه اليقين. ربما تحت ضغط الجفاف، وربما تحت ضغط موجة من القادمين الجدد. ولكن هذه القرى لم تهجر قبل أن يرثها طور حضاري أرقى من الطور السابق، إذ لقد استطاع الوارثون أن يؤسسوا المدينة لأول مرة على الأرض.

٤ ـ أريحا وعصورها المتباينة:

زهاء عام ٨٣٠٠ (ق.م). ظهرت في فلسطين مجموعة أخرى من القرى، أهمها أريحا في غور الأردن، ووادي الفلاح على الشاطىء قرب حيفا. أما خارج فلسطين فظهرت تل أسود، إلى الجنوب من دمشق، وتل الشيخ حسن على الفرات الأوسط. واستمرت المربيط في الوجود دون انقطاع.

تأسست أريحا فوق موضع من المواضع النطوفية القديمة، في زمن لا يمكن تحديده. ولكنها كانت شديدة النضج زهاء عام ٨٠٠٠ ق.م. واستمرت المرحلة الأولى من وجودها نحواً من ألف سنة، ثم اندثرت لسبب مجهول. وقد اكتشفتها السيدة كاثلين كنيون، المنقبة المشهورة.

وصل عدد سكان أريحا في مطالع الألف الثامن (ق.م) زهاء ألفي نسمة، أما مساحتها فقد بلغت ثلاثة هكتارات. وكان حولها سور يحيط بها من جهاتها كافة. وقد بلغ عرضه ثلاثة أمتار وارتفاعه سبعة. وكان للسور من الجهة الغربية برج مستدير زاد محيطه عن ثمانية أمتار. وفي داخله درج يصعد إلى أعلاه، وقد ظلت من الدرج اثنتان وعشرون درجة.

وأما بيوت أريحا فقد كانت دائريّة الشكل، أو هي ميالة إلى الاستدارة. وفي باب كل بيت درج يهبط إلى الأسفل. السقف من أغصان الشجر والطين. والأساس من الحجر الغشيم. أما الجدران فمن الطين وحده.

وانـدثرت أريحا الأولى في أواسط الألف الثامن (ق.م)، وقد مرت بمرحلة فراغ حضاري استمرت حتى عام ٧٣٠٠ (ق.م)، على وجه التقريب. ثم عادت إلى الظهور من جديد. ولكن بعض المواقع الحضارية الأخرى في فلسطين قد استمرت في الوجود حتى العصر اللاحق، أي عصر أريحا الثانية، وأهمها الخيام ووادي الفلاح. وهناك عدد من القرى الجديدة عاصر أريحا الأولى. وأهمها جلجال الواقعة في غور الأردن إلى الشمال من أريحا، وعلى مسافة عشرين كيلومتراً. وقد ضمت هذه القرية اثني عشر منزلاً مستديراً، جدرانها من الحجارة. وكذلك قرية أبي سالم في أواسط النقب، وهي التي لم تعمر اكثر من قرنين. بيوتها مستديرة لا يزيد قطر الواحد منها عن أربعة أمتار.

أما وادي الفلاح فقرية تحتوي على أربعة عشر منزلاً، كل منها مفروش بطبقة من الطين، وله حفرة موقد تحيط بها الحجارة. والمنزل مزوّد بأدوات حجرية، أهمها أدوات السحق والجرش.

ويرجح المتخصصون بشؤون ما قبل التاريخ أن انتعاش الحضارة في فلسطين، خلال القرون الأخير من الألف الثامن (ق.م). مرده إلى أن جماعات مهاجرة من سوريا قد دخلت فلسطين وامتزجت بسكانها، وأعادت نبض الحياة القروية إلى سالف عهده، بعد انقطاع دام ثلاثة قرون على وجه التقريب.

فالحقيقة ان الانسان من عرق البحر المتوسط، وهو من ظهر في أريحا خلال طورها الثاني، كان قد سبق له أن ظهر على الفرات. وهذا يعني أن سكان أريحا الثانية قد جاؤ وا من شمال سوريا. والحقيقة أن هذا العرق من ذوي الجماجم المستديرة والقامات الهزيلة القصيرة، هو عرق شديد الذكاء، فهو المبادر إلى تفجير «الثورة الحجرية» قبل عشرين ألف سنة من الآن. ويبدو أن فلسطين لم تعد المبادرة في صنع الحضارة خلال هذا الطور الجديد، إذ لقد انتقلت المراكز الكبرى للحضارة إلى شمال سوريا.

وعلى أية حال، أصبحت بيوت أريحا في هذا العصر مستطيلة لها جدران من الطين، ترتكز على أسس من الحجر الخام. وأرضية المنزل مطلية بطبقة من الجص الناعم، لونها أحمر في معظم الأحيان. وقد اكتشف محراب في أحد المباني، وعثر في المحراب على عمود من الحجر البازلتي. وهذه هي عبادة الأنصاب الوثنية.

وظهرت في هذا الطور قرى جديدة في فلسطين، وهي المنحطة في وادي الأردن، قرب بيسان، أو إلى الجنوب من بحيرة طبرية، والشيخ علي، عند الشاطىء الجنوبي الغربي لتلك البحيرة نفسها، وبيسمون في جبال الجليل، قرب صفد، وقد بلغت مساحتها عشرة آلاف متر مربع، وفارة قرب جنين، وأبو غوش في جبال نابلس، وناحال في النقب الشمالي. واستمرت في الوجود كل من أريحا والبيضا ووادي الفلاح.

ولكن الحضارة القروية في فلسطين قد عادت إلى التدهور من جديد في أواخر الألف السابع (ق.م)، إذ أخذ الناس يهجرون أريحا والمنحطة والبيضا، ربما بسبب الجفاف. بيد أن الشيخ علي قد استمرت في الوجود، نظراً لقربها من بحيرة طبرية. وهنالك ما يبعث على الظن بأن قرية الشيخ علي قد هجرت في ذلك الزمن نفسه، ولكنها سرعان ما بنيت من جديد على أيدي أناس قدموا من الصحراء. والدليل على هذا أن بيوتها دائرية الشكل، وذلك في عصر صارت بيوته مستطيلة.

ظهر البيت المستطيل اول ما ظهر في قرية البيضا الواقعة الى الجنوب من البحر الميت.

فالقادمون الجدد متخلفون ولا يجيدون العمارة. فكان عليهم أن يبدأوا بأكثر الأنماط تخلفاً.

ويزداد تدهور الحضارة القروية في فلسطين ابتداء من أواسط الألف السادس وحتى اواسط الألف الخامس (ق.م). ويبدو أن الاقليم أصبح مرتعاً للرعاة خلال هذه السنوات الألف، بينما أصبحت سواحل سوريا ولبنان هي التي تستضيف مراكز الحضارة الطليعية. فلقد تأسست جبيل حين ذبلت الحضارة القروية في فلسطين، أي رهاء عام ٥٥٠٠ق.م. بيد أن أريحا قد ظلت مأهولة بالسكان حتى أواخر الألف الخامس. وعند ذاك فان ثمة ما يثبت أنها قد تعرضت لانقطاع حضاري. وهي لن تبنى من جديد إلا في القرون الأخيرة من الألف الرابع (ق.م).

وأيا ما كان الشأن، فقد ادهرت الحضارة الريفية في فلسطين أيما ازدهار في الفترة الواقعة بين ٧٣٠٠ و ٥٥٠٠ (ق.م). والحقيقة أن هذه المرحلة قد شهدت تطورات كبيرة في مضمار الزراعة والعمارة وتربية الحيوان. ففي تلك العصور مارس الإنسان زراعة القمح والشعير ودجن الحيوان، ولا سيما الكلب، أقدم اصدقاء الإنسان، ثم الماعز والغنم، والثور والحمار. لقد لاحظ المتخصصون أن نمو الزراعة قد كان يترافق مع نمو البيت المستطيل الشكل وانتشاره. وهكذا انتقلت العمارة في الألف السابع (ق.م). من النمط المستدير إلى النمط المستطيل. وكان ابتداء هذا النمط الأخير في قرية ناضجة تسمى البيضا، وتقع في وادي العربة. إلا أن هذا النوع من البناء المتطور لم يبدأ في فلسطين وإنما على الفرات، وفي مرحلة تعود إلى الألف الثامن (ق.م)، أي قبل ظهوره في فلسطين بألف سنة.

وقد أصبحت أرضية المنزل مفروشة بطبقة من الجص في جميع المنازل الفلسطينية. وأصبحت البيوت ذوات المحاريب منظراً مألوفاً في كل من أريحا والمنحطة. وأبرز تطور قدمته البيضا يتلخص في أن المنزل الواحد قد صار يحتوي على عدة غرف متلاصقة. وهكذا ظهر البيت بمفهومه الحديث. وفي بيسمون

الواقعة في الجليل الأعلى، إلى الغرب من بحيرة الحولة، أصبح البيت يتألف من خمس غرف مربعة الشكل، وطول ضلع الغرفة أربعة أمتار. وتدل هذه الظاهرة على أن الأسرة قد أخذت شكلاً جديداً، إذ ربما صارت تتألف من الجد والأبناء والأحفاد، الشيء الذي ظل مألوفاً في فلسطين (وفي سواها) حتى القرن العشرين.

ويبدو أن البيضا قد كانت البلدة الأكثر تطوراً في ذلك العصر بعد أريحا. فقد ثبت أنها كانت تزرع القمح والشعير زهاء عام ٧٠٠٠ ق.م. وأنها قد دجنت بعض الحيوانات أيضاً، ولا سيما الماعز، وربما ورثت عادة التدجين من الخيام، الواقعة إلى الشمال الغربي من البيضا. وقد اكتشف المنقبون في قرية البيضا دكاناً لبيع اللحم، وكذلك معملاً صغيراً لصنع العظام والحلي، وخاصة العقيق والصدف. كما اكتشفوا معملاً آخر لصنع الأدوات الصوانية، ولاسيما رؤوس السهام.

أما اقتصاد أريحا في هذا الطور فما كان لينحصر في الزراعة وحدها، إذ لقد اجتازت التجارة شوطاً متقدماً وطويلاً في تلك الأيام. فلقد كانت المدينة تصدّر الأسفلت والملح والكبريت، وجميعها من المواد التي يمكن استخراجها من البحر الميت. وأهم مافي الأمر أن أريحا قد عرفت بعض العلاقات الاقتصادية مع الأناضول، إذ لقد عثر في أريحا على قطع من حجر الاوبسيديان، وهو حجر زجاجي بركاني استخدمه الناس يومذاك في صناعة النصال والمرايا. ومن المعروف أن هذا الحجر لا وجودد له إلا في شاتال‌حويوك، وهي قرية في الأناضول، ازدهرت خلال الألف السادس (ق.م).

وفضلاً عن ذلك، فقد تأكد المتخصصون في شؤون ما قبل التاريخ من وجود نوع من التشابه في العقيدة الدينية بين شاتال حويوك وبين فلسطين. ففي

تلك القرية الأناضولية تظهر الربة الام جالسة، وهي تظهر بالوضع نفسه في منحوتات أريحا واليضا.

وفي احدى طبقات أريحا، بل في واحدة من أدنى طبقاتها، يظهر الفخار البني الضارب إلى الحمرة. ويعتقد غارستنغ، وهو واحد من أبرز الذين نقبوا في أريحا، أن الفخار قد صنع في تلك المدينة لأول مرة في التاريخ. والأرجح أن ذلك الاختراع قد تم انجازه خلال الألف السادس (ق.م).

أما الحياة الدينية في أريحا فقد كانت شديدة التطور زهاء عام ٥٠٠٠ق.م. فلقد اكتشف فيها معبد يرقى إلى هذا العام الأخير نفسه. وربما كان ذلك المعبد مخصصاً لعبادة القمر. كما عثر المنقبون على مجموعة من التماثيل هي بمثابة تصوير مبكر لمفهوم الأسرة، لأنها تمثل الأب والأم والإبن، وهذا يعني أن الأسرة كانت قد استقرت إلى حد بعيد في الألف السادس (ق.م).

وفي المنحطة عثر المنقبون على بعض التماثيل البشرية المصنوعة من الطين المشوي، والميالة إلى تضخيم الجسم البشري، بطريقة ليست واقعية، بل شديدة الغرابة. وهذا يعني أن عبادة الأم الرهيبة قد حلت محل عبادة الجماجم القديمة. والحقيقة أن الرعب الذي تمثله المنحوتات في ذلك الطور (أواسط الألف الخامس، أو نصفه الثاني) هو ميزة تخصُّ النحت في فلسطين وحدها. ولكن هذه الميزة دليل على أن مفهوم الإله المجرد قد بدأ يظهر إلى حيز الوجود، إذ لا بد للتجريد من أن يكون قد انبثق من انفعال نفساني، لا من غريزة جسدية.

٥ ـ الانتقال الى التاريخ:

عادت الحضارة إلى الازدهار في فلسطين من جديد، ابتداء من أواخر الألف الخامس ق.م، يوم كانت أريحا تتلاشى لكي تمر بمرحلة فراغية مدتها ألف سنة تقريباً.

فقد عثر المنقبون عند الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الميت، أي مقابل أريحا من جهة الشرق، على آثار قرية في مكان يسمى تليلات الغسّول. وقد تبين أن هذا الموقع كان مزدهراً في الألف الرابع (ق.م)، أي في العصر الحجري النحاسي. وربما بني هذا الموقع بأيدي سكان أريحا يوم خربت مدينتهم في أواخر الألف الخامس (ق.م). والجدير بالتنويه أن أريحا نفسها قد بنيت من جديد في القرن الثالث والثلاثين، أو الذي يليه، ولكن لتكون قرية صغيرة هذه المرة.

يتميز هذا الطور في فلسطين أو في سواها بالعديد من الخصائص التي لم تتوفر قط لأي طور من الأطوار السابقة. ولعل أهم هذه الخصائص استعمال النحاس في فلسطين على نحو أولي، منذ البدايات الأولى للألف الثالث (ق.م). وربما بفضل مناجم النحاس التي اكتشفها الفراعنة في سيناء. ولكن انتشار النحاس على نطاق واسع نسبياً لم يلغ الأدوات الحجرية، لا في فلسطين ولا في سواها، فقد ظلت هذه الأدوات شديدة الشيوع حتى عام ١٠٠٠ ق.م، على الرغم من أن النحاس قد اكتشف بكميات كبيرة سنة ٢٠٠٠ ق.م، وذلك في ادوم الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت.

ومن أهم خصائص العصر الغسّولي كثرة المدن في فلسطين. ففضلاً عن الغسّول وأريحا، ظهرت إلى الوجود مدينة جازر (تل الجزر الحالية)، إلى الجنوب الشرقي من الرملة، وكذلك مجدو (اللجون الحالية)، إلى الجنوب الشرقي من حيفا، والعفولة، جنوب الناصرة، وبيت شآن، أوبيسان، ولاخيش، أوتل الدوير الحالية، إلى الشمال الشرقي من غزة. وفي عين سلوان، التي لا تبعد اكثر من رمية حجر عن أسوار القدس، اكتشف باركر، وهو منقب أثري بارز، عام ١٩٠٩. قبوراً وخزفيات ترقى إلى مطالع الألف الرابع (ق.م)، وقد أثبتت الحفريات أن أماكن كثيرة أخرى قد كانت مأهولة بالسكان منذ ذلك العصر نفسه، وعلى الأخص قرب يافا ونابلس. ولا شك في أن هذه الأماكن كلها قد مارست العمارة والزراعة والتجارة واستعمال النحاس وصناعة الفخار على نحو متطور من شأنه أن

يمهد للدخول في التاريخ. كما أنها قد عرفت التحصين الدفاعي، مما يؤكد وجود الدولة، ولو بصورتها الأولية، إذ لا تحصين بلا جيش، ولا جيش بلا دولة. ولقد تطورت الفنون الجميلة في هذا الطور، وكذلك أشكال العقائد الدينية، إلى حد لم يؤلف من قبل في فلسطين كلها.

ففي الغسّول نفسها كانت البيوت مستطيلة الشكل، وأمام كل بيت كبير باحة واسعة. وهذا تقليد معماري ظل شائعاً في قرى فلسطين حتى القرن الراهن. ولقد بنيت الأسس من الحجر الغفل، والجدران من اللبن، أما السقف فمن القصب والطين. وكان لمدينة جازر في الألف الرابع معبد وسور ابتدائي من الطين والحجارة. وسوف يبلغ سمك هذا السور في الألف الثاني (ق.م)، إلى خمسة أمتار، أو اكثر بقليل.

أما تحصينات أريحا في اوائل الألف الثالث (ق.م)، وفي اواسطه، أي عشية قدوم الكنعانيين والأموريين إلى فلسطين، فكانت على شيء من المناعة والقوة. ومع ذلك فقد دمرتها الزلازل عدة مرات، وفي كل مرة كان بناؤها يعاد من جديد. وفضلاً عن الزلازل فقد تعرضت أسوار أريحا للتدمير على أيدي بعض الغزاة. وفي الحق أن هذه المدينة قد كانت في بعض المراحل القديمة قلعة تدافع عن أواسط فلسطين من جهة الشرق ضد غارات الصحراء، إذ إن نهر الأردن عند أريحا يغدو صالحاً للعبور بسهولة قد لا تتوفر له في أي مكان آخر. وهذا هو ما يفسّر كثرة هجمات البدو على أريحا.

ولقد اكتشف المنقبون تحت أرض المنازل في الغسّول جراراً فخارية دفن فيها بعض صغار الأطفال، وقد وضع كل منهم في الجرة على نحو منحنٍ، تماماً كما لو كان جنيناً في رحم أمه. وعثر على جرار مماثلة في جازر أيضاً. وقد وجد المنقبون في هذه المدينة الأخيرة أوعية فخارية ملئت بالطعام والشراب ووضعت إلى جانب التوابيت الفخارية. وهذا يعني أن الناس في تلك الأيام كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت. ولكن معظم جثث الموتى كانت تخضع للحرق خلال ذلك العصر.

وأثبتت التنقيبات التي أُجريت تحت معبد جازر أن الخنزير، الذي لا يعرف المؤرخون شعباً دجنه قبل الفلسطينيين، قد كان أفضل اضحية يمكن للمرء أن يقدمها للآلهة، ربما لسمنته، أو ربما لشدة ندرته في ذلك الزمان. فلقد اكتشف المنقبون كميات كبيرة من عظام الخنزير تحت معبد جازر، وهي تعود إلى الألف الرابع (ق.م).

وفي جازر كان الناس يزرعون التين والزيتون والكرمة، ويعصرون العنب من أجل الخمر، وكذلك الزيتون من أجل الزيت. وكانت عمليات الاعتصار والتخمير تتم في حفر صغيرة نقرت في الصخر من أجل هذا الغرض.

وفي مجدو عثر المنقبون على صور حيوانية وبشرية رسمت على حجارة تعود إلى الألف الرابع (ق.م). كما اكتشفوا في الغسّول صوراً جدارية تعاصر صور مجدو هذه. وقد رسمت تلك الصور على الجدران الداخلية للبيوت، وهي جدران طينية مطلية بالكلس الأبيض. والأشكال ههنا بشرية أو إلهية، ولكن لا وجود لصور الحيوان بينها. وربما دلت هذه الظاهرة على ان انسان فلسطين في ذلك العصر قد غادر الصيد إلى الزراعة منذ زمن بعيد.

ولا يعرف المتخصصون في شؤون ما قبل التاريخ مكاناً آخر في العالم قد سبق الغسّول في مضمار الزخرفة الجدارية. فهي، إذن، أول مكان في العالم يمارس فن الديكور. ولكن الرسوم التي تركها الفنانون الغسّوليون على الفخار قد كانت أرقى الأعمال التشكيلية التي وصلت الينا من ذلك العصر القديم.

ومما هو جدير بالتنويه أن معظم المدن الفلسطينية التي أصبح لها أسماء كنعانية في أواخر الألف الثالث (ق.م). لم تكن من انشاء الكنعانيين على الاطلاق. وليس في امكاننا اليوم أن نحدد هوية الأقوام التي بنت تلك المدن. وعلى أية حال، فان الساميين حين وفدوا إلى فلسطين في واسط الألف الثالث (ق.م). قد وجدوا فيها حضارة متطورة صالحة للدخول في التاريخ. ولكنهم سرعان ما طبعوا الإقليم كله بطابعهم الخاص بعدما تمثلوا منجزاته الحضارية برمتها.

الفصل الثاني

الكنعانيون والاموريون

لسنا نعرف بدقة متى بدأت القبائل السامية بالتدفق على فلسطين، أوعلى سواها من بلاد الشام. غير أن المؤرخين يتفقون على أن الكنعانيين والآموريين، الذين ينتسبون إلى ربهم آمور، قد هاجروا من شبه جزيرة العرب إلى الشام زهاء عام ٢٥٠٠ ق.م. واستقر الكنعانيون في الساحل، بينما استقر الآموريون في الداخل، ولا سيما في الجبال.

١ ـ الحرب بين فلسطين ومصر:

ويبدو أن الوافدين الجدد قد أخذوا يثيرون الشغب في فلسطين ويعرقلون سير القوافل التجارية من مصر إلى جبيل (بيبلوس) التي كانت تربطها بدولة الفراعنة صلات وثيقة، مما اضطر الفرعون ساحورع، من الأسرة الخامسة، إلى تجهيز اسطول بحري قام بإغارة على فلسطين وعاد منها محملاً بالأسرى، وذلك في

القرن الخامس والعشرين (ق. م)، وقد ظهر هؤلاء الأسرى في الصور الفرعونية بقاماتهم المديدة الشديدة الصلابة والصالحة تماماً للقتال وحياة الجندية. والأرجح أنهم من الآموريين الذين وصفهم سفر عاموس، وهو من أسفار التوراة، بأن أجسامهم شامخة كالأرز، وقوية كالسنديان.

بيد أن الحرب بين مصر وفلسطين سرعان ما تجددت خلال القرن الرابع والعشرين، وذلك في عصر الفرعون بيبي الأول الذي حكم مصر منذ العقود الأولى للقرن الرابع والعشرين (ق. م). ففي مدينة أبيدوس المصرية اكتشف المنقبون مقبرة لقائد مصري يسمى ونا. وقد كتب هذا الرجل سيرة حياته على جدران مقبرته الواسعة. وأهم ما فيها تلك الحملات الخمس التي شنها الجيش المصري على فلسطين بقيادة ونا نفسه. وما كان لنا أن نعرف شيئا عن هذه الحرب الثانية لولا مذكرات القائد المصري المكتشفة في أبيدوس.

يقول ونا: «وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الآسيويين والساكنين على الرمال، فقد جمع جلالته جيشاً من عشرات الآلاف الكثيرة. .» ولكن ونا لا يذكر أيها سبب من الأسباب التي دفعت بالفرعون إلى معاقبة الآسويين والساكنين على الرمال، وهم من كانت مصر تسميهم العامو، أو بدو الرمال.

ثم يسهب ونا في ذكر الأماكن التي تم فيها تجنيد الجيش المخصص لغزو فلسطين. ولم تكف مصر وحدها لتجنيد هذا الجيش، إذ التجأ الفرعون إلى ليبية والنوبة طلباً للجنود. ولقد رافق هذا الجيش عدد كبير من الموظفين والمترجمين والكهنة. وفي هذا كله تصريح واضح بأن الأمر شديد الأهمية. فالفرعون يريد أن يعاقب الفلسطينيين من أجل اعتداء كبير، أوربما اعتداءات متكررة، قاموا بها ضد مصالح مصر، أوعلى مجالها الحيوي، إذ ربما كانوا قد زعزعوا الأمن على الطرق التجارية التي تربط مصر بشمال الشام، أوربما هم أغاروا على سيناء حيث مناجم الذهب والفيروز والنحاس، بعدما لمسوا شيئاً من الضعف في الدولة المصرية، منذ عصر الأسرة الخامسة.

خرج ونا إلى فلسطين في خمس حملات عسكرية على أقل تقدير. وهذا وحده دلالة ناصعة على أن الأمر قد كان شديد الخطورة، إذ ربما حاولت القبائل المحتشدة في جنوب فلسطين أن تجتاح مصر نفسها.

أما الحملات الأربع الأولى فقد كانت برية كلها. وأما الحملة الخامسة فهي برية وبحرية في آن واحد. فلقد خطط ونا خطة تقضي بأن يضع السواحل الفلسطينية بين نارين. فبينما كانت الحملة البرية تسير من الجنوب إلى الشمال، فقد نزلت الحملة البحرية في مكان ما إلى الجنوب من جبل الكرمل، وأخذت تجتاح السهل الساحلي من الشمال إلى الجنوب، أي هي جاءت من حيث لا يتوقع أحد. ويزعم ونا أن جميع حملاته قد تكللت بالنجاح ولكن هذا الزعم ليس إلا من قبيل المنفخة، إذ لو نجح بالفعل لما أعاد الكرة خمس مرات على الأقل. والأرجح أن حملته البرية ـ البحرية هي وحدها التي نجحت، وذلك بفضل تحقيقها لعنصر المفاجأة الآنف الذكر.

ولقد جاء في تقريره الشعري الذي رفعه إلى الفرعون أن جيشه قد عاد سالماً بعدما خرب أرض ساكني الرمال ودمر مدنهم المسوّرة، وهدم حصونهم المنيعة، وقطع تينهم وكرومهم، وأضرم النار في جميع «بيوتهم الفاخرة»، على حد قوله، وذبح عشرات الآلاف من جنودهم، وأسر جيوشا كثيرة العدد. وفي الرسوم المصرية صور لمدن فلسطين المسوّرة التي هاجمها الجيش المصري في تلك الحملات.

ويستفاد من هذا التقرير أن هذه الحرب لم تكن تدور بين مصر والبدو، بل هي حرب بين شعبين متحضرين، وإن لم يكونا متكافئين من حيث العدد والعدة. والأرجح ان قوى البدو كانت تعمل تحت امرة بعض ملوك المدن الراغبين في الاستفادة من خطوط التجارة الدولية المارة بمناطق نفوذهم.

ثم يروي القائد المصري، ولكن نثراً هذه المرة، كيف قضى على تمرد قام به السكان عند مكان يسمى «أنف الريم». وليس ثمة دليل واحد على أن هذا المكان هو جبل الكرمل نفسه، كما ادعى السير الن غاردنر في كتابه الممتاز، «مصر

الفراعنة». ولكن ونا نفسه يؤكد على أنه قد أوغل شمالاً حتى بلغ إلى التلال. وهذا يعني أنه قد وصل إما إلى الكرمل، أو إلى جبال الجليل، أوربما إلى الأطراف الشمالية الغربية لجبال نابلس، حيث فتك ببعض السكان. وربما أشارت كلمة «تمرد» الواردة في التقرير إلى أن سواحل فلسطين قد كانت جزءاً من مملكة الفرعون، أو إلى أن الفرعون قد كان يعتبرها جزءاً من مملكته.

ولا ندري كم طال أمد هذه الحرب، أما نهايتها فلا بد من أن تكون لصالح العملاق المصري. ويمكن الظن بأن الحرب قد استمرت زهاء عشرين سنة. ويبدو أن الدبلوماسية قد لعبت دوراً كبيراً في حسمها، والا فلماذا اصطحب الجيش المصري معه حشداً من أكابر الموظفين والمترجمين والكهنة؟

وفي عهد بيبي الثاني، الذي وصل إلى السلطة عام ١٣٤٠ (ق.م). تقريباً، تمردت فلسطين من جديد في أواخر القرن الرابع والعشرين. وحشد الفرعون جيوشه وخرج بنفسه ليواجه المتمردين. ولكن الوضع الدولي كان قد تغير في هذه الفترة. فقداستطاع سرجون الأكادي أن يوحد العراق وأن يحتل شطراً من الأناضول الشرقي، وأن يصل إلى البحر المتوسط مجتاحاً شمال بلاد الشام. وبذلك بنى أول امبراطورية ساميّة في التاريخ.

يقول أسد الأشقر، في الجزء الأول من «تاريخ سوريا» (ص١٠٩): «وقبل أن يعود سرجون إلى عاصمته علم أن فرعون مصر تقدم بجيشه إلى فلسطين، فاتجه نحو الشاطىء الجنوبي، وكان أول اصطدام بين وادي الرافدين والمملكة المصرية، تراجع على أثره الفرعون بيبي إلى وراء الحدود».

والأرجح أن فلسطين لم تتمرد على الفرعون إلا بتحريض من سرجون نفسه، وهو الملك الطامح إلى الهيمنة على البحار الأربعة: الخليج والبحر الأسود والبحر المتوسط والبحر الأحمر، أوخليج العقبة على الأقل. ولكن دولة سرجون سرعان ما ضعفت. وأغلب الظن أن فلسطين قد عادت إلى الحظيرة المصرية بعد وفاته.

وفي عهد نارام سين، حفيد سرجون الأكادي ومجدد الدولة التي بناها أول الأباطرة الساميين، اندلع القتال من جديد بين فلسطين ومصر. ومن المحتمل ان يكون نارام سين وراء ثورة الشعب الفلسطيني ضد الفرعون. وأغلب الظن أن مصر قد كانت مدافعة هذه المرة، وأن القبائل الكنعانية والآمورية قد اجتاحت سيناء، منتهزة فرصة انهيار الحكومة المركزية وقيام الثورة الاشتراكية فيها، وذلك في اواسط القرن الثالث والعشرين (ق.م).

لقد عثر المنقبون على وثيقة فرعونية كتبها كاهن يدعى ايبوور، أو ايبو العجوز، وفيها يتحدث هذا الكاهن عن الدمار الذي آلت اليه مصر، وعن هيمنة «الآسيويين» على مقدراتها. ويقول صراحة: «ما عاد أحد يبحر اليوم نحو جبيل». وهذا يعني ان طرق التجارة قد انقطعت. ويضيف أن الأجانب ما عادوا يخافون مصر، التي لم يبق لها شيء يحميها سوى رمالها. وهويتهم «الآسيويين» بالإسهام في تخريب مصر. وقد كان الفراعنة يطلقون اسم «الآسيويين» على جميع الشعوب التي تلي سيناء، أو ربما الدلتا، من جهة الشرق. ويؤكد ايبو أن الأغراب صاروا مصريين، بينما صار المصريون أغراباً في بلادهم.

٢ ـ فلسطين والدولة المصرية الوسطى:

لا يعرف المؤرخون ماذا حدث في فلسطين بين عام ٢٢٥٠ وعام ١٩٥٠ ق.م. فالوثائق الفرعونية لا تسعف المؤرخين من جديد إلا ابتداء من أواسط القرن العشرين (ق.م).

ففي عام ١٩٧٠ ق.م. اغتيل امنمحات الأول (واسمه اليوناني امنميس) مؤسس السلالة الفرعونية الثانية عشرة، وهي أقوى السلالات في تاريخ مصر كله. وكان ولي عهده سنوسرت الأول (واسمه اليوناني سيزوستريس) في حملة ضد ليبية حين بلغه نبأ اغتيال أبيه. وكان في رفقة ولي العهد رجل من كبار المتنفذين في البلاط يسمى سنوحي Sinuhe.

رتنو هو اكم بلاد الشام .

سمع سنوحي ، وهو عائد من ليبية ، بأنباء الاضطراب في البلاط ، فقرر أن يعتزل الجيش متخوفاً من فتنة كبيرة ، وأن يرحل إلى خارج مصر طلباً للأمن والراحة . فاتجه إلى الشرق وعبر سيناء ثم دخل بلاد رتنو ، وهذا هو الأسم الذي كان يطلقه المصريون على بلاد الشام في ذلك الزمان . ويقول السير آلن غاردنر أن سنوحي قد قضى فترة اغترابه الطوعي في فلسطين ، أو في مرج بني عامر حصراً . بينما يقول فليب حتي ان سنوحي قد عاش تلك الفترة في لبنان ، بل في سهل البقاع .

وسواء عاش سنوحي في مرج بني عامر أو في سهل البقاع ، فان الوصف الذي قدمه الرجل يصلح للمكانين معاً ، لأن المرج لا يقل خصوبة عن سهل البقاع .

وصلت أنباء سنوحي إلى مسامع الفرعون بعدما تناقلتها الركبان ، فما كان من سنوسرت الأول إلا أن أرسل من يعود به إلى الوطن . وهناك كتب مذكرات رحلته التي قد تكون أقدم تدوين لأدب الرحلات في تاريخ البشرية ، مثلما كانت سيرة ونا أقدم تدوين للسيرة الذاتية كتبه البشر .

تحدث سنوحي عن التين والكرمة والخمر الاكثر غزارة من الماء ، كما تحدث عن العسل والزيتون والشعير والمواشي التي لا حصر لها . وهذا يعني أن البلاد قد كانت في حال من الرخاء والازدهار الاقتصادي الذي لم ينغصه شيء سوى الحروب . فأهم خبر ذكره سنوحي هو اشتراكه مع أهل رتنو في صد غارة بدوية أطلق على رؤسائها اسم «حقاو خاسوت» ، أي حكام البراري ، وهذا هو الأسم الذي أطلقه الاغريق على الهكسوس فيما بعد .

سكن سنوحي في بلدة اسمها إيا ، وتزوّج من أبنة أمير آموري ، وعاش في كنف ذلك الأمير ، وحاول أن يستميله إلى صف السياسة الفرعونية . ولهذا فثمة اليوم من يظن بأن سنوحي قد كان مكلفاً من الفرعون بمهمة دبلوماسية . ولكن الأمير رفض أن ينحاز إلى أية جهة سياسية . غير أن سنوحي نجح في صد البدو

عن بلاد الشام، أو عن نصفها الجنوبي، وفي هذا دفاع عن مصر نفسها. ومما يشجع المرء على الاعتقاد بأن سنوحي قد جاء إلى رتنو، مكلفاً بمهمة من قبل الفرعون شخصياً، أن سنوسرت الأول قد كان القائد العسكري المضطلع بمحاربة «الآسيويين»، قبل تكليفه بمهمة الحرب في ليبية.

ويتحدث سنوحي عن معرفة السكان بمصر والمصريين، بل يذكر أن قسماً من الناس قد كان يتقن اللغة الفرعونية، أو لغة مصر في ذلك الزمان. وهو يضيف ما فحواه أن التجار المصريين كثيراً ما كانوا يترددون على رتنو، ثم يجتازونها إلى بلاد أبعد منها. والحقيقة أن آثار مجدو وجازر في فلسطين تؤكد التبادل التجاري بين مصر وفلسطين خلال القرن العشرين (ق.م).

ويرد في الرسالة التي بعثها سنوسرت إلى سنوحي ليستدعيه إلى البلاد، يرد قول الفرعون: «وقبّل الأرض عند البوابة الثنائية العظمى». وفي هذا اشارة صريحة إلى السور الذي بنته مصر، منذ أيام سنفرو، مؤسس اول هرم في التاريخ، بين البحر الأحمر والأبيض لترد عنها موجات «الآسيويين».

وفي مقبرة خنوم حوتب في بني حسن، وخنوم حوتب هو حاكم اقليم الوعل في عهد سنوسرت الثاني، أي زهاء عام ١٩٠٠ (ق.م)، عثر المنقبون على رسوم جميلة لجماعة من بلاد الشام، يرجح المؤرخون أنهم من فلسطين. وكان هؤلاء القوم يجلبون الكحل إلى «مدير اقليم الوعل»، ويظهر بينهم رجل يسمى أبشا، وهو شيخ آموري، ربما عاش في اواسط فلسطين، أو في شطرها الجنوبي. ومع أبشا، يرى الناظر في اللوحة بعض رجال قبيلته وبعض نسائها، وجميعهم يلبسون الثياب القصيرة الزاهية الألوان، والمصنوعة على نحو محكم ودقيق، مما يؤكد تطور الصناعة النسيجية في فلسطين خلال تلك الفترة. وليس فيهم من هو بلا حذاء، بل ان النساء يلبسن الجوارب الحمراء، فضلاً عن الأحذية اللامعة. أما الفساتين فتشبه فساتين النساء في زمننا الراهن، إذ الكتف الأيمن عار تماماً، أما الأيسر فلا

تغطيه إلا وصلة تثبت الفستان على الجسم. وأما غطاء الرأس فيقتصر على عصبة صغيرة تجعل الشعر ينسدل إلى الوراء بحيث يترك النحر مكشوفاً تقريباً.

أما الرجال فعيونهم سوداء، وكذلك لحاهم المعتنى بها وبترتيبها على هيئة تنم عن الوقار. فهي أشبه بخط رفيع ورقيق يستدير حول الوجه كله. والوجوه مفعمة بالحيوية والطيبة في آن واحد. أما الأجسام فرشيقة، وهي لا تعرف الترهل أو المرض.

وفي الجماعة رجل يسوق حماراً ويمشي في مؤخرة القوم. وهو يحمل قيثارة ثمانيّة الأوتار، وفي يده أداة يعزف بها على القيثارة، مما يؤكد ان الادوات الموسيقية قديمة في فلسطين. (عثر في مجدو على قيثارة تعود إلى القرن الثلاثين ق.م). وينتعل الرجل صندلاً، ويضع على ظهره قربة ماء، ويرتدي ثوباً ملوناً زاهياً يستر ما بين السرة والركبتين. وبقية جسمه عارية تماماً. وهنالك رمح وبعض العصي فوق سرج الحمار الصغير. وفي هذه اشارة إلى ان الأموريين شعب محارب تخشاه مصر. ويبدو ان هذه القبيلة التي يقودها أبشا في الأراضي المصرية قد كانت موالية لسياسة الفرعون.

* * *

وفي الفصل السادس من كتاب السير ألن غاردنر، «مصر الفراعنة»، يستقرىء المؤرخ البريطاني من قصة سنوحي، وكذلك من نبوءة نفرتي، «أن حاكماً قوياً مفرداً كان يسيطر تقريباً على معظم فلسطين». ولكنه سرعان ما يضيف قائلاً: «ومع ذلك فإن ثمة ما يعارض هذا الدليل». ولا ريب في أن اثبات وجود دولة موحدة تضم فلسطين كلها خلال القرن العشرين (ق.م). هو أمر عسير حقاً. ولكن وجود دولة المدينة في فلسطين لا شك فيه، وهو بالتأكيد أقدم من ذلك العهد بكثير.

وأياً ما كان الشأن فقد اندلعت الحرب من جديد بين فلسطين ومصر، خلال عهد امنمحات (امنمس الأول) مؤسس الأسرة الثانية عشرة في أوائل

سنوسرت الثالث.

القرن العشرين (ق.م). واقتحم الجيش المصري فلسطين بقيادة ولي العهد. (وربما كان سنوحي معه في هذه الحملة السابقة على حملة ليبية). وراح ذلك الجيش يحاصر المدن ويأسر الكثير من الأمراء والأعيان. وذكرت الوثائق أسماء المدن التي فتحت، ولكنها اسماء لا تمت إلى المدن الفلسطينية اليوم بصلة. وفي المرجح أن تكون عسقلان وششم، أو شكيم، التي بنيت مكانها قرية بلاطة قرب نابلس، من بين المدن التي تعرضت للهجوم. ولا هدف لهذا الهجوم إلا إعادة فلسطين إلى النفوذ المصري بعدما تخلصت منه يوم انهار العصر الهرمي في القرن الثالث والعشرين (ق.م). ففلسطين هي قلعة الدفاع المبكر عن مصر ضد «الآسيويين». وهكذا لا بد من أن تكون فكرة «فرعون الطاغية»، قد نشأت في فلسطين وعند الكنعانيين، قبل التوراة باكثر من ألف سنة. وهذه الفكرة هي مبدأ وطني وليس بطبقي، أقصد أنها أداة للتحرر من نير أجنبي يرضخ له الكنعانيون والآموريون الأشداء، الذين ما استساغوا الحكم المصري لبلادهم إلا على مضض، والذين لم يفوّتوا أية فرصة مناسبة للتحرر من نير الفرعون الذي مانظروا إليه إلا بوصفه محتلاً غريباً. ولا أدل على ذلك من كثرة الثورات في فلسطين ضد الفراعنة.

ولهذا فان تدويخ فلسطين في الربع الأول من القرن العشرين (ق.م). لم يمنعها من التمرد على السياسة المصرية مرة أخرى. وهكذا كان على سنوسرت الثالث، وهو أقوى فرعون حكم مصر طوال تاريخها، أن يقوم بهجوم شامل جديد خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر (ق.م). ويحدثنا عن هذا الهجوم واحد من كبار الضباط الذين رافقوا الفرعون في حملته هذه. فلقد صرّح سبك خو أنه اشترك مع الفرعون في الزحف على شكيم (قرب نابلس الحالية) وأن الفرعون قد انتصر على تلك المدينة وأخضعها لارادته بعد قتال شديد. وأضاف سبك خو أن الملك نفسه قد كافأه من أجل بسالته النادرة، فنال قوساً وخنجراً مفضضين

ومذهبين، كما نال صولجاناً من الذهب والفضة، وذلك فضلاً عن أسلحة الأسرى التي أخذها كغنيمة حرب.

وفي إفادة سبك خوهذه ما يؤكد على أن مدينة شكيم قد كانت في ذلك الزمن شديدة التطور في مضمار الصناعة والتجارة والسياسة والحرب. فلا بد من جيش دافع عن المدينة ضد جيش الفرعون، وإلا فكيف يمكن للقتال أن يكون قد حدث؟ وكيف للفرعون ان يكافىء هذا الضابط لبسالته؟ ولا بد من ملك لمدينة شكيم، وإلا فمن أين جاء الصولجان الذهبي ـ الفضي. وهذا يعني أن حكومة المدينة قد كانت سائدة في فلسطين خلال ذلك الزمن على الأقل.

وبعد تلك الحملة التي لا ريب في أنها قد كانت عنيفة ضارية، بحيث نتج عنها رضوخ اواسط فلسطين وجنوبها للفرعون، راحت الوفود الفلسطينية تزدحم أمام البلاط المصري لتؤدي الطاعة والولاء، ولتقدم أنفس ما يمكن تقديمه لأقوى ملك على الأرض في ذلك الزمان.

ويقول السير ألن غاردنر ان وثائق تلك الفترة قد تخلف في الذهن انطباعاً فحواه أن «فلسطين كان يسكنها حتى ذلك الوقت قبائل صغيرة، أو جماعات يحكم كل منها أمير من أهلها».

ولا ريب في أن تلك القبائل الصغيرة، وتلك الجماعات المستقلة، قد كان لها وجود في فلسطين خلال ذلك العهد. فالظاهرة البدوية قد استمرت في هذا الاقليم حتى اليوم. ولكن الشيء الذي لايقبل جدالاً أن المدن قد كانت متطورة آنذاك. وربما كانت مجدو وشكيم لا تقلان ازدهاراً عن مدن مصر، ولا سيما في ميدان الاقتصاد. وبما أن الجيش المصري قد قاتل ضد مدن لها قدرة نسبية على الدفاع، وبما أنه أسر بعض أمراء المدن وأعيانها، فلا بد من ان تكون المؤسسات السياسية والعسكرية شديدة التطور في ذلك الزمن.

ويبدو أن الصلات بين مصر وفلسطين قد ظلت ودية بعد وفاة سنوسرت الثالث عام ١٨٥٠ ق.م. فمن مظاهر حسن الجوار أن واحداً من اخوة أمير رتنو

قد كان يساعد المصريين في استخراج الفيروز من مناجمه قرب سرابيط الخادم في صحراء سينا، وذلك في عهد امنمحات (امنمس) الثالث، الذي حكم طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر (ق.م). ولا يستبعد أن يكون هذا الرجل أخاً لأمير يحكم واحدة من المدن الفلسطينية القريبة من الحدود المصرية، مثلما لا يستبعد أن تكون رتنو (بلاد الشام) موحدة تحت حكم أمير واحد.

وقد صانت لنا بعض الوثائق المصرية من الدولة الوسطى أسماء الكثير من الكنعانيين الذين كانوا يعملون في المناجم المصرية، وكذلك في مقالع الحجارة اللازمة للأبنية الفرعونية الشاهقة. ولقد صار بعض الكنعانيين إماء واتباعاً في معابد مصر، وفي بيوت أثريائها.

والحقيقة أن فلسطين، والسواحل الشامية جملة، قد صارت مستعمرة مصرية. ففي مجدو عثر على ختم لأحد المسؤولين عن المواشي، وهو موظف مصري كبير، كما عثر على تماثيل لحاكم مجدو، وهو تحوت حوتب، المعاصر لسنوسرت الثالث. وفي مقبرة هذا الحاكم المصري وجدت صور لماشية جلبت من فلسطين. وعلى بعض الأواني والتماثيل الصغيرة العائدة إلى أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة، نجد أسماء بعض القبائل من جنوب الشام، ولا سيّما ادوم، كما نجد أسماء بعض المدن مثل عسقلان وعكا والقدس ودمشق.

ولقد أنشأت الدولة الوسطى أسواراً لها بوابات على طول برزخ السويس، وذلك بغية التحكم بحركة الدخول إلى مصر. ولعل هذا البناء أن يكون مجرد تجديد للأسوار التي بناها سنفروزهاء عام ٢٧٠٠ق.م. كما بنت الدولة الوسطى قلعة عند بلبيس الحالية بهدف الدفاع عن الدلتا من جهة الشرق. وبهذه الوسائل استطاعت مصر أن تمنع قبيلة السيتو من الدخول إلى مصر. والسيتو قوم من البدو شديدو الميل إلى الشغب والعنف. ولكنها سمحت للكثير من قبائل العامو المسالمة بالدخول إلى مصر والإفادة من نيلها الغزير.

وفي هذه الانشاءات الدفاعية دلالة واضحة على الضغط الذي كانت تتعرض

له مصر عند حدودها الشمالية الشرقية. والحقيقة أن الموجات البدوية، وغير البدوية، قد كانت واحدة من اكبر متاعب مصر الفرعونية. ولسوف تتمكن احدى هذه الموجات من السيطرة على أرض الفراعنة طوال مدة لاتقل عن مائة وخمسين سنة.

٣ ـ الهكسوس يجتاحون مصر:

من المؤكد أن «الهكسوس» لفظة يونانية جاءت تحريفاً لكلمتين مصريتين هما «حقا وخاسوت»، أو حكام البراري، الذين سيطروا على بلاد الشام زهاء عام ١٨٠٠ ق.م. وبعد ذلك بقليل دخلت بعض مجموعاتهم إلى مصر عندما أخذ الضعف يدب في الدولة الوسطى. وكان القسم الأكبر من هذه المجموعات يتألف من الكنعانيين والأموريين. ففي هذا الطور دخلت إلى فلسطين جموع كبيرة من الحوريين، بحيث صار المصريون يسمون فلسطين بلاد خوري (بالخاء المعجمة). ويبدو أن تزايد الضغط الحوري المصحوب بضغط مارسته بعض القبائل الآرية الآتية من الأناضول، قد دفع ببعض الكنعانيين والأموريين، وكذلك ببعض القبائل الآرية التي سبق لها أن استقرت في فلسطين، إلى الهجرة باتجاه الدلتا حيث الماء والأرض الخصيبة والأمن.

ولكن احدى هذه الموجات قد اجتاحت مصر بالقوة عام ١٧٣٠ق.م، وألغت الأسرة الثالثة عشرة، وهيمنت على الشطرين الشمالي والأوسط من مصر. وبهذا يكون عصر الهكسوس قد بدأ.

بنى الهكسوس عاصمة لهم في مصر اسمها حت وعرة (هوارة) التي سماها الأغريق أفاريس. كما بنوا لهم عاصمة أخرى في فلسطين اسمها شاروحين (تل فرعة الحالية إلى الشمال الشرقي من غزة).

وأهم ما في أمر عمارتهم أنهم أنشأووا المدينة الحصينة الواسعة والقادرة على

استيعاب مركباتهم الحربية وايواء خيولهم الرشيقة. فلقد كانت محاطة بأسوار شاهقة وسميكة مصنوعة من الطين المتين، وحولها ثمة خندق عريض وعميق في بعض الأحيان. وأشهر مواقع الهكسوس المحصنة في فلسطين هي حاصور، ومعناها السياج، وتسمى اليوم تل القدح، موقعها إلى الشمال من بحيرة طبرية. وواضح تماماً أن كلمة «حاصور» سامية، وتعني الحصر، وهي على وزن فاعول الكثير الوجود في اللغة السريانية. ومن مدنهم المشهورة في فلسطين: أريحا وشكيم ولاخيش (قرب غزة وعسقلان)، وبيت شمش، التي تسمى عين شمس، وتقع بين يافا والخليل، وتبعد عن القدس زهاء ثلاثين كيلومتراً.

جاء الهكسوس إلى الشام ومصر بالحصان والعربة الحربية، كما جاؤوا بالسيف الحديدي المنحني والقوس المركب، وكلاهما سلاح أكادي قديم. وقد برع الهكسوس في صناعة المعادن، ولا سيما البرونز، كما برعوا في صناعة الخزف والحلي والنقش على العاج. وفي فلسطين، بوجه خاص، تقدمت صناعة الخزف كثيراً في عصر الهكسوس، بحيث بلغت ذروة لم تألفها من قبل.

والأرجح أن الحصان قد كان توتماً لدى الهكسوس، فقد كانوا يدفنونه في قبر خاص به، وأحياناً مع صاحبه، وهذا ما تدل عليه بقايا الخيول التي اكتشفت في تل العجول، وهو التل الذي بنيت عليه غزة القديمة. والجدير بالملاحظة أن الهكسوس لم يستخدموا الحصان في الركوب، وانما في جر عربات الحرب فقط.

مثّل الهكسوس في التاريخ المصري السلالتين الخامسة عشرة والسادسة عشرة. وكان الملك خيان أعظم ملوكهم. فقد استطاع أن يوحد مصر والشام كلها في دولة واحدة، لأول مرة في التاريخ. وقد حدث ذلك في اواسط القرن السابع عشر (ق.م).

بعدما يؤكد فليب حتي على السمة الكنعانية والآمورية لأسماء الهكسوس، وذلك في الجزء الأول من «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين»، فإنه يضيف قائلاً: «ويعقوب هذا هو حتماً يعقوب المعروف في التوراة». (ص ١٦٠) وهو يتحدث هنا

الملك ابوفيس هو اول موحد في التاريخ.

عن رجل الهكسوس اسمه «يعقوب هار»، ومعناه «ليحم هار إله الجبل».

ولماذا «احتلها» هذه؟ هل من المحال أن يكون في الدنيا رجلان اسم كل منهما يعقوب؟

ويقول أسد الأشقر في الجزء الأول من «تاريخ سوريا»: «ويبدو أن اليهود، بقيادة يعقوب، قد دخلوا مصر في تلك الحقبة» (ص ١٥٥).

ولا يدري المرء كيف تبنى أسد الأشقر مثل هذا الاحتمال الذي لا يسنده أي سند سوى أن واحداً من أسلافه العلم قد وجد في التوراة وفي الوثائق المصرية معاً؟ كان الأجدى بأسد الأشقر أن يطرح هذا السؤال: هل كان ثمة يهود على الأرض في أيام الهكسوس؟

ولا معنى لقول أحمد سوسة، في كتاب «العرب واليهود في التاريخ» بأن المنقبين عن الآثار قد اكتشفوا مكاناً يسمى يوسف ـ بعل. إن يوسف ـ بعل هو اسم كنعاني، ولا يعني شيئاً سوى أن السامنيين قد اجتاحوا مصر وحكموها خلال العصر الذي سمي عصر الهكسوس، وليس من الحتمي أن يدل اسم يوسف ـ بعل على يوسف بن يعقوب، المعروف في التوراة.

ولكن أهم ما ينبغي أن نعرفه عن الهكسوس خبر أورده أودولف أرمان في كتاب جيد عنوانه «ديانة مصر القديمة». يقول ذلك المؤرخ الألماني: «ثم عندما اتخذ الهكسوس عاصمة لملكهم في شرق الدلتا، عبدوا الإله سوتخ، وقد تواتر أن الملك أبوفيس لم يعبد الهاً آخر في كافة البلاد» (ص ١٢٠ من الترجمة العربية). وهذا يعني أن الملك أبوفيس، الذي عاش في القرن السابع عشر، قد كان أول موحد في التاريخ المعلوم. الجدير بالذكر ان المنقبين عن الآثار قد وجدوا الكثير من بقايا الملك ابوفيس المنتمي إلى السلالة الخامسة عشرة، وهي السلالة التي وحدت مصر والشام، وأقامت صلات دبلوماسية وتجارية مع بابل وكريت، وأعادت إلى مصر شيئاً من رونقها وعزتها.

٤ ـ مصر تتحرر من الهكسوس :

ترك الهكسوس مدينة طيبة، وهي في أقصى جنوب مصر، تتمتع باستقلالها الذاتي. وانتهزت طيبة ضعف قوة الهكسوس في اواخر عهد الأسرة السادسة عشرة، فنهض الملك الباسل سكنن رع زهاء عام ١٥٨٠ ق.م. ليقاتل الهكسوس مدعوماً بالفلاحين والتجار المصريين، ولكنه لقي معارضة ومقاومة من الأقطاعيين الذين يستفيدون دوماً من الغزاة الأجانب.

والأرجح أن الهكسوس قد قتلوا هذا الملك الوطني في ساحة المعركة. فقد اكتشف المنقبون جمجمته ووجدوا فيها آثار خمسة جراح بالسيف فضلاً عن آثار بضعة سهام. ولكن ابنه كاموسى (= الروح يولد)، وقد أسماه الأغريق كامس، قد تابع القتال بروح عالية، متخذاً من ارادة آمون سبباً للحرب ضد هؤلاء العامو (البدو) الذين يعبدون ست، اله الشر والصحراء. وأعلن كاموس علناً أنه ينفذ ارادة آمون الذي وعده بالنصر بعدما طالبه بمحاربة الكفار الأشرار.

وعاد كاموس إلى الجنوب بعدما انتصر على الهكسوس في الشمال، ولكن ليموت في ظرف غامض، وليتولى العرش من بعده أخوه أحمس (عاح موسى = القمر يولد). وهذا هو المحرر الفعلي لمصر من الهكسوس. فقد فتح عاصمتهم أفاريس (هوارة) عام ١٥٧٥ق.م.

ولكن فلسطين كانت القاعدة الخلفية للهكسوس، فراحوا يتجمعون في شطرها الجنوبي، ولا سيما في شاروحين، التي جعلوا منها معقلاً كبيراً لهم بعد طردهم من مصر، بل راحوا يهددون مملكة الفرعون من هذا المعقل الحصين. وهكذا أدرك أحمس أن مصر سوف تظل تحت رحمة الهكسوس ما لم تسقط شاروحين بعد أفاريس. فزحف الفرعون المظفر على فلسطين، وحاصر شاروحين زهاء ثلاثة أعوام متواصلة، مما أجبرهم على اخلائها والارتحال صوب الشمال. ولكن أحمس لم يتوقف عند العاصمة الجنوبية لفلسطين، بل راح يطارد الهكسوس في الإقليم كله. ولما امتنعت عليه مدينة أريحا، التي كانت واحداً من اكبر معاقل الهكسوس،

فقد بادر إلى تدميرها تدميراً شاملاً دون رحمة. وقد أثبتت الحفريات أن أريحا قد دمرت عام ١٥٦٠ بالفعل.

وتوفي احمس بعد هذه الحملة ببضع سنوات. ولكن ورثته راحوا يتابعون الزحف على بلاد الشام. وكان اولهم تحتمس (تحوت موسى = تحوت يولد) الأول الذي اجتاح فلسطين كلها، ثم زحف شمالاً حتى بلغ إلى «نهارين»، أو النهرين، أي بلاد الدجلة والفرات. وقد ثبّت تحوتمس الأول حدود الدولة المصرية على نهر الفرات بواسطة نصب تذكاري وضعه على الضفة اليسرى للنهر بعدما اجتازه في مكان بالقرب من كركميش (جرابلس الحالية). بيد أن السياسة المصرية لم ترسخ في بلاد الشام إلا ابتداء من عصر تحوتمس الثالث الذي حكم اكثر من نصف قرن.

٥ ـ فلسطين في الامبراطورية المصرية:

قام تحوتمس الثالث بست عشرة حملة على بلاد الشام، ولكن اشهرها تلك التي تمت عام ١٤٦٨ (ق.م). فقد اتحد ثلاثمائة وخمسون ملك من ملوك الشام، يقودهم ملك قادش (= تل النبي مندو الحالية، على نهر العاصي، إلى الجنوب من بحيرة حمص). وكان الميتانيون المتوضعون في الجزيرة يدعمون هذا الحلف.

وعلى أية حال، فقد تم الصدام في مدينة مجدو (اللجون الحالية). وبسبب من الموقع الممتاز لهذه المدينة، وبفضل حصانة اسوارها واشرافها على الطرق المتجهة إلى جميع الجهات، فان ضباط الجيش المصري قد رفعوا إلى ملكهم تقريراً يتلخص في أن الاستيلاء على مجد ويعادل «الاستيلاء على ألف مدينة».

والحقيقة أن معظم قوات هذا الحلف كانت تتألف من الهكسوس الذين عادوا فاستقروا في فلسطين خلال حكم الملكة حتشبسوت التي ورثها تحوتمس الثالث. فلقد كانت السلطة المصرية متراخية بعض الشيء، مما جعل بقايا الهكسوس يتنمرون ويمدون نفوذهم إلى عاصمتهم القديمة شاروحين

داخل

وحين التقى الخصمان دارت الدائرة على المتحالفين فهربوا الى الداخل أسوار مجدو. ولكن الفرعون المظفّر ظل يحاصر المدينة حتى سقطت، بعد سبعة أشهر، على وجه التقريب. ورضخ الملوك المغلوبون للفرعون فأخذهم رهائن كي يضمن ولاءهم للبلاط المصري.

ويدلنا تقرير الغنائم التي غنمها الفرعون أن المدينة قد كان فيها قصر ملكي مملوء بالعبيد والإماء والأثاث والتماثيل والأواني الذهبية النفيسة. وهذا يعني أن فلسطين قد انتجت المدينة المزدهرة وحكومة المدينة، منذ زمن لا نعرف بدايته إلا على وجه التخمين.

والحقيقة أن الحفريات التي أُجريت في مجدو قد أثبتت أن الفنون كانت متطورة إلى حد لا بأس به في تلك المدينة، خلال تلك الفترة. فلقد اكتشفت كاثلين كنيون لوحاً من العاج عليه صورة عقاب، ولوحاً آخر عليه صورة أبي الهول الكنعاني، وكلاهما من فنون مجدو، وهما يرقيان إلى القرن الثالث عشر. كما عثر في مجدو على نقوش تمثل معركة بالعربات. وبسقوط مجدو سقطت بلاد الشام كلها حتى مشارف قادش. بيد أن الفرعون ظل يكرر الهجوم حتى احتل هذه المدينة. ثم اعاد الحدود المصرية إلى ما كانت عليه في زمن تحوتمس الأول. وقد ثبت نصباً تذكارياً على الضفة الشرقية للفرات، في مكان قريب من النصب الذي ثبته سلفه الأسبق.

ومن أهم اخبار هذا الفرعون أنه طارد قبائل الساشو في النقب وهزمهم كلما تمردوا أو حاولوا اثارة الشغب في فلسطين أو في سيناء.

ويروي لنا تحوتي (أو جهوتي)، وهو قائد مصري، مغامرة قام بها في فلسطين بينما كانت الكتلة الرئيسية من جيش الفرعون تحاصر مجدو، إذ ترك تحوتمس مفارز عسكرية خلفه لتطهر الجيوب المعادية، بحيث لا تشغله عن مهمته الكبرى، أي محاصرة قادش. وتتلخص الحكاية في أن تحوتي قد احتال على أمير يافا المتمردة، ودعاه إلى وليمة باذخة فأسكره ثم قتله غيلة. وأرسل من أخبر أهل

يافا بأن ملكهم قد ذبح القائد المصري وغنم منه خمسمائة من الأكياس المحشوة بالأشياء النفيسة. فما كان إلا أن فتحت أبواب المدينة لكي تستقبل الغنائم، وبعدما دخلت الأكياس إلى يافا، يحملها جنود مصريون يفترض أنهم أسرى، خرج منها خمسمائة جندي مصري، ففاجئوا الحامية وأعملوا فيها السيف حتى أبادوها. وبذلك أصبحت يافا تحت سيطرة المصريين، فنهبوها وأسروا السكان وأخذوهم عبيداً وإماء لهم.

ومن الواضح أن هذه الحكاية شديدة الصلة بحكاية علي بابا والأربعين لصاً. ولا ريب في أنها من نسيج الخيال، إذ انها لا تستهدف إلا الامتاع والمؤانسة.

وبعد ما تثبت النفوذ المصري في بلاد الشام كلها، فقد راح المصريون يؤسسون المعسكرات على الأراضي الفلسطينية لتكون بمثابة دفاع مبكر عن مصر. ومن أهم معسكراتهم واحد في القدس، وآخر في بيسان، حيث كانت لهم قلعة بناها تحوتمس الثالث نفسه، ووظيفتها الدفاع عن مرج بني عامر من جهة الشرق. ولا ريب في أن مجدو التي تهيمن على المرج نفسه من جهة الغرب قد كانت حصناً كبيراً هي الأخرى. ولا أدل على ذلك من التأثر العميق الذي تبديه الفنون الكنعانية في مجدو بالفنون المصرية. فلولا كثافة الوجود المصري في تلك المدينة لما تأثرت فنونها بالفن الفرعوني إلى هذا الحد.

وقد كان للمصريين معبد صغير في بيسان. وفي ذلك المعبد عثر المنقبون على لوحات هامة.

ولكن المصريين لم يتدخلوا في الشؤون الدينية والاجتماعية والثقافية للناس، بل تركوا السكان ينعمون بحرية الاعتقاد وبممارسة حياتهم اليومية وفقاً لتقاليدهم الخاصة.

وعند وفاة تحتمس الثالث ورثه ابنه امنحوتب الثاني (امنوفيس عند الاغريق)، المشهور بقوته الجسمية الخارقة. وخلال حكمه (١٤٣٦ - ١٤١٣)،

قام بحملتين على بلاد الشام، شن الأولى منهما على اواسط سوريا الحالية، حيث دمر وقتل وأسر. واثر عودته إلى مصر، أخذ امراء فلسطين يدربون بعض الكنعانيين والسّاشو والعابيرو، ويستعدون للثورة على الفرعون، بعدما تحالفوا مع الحوريين المنتشرين حول نهر الخابور. فعاد امنحوتب إلى الشام ووصل إلى بحيرة طبريـة، واستولى على مجموعة من المدن الفلسطينية، وأسر الآلاف من السكان، وأنزل بالشعب الفلسطيني جميع ضروب الاذلال.

وهكذا هدأت فلسطين بعد هذه الحملة، ولم تنتفض مرة أُخرى من أجل حريتها وخلاصها من نير الفرعون إلا عند انتقال مصر من حكم السلالة الثامنة عشرة إلى التاسعة عشرة، باستثناء انتفاضة صغيرة تمت في جنوب فلسطين خلال عهد تحوتمس الرابع (١٤١٣ ـ ١٤٠٥)، فقام هذا الفرعون بحملة على جازر واحتلها وأرضخها.

وورثه امنحوتب الثالث، الذي دام عهده (٣٣) سنة، والذي عرفت مصر في زمنه رخاء اقتصادياً لم تشهد له مثيلاً منذ أيام السلالة الثانية عشرة العظيمة.

والحقيقة أن أمنحوتب الثالث (١٤٠٥ ـ ١٣٧٢) قد أصبح ملكاً ضعيفاً في أواخر عهده. فقد شاخ ومرض، وتحكمت به زوجته الشابة الفاتنة تي Tay. فأخذت أمور البلاد تتردى منذ أن مضى النصف الأول من مدة حكمه. ومما زاد في التدهور أن ابنه ووريثه امنحوتب الرابع، الملقب بأخناتون(أي، الصالح لخدمة آتون) قد رشح نفسه نبياً لدين جديد ظن الملك بأنه يضمن الخلاص للبشرية بأسرها. وهو دين لا يؤمن بالحرب، لأن الحرب لا تجر إلا إلى حرب جديدة، بل يؤمن بالاخاء البشري الذي يمكن أن يتحقق إذا عبد الناس جميعاً إلهاً واحداً هو آتون، الذي يتجلى في الكون، والذي لا يتجلى في شيء كما يتجلى في قرص الشمس. ولهذا فقد غيّر الملك اسمه من امنحوتب (= أمون يرضى) إلى اخناتون. وهجر مدينة طيبة، عاصمة أسلافه، وبنى مدينة جديدة اسماها أخيتاتون (= أُفق آتون)، وهي تل العمارنة الحالية، محتجاً بأنه يريد أرضاً

جديدة لم تتلوث بالشرك من قبل. وهكذا بلغت نزعة الوحدانية إلى ذروتها في تلك العصور. فقد رفض الملك النبي استخدام كلمة «الآلهة» بصيغة الجمع، وأمر بمحوها من جميع الكتابات أينما ظهرت. ويبدو أن اخناتون قد كان فناناً وشاعراً وعاشقاً وصوفياً كبيراً، ولكنه لم يكن يصلح للسياسة والادارة، في أغلب الظن. وسيبقى اخناتون، الذي يمكن الاعتقاد بأنه «أبو الانبياء» سراً كبيراً، بل طلسماً، في تاريخ البشرية كلها.

تراخت قبضة المصريين على الشام في ابان انشغال اخناتون بثورته على الوثنية والشرك، فأخذ الحثيون من عاصمتهم خاتّوشا، الواقعة في الأناضول إلى الشرق من نهر الهاليس، يحرضون عبدي عشرتا، وهو ملك آموري من الطرف الشمالي لسوريا، على الثورة ضد النفوذ المصري الآخذ بالتراخي في بلاد الشام. وأخذ عبدي عشرتا هذا يزحف ويحاصر المدن في حوض نهر العاصي وسواحل سوريا، ولا سيما حماة وارواد.

وبالمقابل تشكل في بلاد الشام حلف موال للفرعون، بزعامة رب عدي، ملك جبيل، ويتألف من بيروت وصيدا وصور وعكا، فضلاً عن جبيل، أي هو حلف فينيقي (= كنعاني) في وجه قوة الأموريين الموالية للأناضول.

وحين شاخ عبدي عشرتا، أومات، ورثه ابنه عزيرو، الشاب الداهية الطموح، الذي كان في نيته أن يجعل من بلاد الشام قوة ثالثة تقف على قدم المساواة مع مصر والحثيين. ولعل هذه المحاولة أن تكون الجهد الوحيد الذي بذل في العصور القديمة كلها من أجل توحيد الشام.

زحف عزيرو جنوباً بعد ما تحالف مع الحثيين، وكذلك مع قبائل الخابيرو والعابيرو التي تحترف القتال كمرتزقة، إذ هي تحارب مع كل من يدفع لها. فوصل إلى جبيل التي آثر ملكها رب عدي، الموالي لمصر، أن يموت على أن يخون سيده الفرعون.

وتوالت الرسائل من ملوك الشام على امنحوتب الثالث، وعلى ابنه اخناتون، تطلب النجدة من مصر ضد قوات عبدي عشرتا وابنه عزيرو. وهذه هي رسائل تل العمارنة المشهورة، التي اكتشف منها زهاء ٣٧٧ رسالة. ولكن اخناتون أصم اذنيه عن صرخاتهم التي التهمها الفراغ، فقد كان مشغولاً بنشر عبادة الاله الأوحد المجرد المنزه، والذي لا يتجلى في شيء أبهى من نور الشمس.

ومن دهاء عزيرو أنه قد أخذ يراسل الفرعون هو الآخر وأقسم له بأغلظ الايمان أنه وحده المخلص للملك، وأن جميع الأمراء الذين شكوه إلى مولاه ليسوا إلا كاذبين وغير مخلصين للعاهل المصري. ولا ريب في ان اخناتون قد ازدرى هذا الطامع الصغير الذي يمكن لمصر أن تهزمه بضربة واحدة. ولكن عزيرو استطاع أن يشيّد دويلة آمور. إذ لقد زحف جنوباً بعد ما انضم اليه ملك قادش، فوصل إلى شمال فلسطين وضمه إلى دويلته، وأقام في الجليل التحصينات الضخمة القادرة على مواجهة الفرعون حين يتجه شمالاً لقمع الثورة. ويبدو ان عزيرو قد تحصن في الجليل وتمترس هناك بانتظار ما سوف تقوم به مصر من رد للفعل.

سبق للمصريين أن قسموا بلاد الشام إلى ثلاثة أقسام إدارية، وذلك على النحو التالي:

أولاً ـ بلاد آمور، وتقع في الشمال، ومركز حاكمها المصري في سيميرا الواقعة إلى جوار أرواد.

ثانياً ـ الشطر الأوسط، مركزه في كومودي، التي هي كامد اللوز حالياً، في سهل البقاع الغربي. ويضم هذا الشطر مدينة دمشق ومرتفعات الجليل.

ثالثاً ـ فلسطين، وهي التي أسماها المصريون أرض كنعان في هذه الحقبة ويشمل هذا الشطر فلسطين الحالية من دون الجليل. وقد كان مركز الحاكم المصري في غزة القديمة، التي هي الآن تل العجول المجاور للبحر، والتي تبعد عن غزة الحالية مسافة قصيرة. وقد ظل هذا الشطر الجنوبي موالياً لمصر طوال تاريخ الدولة الحديثة، أو حتى مجيء قبائل البلست. ويبدو أنه كان قد تمصَّر نسبياً

الخابيرو يحتلون شكيم عام ١٣٦٠ ق.م.

يوم قام عزيرو بحركته الرامية إلى توحيد بلاد الشام. ولا عجب في ذلك، فقد نجحت مصر بالفعل في مضمار تمصير الأقاليم المحاذية لحدودها مباشرة، ولا سيما ليبية الشرقية واقليم النوبة. وقد أصبح المتمصرون من الليبيين والنوبيين أعظم حماة الحضارة المصرية طوال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

ولعل ظاهرة التمصر النسبي هذه أن تكون بين الأسباب التي دفعت عزيرو إلى التوقف في الجليل. ولعل كثافة القوات المصرية في فلسطين، ولا سيما في بيسان ومجدو، القريبتين من الجليل، أن تكون بين هذه الأسباب أيضاً. ثم أنّ ثمة سبباً استراتيجياً خالصاً، وهو أن مرج بني عامر الذي يفصل الجليل عن كتلة جبال نابلس والقدس، يصلح كثيراً لحركة الجيش المصري وعرباته الحربية - العظيمة الشأن.

وفجأة تواجهك رسالة من رسائل العمارنة مؤداها أن الخابيرو قد احتلوا شكيم (قرب نابلس الحالية)، وأنهم ضربوا الحصار على القدس، وأن حاكم القدس، عبد خبا، كاتب الرسالة، يستنجد بمولاه الفرعون، اخناتون. ولا يعرف أحد كيف وصل الخابيرو إلى شكيم ثم إلى القدس. هل عبروا مرج بني عامر واحتلوا شكيم عام ١٣٦٠ق.م؟! أم أنهم زحفوا من الجهة الشرقية لنهر الأردن والتفوا على المصرين من الجنوب؟

وأرسلت مصر القائد حور محب، على رأس قطعة عكسرية صغيرة جداً. ويبدو أنه تسلم قيادة القوات المصرية الموجودة سلفاً في فلسطين. وخاض حور محب معركتين، من الأرجح أنهما صغيرتان، ومخفقتان. وفضلاً عن ذلك، فان الوثائق لا تسعفك في مضمار تحديد مكان المعركتين.

ولكن حور محب استطاع أن يتولى شؤون مصر بعد وفاة ورثة اخناتون الثلاثة الذين كان عهدهم قصيراً. وصادف أن تسنم العرش الحثي ملك مسالم يسمى مورسيل الثالث. وأغلب الظن أن حور محب ومورسيل قد توصلا إلى هدنة وضعت حداً للصراع. فالآشوريون آخذون بالتململ، مما يهدد مصير الدولتين

دمار أريحا عام ١٢٠٠ ق.م.

العظميين كلتيهما. ويسكت التاريخ، أو وثائقه، عن مصير عزيرو. وأغلب الظن أنه ظل موالياً للحثيين حتى آخر عمره. وقد فاته أن التمرد على ملك مصر يعني الارتماء في أحضان ملك الأناضول بالضرورة. أما الخابير والذين احتلوا منطقة نابلس فقد ظلوا فيها زهاء نصف قرن.

اطمأن حور محب إلى أحد قادة الجيش المصري فسلمه مقاليد العرش من بعده. وكان هذا القائد هو رمسيس الأول رأس الأسرة التاسعة عشرة. وقد اعتلى العرش عام ١٣٠٨، ولكنه توفي بعد ذلك بسنتين ليرثه ابنه سيتي الأول عام ١٣٠٦ق.م. والحقيقة أن هذه التواريخ مختلف عليها. ففي بعض المصادر نجد رمسيس الأول قد تسنم العرش سنة ١٣١٨، وأن ابنه قد ورثه بعد ذلك بسنتين، أي سنة ١٣١٦.

وعلى أية حال، فان سيتي الناهض بمصر، قد أخذ يتلقى تقارير مفادها أن الخابير وقد أخذوا يخلخلون استتباب الأمن في فلسطين، وأنهم قد طردوا بعض السكان من ديارهم إلى مصر نفسها. وتحرك الفرعون الكهل وداهم جنوب فلسطين واحتله وثبّت الأمن بين ربوعه. وتؤكد الحفريات التي اجريت في أريحا أن هذه المدينة قد احترقت زهاء عام ١٣٠٠ ق.م. وأغلب الظن أن الخابير وكانوا قد سبق لهم أن احتلوا أريحا، قبل احتلال شكيم او بعده، وأنهم قد تحصنوا في داخلها. ومن هناك أخذوا يعيثون الفساد في البلاد، فداهم الفرعون المدينة ودمرها. وهذا هو التدمير الثاني الذي يتم على أيدي المصريين. ولكن أريحا هذه قد كانت مجرد قرية صغيرة بلا أسوار في تلك الحقبة. ومن المحتمل أن يكون الخابير وهم الذين دمروا القرية قبل أن ينسحبوا منها. وعلى أية حال، فإن أريحا لم تنشأ من جديد إلا في القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد ثلاثمائة سنة من عصر سيتي الأول، أو اكثر بقليل. هذا ما أثبته علم الآثار الحديث، الذي هو اداتنا الوحيدة لمعرفة الحقيقة التاريخية حين تنعدم المصادر المكتوبة الموثوقة.

ويؤكد علم الآثار كذلك أن مدينة حاصور، الواقعة إلى الشمال من بحيرة

طبرية، قد حل بها الدمار في عهد سيتي الأول. ومن الواضح تماماً أن الفرعون الباسل قد قضى على معاقل الأموريين في الجليل.

حين وصل الفرعون إلى مرج بني عامر اتجه شرقاً ليتجنب التورط بحصون الجليل المنيعة، مما أثبت أن عزيرو الذي حصن الجليل قبل نصف قرن، قد كان ماهراً في فن الحرب. فسار الفرعون من سهل بيسان إلى الجولان ثم إلى حوران حيث أقام نصباً تذكارياً. ومن هذه النقطة زحف غرباً حتى بلغ بيروت، أو مشارفها الجنوبية. وتلك حركة التفاف على الجليل لا شك في أنها بارعة، إذ تمكن الفرعون الحكيم، بواسطة هذه الحركة الاستراتيجية، من عزل الجليل عن مصادر امداده في سوريا ولبنان. والأهم من ذلك أن الفرعون، حين وصل إلى الساحل اللبناني، كان قد وصل إلى حلفائه الفينيقيين الذين يفضلون مصر على الحثيين، نظراً لحاجتهم إليها كسوق لتر ويج بضائعهم، التي يغلب نقلها بالبحر على نقلها بالبر، فمصر دولة بحرية مطلة على المتوسط، أما الدولة الحثية فقد ظلت كياناً برياً طوال تاريخها، وهذا ما يفسر تفوق مصر عليها في الحربين الطويلتين اللتين خيضتا بين القوتين العظميين في ذلك الزمان.

ومن بيروت تابع الفرعون زحفه شمالاً بعدما خضعت له جميع مدن الساحل اللبناني. ووصل إلى سيميرا قرب ارواد. وثبت دعائم الحكم المصري حتى تلك النقطة. وبذلك أصبح الجليل جزيرة مستقلة داخل منطقة يسودها النفوذ الفرعوني. وعاد سيتي الأول من سيميرا (قرب طرطوس الحالية) إلى مصر ليصد هجوماً قام به الليبيون على حدوده الغربية. ثم انقض على فلسطين من جديد ليقضي على استقلال الجليل وحصونه. واستنجد ملك الجليل، من عاصمته حاصور بملك حماة. ولكن الفرعون قطع الطريق على أية نجدة. ودار القتال عنيفاً في الجليل. ونتج عنه تدمير حاصور وازالتها من الوجود لثلاثمائة سنة، على الأقل، كما نتج عنه تدمير حصون الجليل كلها، إلا مارآه المصريون صالحاً لأغراضهم الدفاعية. لقد كان على ملك الجليل أن يدخل في طاعة الفرعون

الباسل بعدما رضخت مدن الساحل الفينيقي، لأن الجليل لا يملك أن يحارب مصر من دون حلفاء قريبين. والحقيقة أن دمشق، الشديدة القرب من حاصور، قد كانت مدينة طفيفة الشأن في ذلك العهد. أما حماه التي طلب منها الملك الجليلي العون فبعيدة، من جهة، ونجدتها صغيرة، من جهة أخرى. فلو اتيح لتلك النجدة أن تصل إلى حاصور لما كان لها أن تفعل شيئاً سوى اطالة مدة الحرب شهراً أو شهرين. فإما أن تنهض الشام متحدة في وجه مصر يومذاك، وإما أن تكون كل مقاومة جزئية ضرباً من العبث.

وزحف الغازي المظفر شمالاً بعد انهاء أمر الجليل، واصطدم بطلائع الجيش الحثي عند قادش. وهناك ثبّت حدود مصر الجديدة، متنازلاً عن بلاد آمور واوغاريت (التي سبق للآموريين ان دمروها في زمن عبدي عشرتا)، وعن الشطر الأكبر من ساحل سوريا الحالية.

ومع ان سيتي الأول قد قضى على النفوذ الحثي في فلسطين، فقد تكاثر الحثيون في هذا الاقليم وأصبحوا يشكلون قسماً من السكان، وخاصة في مدينة الخليل التي قالت عنها التوراة بأنها مدينة حثية. أما الخابير وفقد هزمهم سيتي الأول وأسر أعداداً كبيرة منهم، واستخدم الأسرى في مقالع الحجارة في سيناء.

توفي سيتي الأول، فورثه ابنه رمسيس الثاني (رع موسى = رع يولد)، وذلك سنة ١٢٩٦، أو ١٢٩٠، وفقاً لبعض المصادر. وقد استمر في الحكم زهاء سبعة وستين عاماً.

وحاول الحثيون أن يغيروا خط الحدود عند قادش (قرب بحيرة حمص)، فخرج رمسيس الثاني إلى فلسطين، ثم إلى لبنان، حيث خلد ذكرى حملته على صخرة قرب مصب نهر الكلب، إلى الشمال قليلاً من بيروت. وزحف الى قادش حيث اشتبك مع الحثيين في معركة حامية الوطيس. وقد زعم كل من الطرفين النصر لنفسه. والأرجح أن المعركة كانت متوازنة. وبعد مضي بضع سنوات على المعركة عقدت بين القوتين العظميين معاهدة تحالف ودفاع مشترك. وجاء الملك

الحثي خاتوسيلي، وريث موتيلي الذي حارب رمسيس الثاني في قادش، إلى مصر ومعه ابنته لتكون زوجة للفرعون، وذلك ابتغاء تثبيت التحالف بين القوتين العظميين، ذلك التحالف الذي استدعاه نهوض آشور، التي تهدد كلا من الجانبين المتصارعين.

وعلى أية حال فقد استتب السلام بين الدولتين حتى زوال المملكة الحثية على أيدي البلست في مطالع القرن الثاني عشر (ق.م).

٦ ـ اسرائيل عبرانية أم كنعانية؟

وساد السلم في بلاد الشام كلها حتى وفاة رمسيس الثاني، الذي خلفه ابنه مرنبتاح. وثارت فلسطين في مستهل العهد الجديد، ظناً منها أن مصر قد دب فيها الوهن بعد الحكم الطويل لرمسيس الثاني. فما كان من مرنبتاح إلا أن داهم فلسطين واحتل مدينة جازر، وأوقع بها كارثة مريعة، وسمى نفسه «قاهر جازر»، كما ورد في واحد من آثاره الباقية، مما ينم عن أن هذه المدينة قد كانت شديدة العنفوان، وشديدة الأهمية بالنسبة إلى مصر، في آن واحد.

والحقيقة أن عصر مرنبتاح هو عصر قوة، شأنه في ذلك شأن العصر الذي عاش فيه رمسيس الثاني. فقد جاء في نص دوّنه بعد عودته من فلسطين قوله: «كنعان استلبت بقسوة، عسقلان تم الاستيلاء عليها، وجازر قد أخذت، بنوعام أصبحت كأن لم تكن، اسرائيل أقفرت وليس بها بذرة». والمهم في هذا النص هو الجملة الأخيرة: «اسرائيل أقفرت وليس بها بذرة». هكذا وردت هذه الجملة في كتاب السير ألن غاردنر، «مصر الفراعنة». والحقيقة أن هذا الكاتب البريطاني يتمتع بذهن يطيق الموضوعية، ويتمتع بالمناعة ضد الوهم وضد الانسياق وراء السائد أو المرغوب، ولو انه لا يكون كذلك على الدوام.

كما ان ول ديورانت، الشديد الإعجاب بالثقافة التوراتية، قد أورد هذه الجملة على النحو التالي: «وخربت اسرائيل ولم يعد لابنائها وجود، وأضحت فلسطين أرملة مصر». هذا ما جاء في «قصة الحضارة» (الجزء الثاني من المجلد الأول، الباب الثاني عشر، ص ٣٢٤، من الترجمة العربية).

والجدير بالتنويه أن فلسطين المذكورة ههنا لم يكن لها هذا الاسم يومذاك، وإنما هي كانت تدعى بلاد خوري.

وأهم ما في الأمر أن اسرائيل المذكورة على مسلة مرنبتاح تقع داخل فلسطين، ما دامت قد خربت أو أقفرت، وهذا يعني أن الصراع بين فرعون واسرائيل ليس في سيناء كما تزعم التوراة، وانما في فلسطين. وما دامت اسرائيل هذه هي اقليماً من أقاليم فلسطين، فهي لا ريب اقليم كنعاني، لأن العبرانيين الذين غادروا مصر عام ١٢٦٠ق.م، على حد زعم التوراة، قد تاهوا أربعين سنة في سيناء، كما يزعم سفر الخروج، ثم عاشوا فترة طويلة في وادي العربة وشرقي الأردن. وهذا يعني أنهم لم يدخلوا فلسطين عام ١٢٢٠ق.م، يوم نقشت مسلة مرنبتاح، ولا قبل هذا التاريخ. إذن ماذا عساها أن تكون اسرائيل التي حاربها مرنبتاح؟ انها، لا ريب، دولة كنعانية. لماذا؟

لجملة من الأسباب:

أولاً - إن اسم اسوائيل هو اسم كنعاني بكل وضوح. فهو كلمة تتألف من كلمتين، «اسر» و«أيل». وأيا كان معنى كلمة «اسر»، فان ايل هو الاله الأعلى عند الكنعانيين.

ثانياً - ليس مما هو بغير دلالة أن تكون الكتلة الجبلية الكبرى، الواقعة إلى الجنوب من مرج بني عامر، مشطورة إلى اقليمين، أحدهما يسمى اسرائيل وهو الشمالي، وثانيهما يدعى يهودا، وهو الجنوبي. وهذه حقيقة لا يستخلصها المرء من التوراة وحدها، بل من الوثائق الآشورية والبابلية قبل كل شيء. وأغلب الظن أن ديانة التوحيد المعتقدة باله منزه مجرد قد نشأت في الاقليمين معاً، ولكن في زمن لا

يمكن تحديده. وعلى أية حال، فان اسم الاله في اسرائيل يختلف عن اسم الاله في يهودا. فهو ايل في الشمال، وهو يهوه في الجنوب. ومن هنا جاء اسم اسرائيل، وجاء اسم يهودا، المشتق من يهوه. والأرجح أن كلمة «يهودا» هي الكلمة الدالة على الانتساب إلى يهوه.

وأغلب الظن أن العبرانيين وجدوا كل شيء ناجزاً حينما دخلوا إلى اسرائيل ويهودا، هذا ان كانوا قد دخلوا إلى أي منهما بالفعل في أي زمن، أو بعد أن دب الوهن في الدولة المصرية إثر انتصاف القرن الثاني عشر. ولقد كانت شكيم طوال الألف الثاني (ق.م). أكبر مدينة في فلسطين، بعد مجدو. وليس في المحال أن تكون هذه المدينة قد طورت ديانة التوحيد، ولا سيما بعد تجربة اخناتون.

وأغلب الظن أن اقليم يهودا، المسمى على اسم الاله «يهوه»، هو الذي اتخذ تسمية ليست كنعانية صريحة.

وفي الحق أن أية قراءة متأنية للتوراة سوف تكتشف أن الاقليمين قد كانا متباينين حتى في أيام داود. بل إن سفر صاموئيل الثاني (١٩، ٤٠ - ٤٣) يتحدث عن شجار دار بين رجال اسرائيل ورجال يهودا.

ثالثاً - من المحال أن تكون هنالك أية قوة صحراوية قد اجتازت نهر الأردن وبنت لها دولة مستقرة في فلسطين، قبل اواسط القرن الثاني عشر (ق.م)، أو قبل عصر مرنبتاح، على الأقل. فالخابير والذين اقتحموا فلسطين واحتلوا شكيم قد حاربهم سيتي الأول واسترقهم بعد نصف قرن من دخولهم اليها.

ومن المحتمل، ولكن ليس من المؤكد، أن تكون قبائل الصحراء قد دخلت فلسطين بعد وفاة رمسيس الثالث (١١٥١)ق.م. ولكن هذا الحادث لا يمكنه البتة أن يكون قد جرى قبل هذا التاريخ، وما ذاك إلا لأن مصر قد كانت عصية على كل اقتحام، وشديدة القدرة على حماية جميع مناطق نفوذها، ولا سيما فلسطين، التي هي القلعة الأولى في الدفاع عن مصر. ولا أدل على ذلك من انتصار مرنبتاح على شعوب البحر، وكذلك الهزيمة الماحقة التي منيت بها تلك

الشعوب على يد رمسيس الثالث، زهاء عام ١١٨٠ق.م، أو بعد ذلك بقليل. لقد ظلت مصر منيعة وحصينة حتى اواسط القرن الثاني عشر ق.م، وظلت جيوشها كثيفة وشديدة القدرة على الدفاع والهجوم. وهذا يعني أن قبيلة يهودا، لا يمكن لها البتة أن تكون قد دخلت فلسطين قبل عهد مرنبتاح، ولا في عهده. وإن هي قد دخلت فلسطين بالفعل، فلن تكون قد فعلت ذلك قبل وفاة رمسيس الثالث. ولعل هذه المناعة التي كانت تتمتع بها مصر قبل اواسط القرن الثاني عشر (ق.م). هي العلة التي منعت موسى من عبور الأردن باتجاه أرض اللبن والعسل، هذا إن كانت التوراة تتحدث عن وقائع وليس عن حكايات ساذجة.

وأغرب ما في الأمر أن اسرائيل المذكورة على مسلة مرنبتاح، أو في التوراة، أو في الوثائق الآشورية، لم تستطع جهود المنقبين جميعاً أن تكشف فيها أي أثر غير كنعاني، على الإطلاق، مما لا يدع مجالاً للريب في أنها لم تكن إلا مجتمعاً كنعانياً.

رابعاً ـ ان سفر التكوين هو كتاب كنعاني في أصله، ولكنه خضع لتعديل كبير في مرحلة من المراحل التاريخية، بحيث يتناسب مع أغراض تلك المرحلة.

ولا أدل على ذلك من أن الإله يهوه لا يذكر في هذا السفر إلا مرة واحدة، وعلى نحو عرضي، بينما يذكر ايل مراراً بوصفه الله، أو الإله الحق. تقول هاجر للإله حين تجلى لها (١٦:١٦) «أنت إيل رُئي»، أي أنت ايل وقد شوهد بالعين.

وفي الاصحاح الثامن والعشرين، ترى يعقوب، الذي سوف يسمى اسرائيل، وقد شاهد حلماً، حين كان ينام على حجر في البرية. وعندما استيقظ في الصباح، جعل من الحجر عموداً وصب الزيت على رأسه: وهذه عادة كنعانية دون أدنى ريب. إذ لقد كان الكنعانيون يتخذون من الحجارة أنصاباً يعبدونها. ثم اتخذ من الحجر بيتاً للرب، وسمى ذلك المكان «بيت ايل»، أي بيت الله. فلماذا لم يدْعُه بيت يهوه، الذي هو اله اليهود وليس اله الكنعانيين؟

وفي الاصحاح الخامس والثلاثين يتكلم الله مع يعقوب، فينصب يعقوب عموداً في المكان، تماماً على عادة الكنعانيين. ومرة أخرى، فانه يسمي المكان «بيت ايل»، أي بيت الله، وليس بيت يهوه. فلماذا لا يقدس سفر التكوين الهاً سوى ايل؟ هل هذا صدفة؟ ام تراه بغير دلالة؟

ثم إن اسماعيل الذي وهبه الله لهاجر بعد ما توسلت اليه بحرارة وخشوع، هو اسم كنعاني بكل وضوح، ومعناه «إيل يسمع». وما من أحد يجهل أن ايل هو أبو الآلهة عند الكنعانيين.

كما أن ملكي صادق، ملك القدس، قد كان «كاهناً لله العلي». وقال ملكي صادق لابراهيم: انك مبارك «من الله العلي، مالك السماوات والأرض». هكذا جاء في أواخر الاصحاح الرابع عشر من سفر التكوين. وملكي صادق يبوسي، أي من قبيلة يبوس الكنعانية، وليس بعبراني. وهو إذ يعبد الله العلي، مالك السماوات والأرض، يدلل بصورة حاسمة على أن ديانة التوحيد هي ديانة كنعانية، عرفها الكنعانيون ومارسوها قبل ابراهيم، او في عهده، وباعتراف التوراة نفسها. وقد اتخذوا من ايل رباً مجرداً ومنزهاً عن المادة، رباً واحداً لا شريك له، ولكن دون أن يغيب عن البال ما فحواه أن طائفة من الكنعانيين وحسب هي التي مارست ديانة التوحيد.

لماذا نجد سفر التكوين يتخذ من ايل رباً، بينما لا تقيم الأسفار الأخرى أي وزن لهذا الإله؟ لا بد من أن تغيراً جوهرياً قد حدث. ولا بد من أن يكون سفر التكوين جزءاً من الانتاج الثقافي لشعب محدد، بينما الأسفار الأخرى من انتاج شعب آخر ليس من عادته أن يعبد ايل، وإنما هو يعبد يهوه.

ومن هنا يمكن للمرء أن يستخلص حقيقتين؛ اولاهما أن سفر التكوين كنعاني خضع للتعديل فيما بعد، بحيث يتناسب مع ثقافة الشعب الذي تبناه، أو الطائفة الدينية التي تبنته، بعد أصحابه الأوائل؛ وثانيتهما أن شعباً جديداً، أو تياراً دينياً جديداً (وهذا هو الأرجح)، قد حل في فلسطين وغيّر في موروثها الثقافي، أو

العقائدي، على نحو يلائم طبعه وظروفه التاريخية. ومن حق المرء أن يرتاب في أن تكون الديانة اليهودية قد نشأت قبل السبي، أو قبل ظهور الأنبياء في القرن الثامن (ق.م). وأغلب الظن أن هذه الديانة لم تنشأ إلا لتواجه ظروف الانهيار في تلك الآونة، أو الا لتصون هوية شعب تعرض للإبادة والسبي في القرن السادس (ق.م). إذ إن جميع محاور التوراة موظفة بكل وضوح، لتخدم هذا الغرض، الذي من أجله خضع سفر التكوين للتحوير والتغيير، بغية تزويد الشخصية اليهودية ببعض المفاهيم التي تملك أن تصون هذه الشخصية من الذوبان في امواج التاريخ.

وبما أن اسم اسرائيل هو اسم كنعاني، وبما أنه يباين كلمة «يهودا» التي قد تكون كنعانية، وقد لا تكون، وبما أن اقتحام فلسطين لم يتم قبل اواسط القرن الثاني عشر (ق.م)، وربما هو لم يحدث قط، وبما أن سفر التكوين هو سفر كنعاني بكل وضوح، فان اسرائيل المذكورة على مسلة مرنبتاح ليست إلا اقليماً كنعانياً منذ الألف الثالث (ق.م)، وحتى تدميرها بيد سرجون الآشوري عام ٧٢٢ق.م. ومن الجدير بالتنويه ان الوثائق الآشورية نفسها تؤكد هذا التدمير، مثلما ان الوثائق البابلية تؤكد سبي سكان يهودا إلى بابل.

إذن، حين أطلق الصهاينة اسم «اسرائيل» على دولتهم الراهنة، إنما سرقوا الاسم من الكنعانيين، أي من أصحاب البلاد الشرعيين؛ مثلما سرقوا الأرض نفسها. ولو أنهم التزموا بتوراتهم لسموها «يهودا»، لأن هذا هو الاسم المشتق من يهوه الذي يعبدون.

هل كان يهوه كنعانياً هو الآخر؟

يقول ول ديورانت في «قصة الحضارة» (الجزء الثاني من المجلد الأول، الباب الثاني عشر، الترجمة العربية، ص ٢٤٠):

«من بين الآثار التي وجدت في كنعان عام ١٩٣١ قطع من الخزف من بقايا عصر البرونز (٣٠٠٠ ق.م)، عليها اسم اله كنعاني يسمى ياه أو ياهو».

لئن صدق هذا الأميركي المعجب بالثقافة اليهودية أيما اعجاب، فان يهوه هودون ريب اله كنعاني، لأن ياه أو ياهو في الألف الثالث (ق. م)، قد صار يهوه في الألف الأول، أو هكذا ينبغي أن يكون الأمر.

والأهم من ذلك أن التنقيبات قد اكتشفت ثلاثة ألواح بابلية ترقى إلى القرن الثامن عشر (ق. م)، وقد نقش اسم «يهوه» على كل منها، مما لا يدع مجالاً للريب في أن يهوه، او الدائم، اله يعبد في الهلال الخصيب منذ زمن لا ندريه. هذا ما جاء في كتاب عنوانه «بابل والتوراة»، للعالم الألماني فريدريك ديليتش (ص ٥٢ ـ ٥٣). ويقول هذا الكتاب عن الوصايا الراسخة في قلب كل انسان «وقد ألفها البابليون على الشكل نفسه الذي وردت به الوصايا الخامسة والسادسة والسابعة في العهد القديم». (ص ٤٢). كما ان ديليتش يتحدث عن اعتقاد البابليين بالملائكة، وكذلك بالشياطين والجان (ص٤٨ ـ ٤٩)، مما لا يدع مجالاً للريب في أن التوراة لم تكتب بمعزل عن الثقافة البابلية وسواها من الثقافات.

ومن المحتمل أن يكون الاموريون، الذين أسسوا بابل، وانتجوا شريعة حمورابي، قد سبق لهم أن جلبوا عبادة يهوه من فلسطين إلى العراق، أو ربما وجدوا تلك العبادة منتشرة في الهلال الخصيب فتبنوها على نحو أو آخر، وذلك في اواسط الألف الثالث قبل الميلاد.

الفصل الثالث

شعوب البحر
وشعوب الصحراء

«وجاؤوا إلى لايش، إلى شعب مستريح مطمئن، وضربوهم بحد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار. ولم يكن من ينقذ».

● (سفر القضاة، ١٨ : ٢٧ ـ ٢٨).

١ ـ شعوب البحر:

في أواخر القرن الثالث عشر (ق. م)، تحرك طوفان بشري كبير من جزائر البحر الايجي، وأخذ يهاجم مصر بعنف على نية احتلالها. ولكن مرنفتاح تصدى لهذه الهجمة وردها عن حدود مصر.

ولكن طوفاناً اكبر وأزخم سرعان ما راح يتفجر من جديد في اوائل القرن الثاني عشر، يوم انقضت، شعوب البحر على الأناضول ودمرت العاصمة الحثية،

خاتّوشا، إلى الأبد. ثم تابعت هذه الشعوب زحفها متجهة صوب الجنوب لتدمر كركميش (جرابلس الحالية، إلى الشمال من حلب) وأوغاريت (رأس شمرا، قرب اللاذقية) وارواد، ولتصل أخيراً إلى الحدود المصرية، بعدما هيمنت على الساحل الفلسطيني. والأخطر من ذلك أن هذا الهجوم على مصر من جهتها الشرقية قد صاحبه هجوم آخر من جهة البحر، وهجوم ثالث من جهة ليبية.

ولكن رمسيس الثالث، آخر محارب عظيم في مصر الفرعونية، قد راح يتصدى لهذا الهجوم الثلاثي، ليدحره في معركتين، احداهما بحرية، وأخراهما برية، وذلك زهاء عام ١١٨٠ ق.م، أو بعد ذلك بقليل.

وسمح الفرعون المنتصر لبعض هذه الشعوب المهزومة بالاستيطان في ساحل فلسطين، ربما لتكون درعاً لمصر يقيها من أي هجوم جديد. فاستقر شعب البلست، الذي جاء من جزيرة كريت، بين يافا وغزة، كما استقر شعب بحري آخر يسمى التكر إلى الجنوب من جبل الكرمل، وهو الجبل الذي صار فاصلة تحجز بين الفينيقيين والقادمين الجدد. ولهذا ما عاد الساحل الفلسطيني إلى الجنوب من الكرمل يدخل في فينيقيا بعد ذلك التاريخ. وصار اسمه فلستيا، نسبة إلى البلست، ثم انتشر هذا الاسم وشمل القطر كله.

حل البلست في خمس مدن كنعانية هي غزة وعسقلان وعقرون واسدود وجت. ونظم البلست مدنهم الجديدة على هيئة ممالك مستقلة في ادارتها وحكومتها. إلا أن هذا الاستقلال لم يمنع المدن الخمس من أن تعرف ضرباً من ضروب الاتحاد، ربما كان مركزه في مدينة اسدود.

ولم يبتعد البلست عن البحر كثيراً، وذلك بحكم كونهم شعوباً بحرية تجهل البراري ولا تستسيغ المناخ الجاف. وبما أن الساحل الذي لا يبتغي القادمون الجدد أرضاً سواه قد كان ممتلئاً بالمدن العامرة، فان البلست لم يؤسسوا من المدن سوى اثنتين وحسب، وهما اللد وزكلاج الواقعة إلى الشمال من بئر السبع. وأغلب الظن أن اللد قد اعادوا تدشينها ولم يبنوها لأول مرة في تاريخها.

غير أنهم قد توغلوا قليلاً في داخل فلسطين، واستولوا على بعض المدن الكنعانية الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن ساحل البحر. وفوق ذلك، فقد تسلطوا من دون اجتلال على بعض المدن البعيدة عن البحر، ولاسيما بيسان الراقدة على الضفة اليمنى لنهر الأردن، إلى الجنوب من بحيرة طبرية.

كان البلست يتقنون صناعة المعادن، ويستخدمون الأسلحة الحديدية على نحو وفير، بل لقد احتكروا صناعة الحديد لأنفسهم. ولا أدل على حقيقة ذلك من أنهم قد تركوا الكثير من البقايا المعدنية، لاسيما المطارق والأزاميل والأدوات الزراعية. ولاشك في أنهم استخدموا العربات الحديدية في القتال، مما كان له أثر كبير خلال معاركهم وانتصاراتهم في الأناضول والشام.

وفضلاً عن ذلك فقد كانوا بحارة ممتازين وقراصنة مرهوبين. ومع ذلك فان من العبث القول مع فيليب حتى بأن البلست قد «أعطوا جيرانهم وورثتهم الفينيقيين ميلاً إلى الأسفار البحرية البعيدة». فالحقيقة أن النشاط البحري الكنعاني، أو الفينيقي، مشهور منذ عهد الدولة الفرعونية الوسطى. ومن الوثائق التاريخية الهامة صورة لسفينة فينيقية رسمت على جدران بعض المباني الفرعونية منذ عام ١٤٠٠ ق.م. وبما أن المصريين قد سموا الفينيقيين «فنحو»، (ومنه أخذت كلمة فينيقي) أي صناع السفن، فان الفينيقيين هم الذين نقلوا فن الملاحة والأسفار البعيدة إلى الشعوب، وليس العكس.

والحقيقة أن اهم اسهام قدمه البلست في مضمار تطوير الحضارة، هو استعمال الحديد ونشره على نطاق واسع. فلقد أدخل الفينيقيون الحديد في بناء سفنهم، فصارت السفينة أقدر على الملاحة والحمولة الثقيلة من ذي قبل. أما النشاط البحري للبلست فقد أخذ يتلاشى بالتدريج بعد استقرارهم في سواحل فلسطين.

وقد أكد سفر صموئيل الأول (١٣ : ١٩ ـ ٢١) مهارة البلست في صنع الأدوات الحديدية. يقول السفر: «ولم يوجد صانع في كل أرض اسرائيل، لأن

الفلسطينيين قالوا لئلا يعمل العبرانيون سيفاً أو رمحاً. بل كان ينزل كل اسرائيل إلى الفلسطينيين لكي يحدد كل واحد سكته ومنجله وفأسه ومعوله، عندما كلت حدود السكك والمناجل والمثلثات الأسنان والفؤوس، ولتر ويس المناسيس».

وسرعان ما اقتبس البلست الديانة الكنعانية، فعبدوا داجون أو دجن، بوصفه الهاً للحبوب في أسدود، والهاً للسمك في غزة. وما زال حتى اليوم في ساحل يافا اكثر من قرية تحمل اسم دجن. أما عسقلان فقد جعلوا منها مركزاً لعبادة عشتار الكنعانية.

ومع الزمن أخذ البلست يذوبون في الثقافة الكنعانية ذوباناً تدريجياً. غير أن لغتهم الخاصة قد استمرت في الوجود حتى القرن الخامس (ق.م)، ولا يعرف المؤرخون متى زالت تلك اللغة على وجه الدقة.

أما التكر فلا يعرف المؤرخون عنهم إلا قليلاً. وأهم ما في أمرهم أنهم قد بنوا مدينة سموها دور، إلى الجنوب من جبل الكرمل. وقد وفد عليهم السفير المصري ونامون وهو في طريقه إلى جبيل بغية الحصول على خشب الأرز من أجل بناء معبد لآمون في طيبة. وفي دور سرق التكر الذهب الذي مع ونامون. وحاول ملك المدينة أن يعيد الذهب المسروق إلى صاحبه، ولكنه عبثاً فعل. وقد دوّن ونامون هذا في المذكرات التي كتبها عن رحلته. والجدير بالتنويه أن رحلة ونامون هذه قد تمت في الثلث الأول من القرن الحادي عشر (ق.م).

٢ ـ شعوب الصحراء:

لم تثبت الوثائق التاريخية، أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة، أن فلسطين قد تعرضت لأي هجوم من قبل شعوب الصحراء طوال عصر الدولة المصرية الحديثة (١٥٧٥ ـ ١٠٨٧)ق.م، اللهم باستثناء الهجوم الذي قام به الخابير وعام ١٣٦٠، أو نحو ذلك. ولايمكن القول بأن الخابير وهم العبرانيون الذين تتحدث عنهم التوراة. لماذا؟ لأن الاصحاح الأول من سفر الخروج يزعم ان العبرانيين قد

بنـوا مدينـة المخـازن للملك رمسيس. ولا ريب في أن رمسيس المـذكـور في هذا الاصحاح هو رمسيس الثاني، إذ من الثابت ان هذا الملك قد بنى مدينة المخازن بالفعل. وإذا ما علمنا أن رمسيس الثاني قد تسنّم عرش مصر في العقد الأول من القرن الثالث عشر، أي زهاء عام ١٢٩٠ق.م، أو قبل ذلك بقليل، فان الخروج من مصـر، إن كان ثمـة خروج بالفعـل، لا يمكن له أن يكون قد تم قبل اواسط القـرن الثـالث عشـر، ما دام العـبرانيـون قد عاشـوا فترة من الـزمن مستعبـدين لرمسيس الثـاني نفسـه. ولهذا يجمع المؤمنون بأن التوراة تسرد وقائع، لا حكايات خيالية، على أن خروج العبرانيين من مصر قد تم عام ١٢٦٠ ق.م. ولا يستبعد أن يكـون العبيـد قد قامـوا بحـركة هروب جماعي، والتجأووا إلى قبائل الصحراء وعـاشـوا في حمايتهـا، ولا سيـما يوم تعـرضت مصـر لهجـوم شعوب البحر في عصر مرنبتاح، أو في عصر رمسيس الثالث. ولكننا لا نملك أي سند وثائقي يثبت هذه الفرضية، سوى التوراة التي لا يمكن الثقة بها كمصدر للمعلومات التاريخية، إلا ابتداء من القرن التاسع (ق.م)، إذ أصبحت الوثائق التاريخية تطابق التوراة حين تسـرد أحـداثـاً وقعت بين اواسـط القرن التاسع واوائل القرن السادس، أي زهاء مائتـين وسبعـين سنـة وحسب. ولكن ماذا عن الأحـداث التي تسردها التوراة منذ طوفـان نوح وحتى القـرن التـاسـع (ق.م)؟ لا يمكن ولا يجوز لعقـل يستطيع أن يلجم نفسه عن الركض وراء المرغوب أن يثق بما ترويه التوراة عن كل ما هو سابق للقرن التاسع (ق.م)، لماذا؟ لجملة من الأسباب، أهمها:

أولاً ـ ليس لدينـا أيـة وثيقـة تاريخيـة تؤكد الوجود الفعلي لأي شخصية من الشخصيـات الكـبرى التي تعيش في الملحمـة التـوراتيـة: ابـراهيم، اسحق، يعـقـوب، يوسف، موسى، يشـوع بن نون، شاول، اول ملك عبراني، داود، سليمان. تخيل أن يعقـوب الـذي بارك الفـرعـون وأكرمه الفرعون، كما يقول سفر التكـوين، ويـوسف الـذي صار وزيـراً لفـرعـون، ومـوسى الـذي تربى في قصر فرعـون، وداود الـذي حالف حيرام ملك صور، وسليمان الذي تزوج ابنة فرعون

وحالف حيرام ملك صور (وكل هذا وفقاً لما تسرده التوراة)، تخيل ان هؤلاء جميعاً لم يعثر المنقبون على أي أثر يدل عليهم. فكيف يمكن للعقل السليم أن يثق بما تسرده التوراة من أخبارهم؟

ثانياً ـ إن أحداث الفترة السابقة على القرن التاسع (ق.م). قد جرت قبل عصر الكتابة، أو قل ان الأحداث قد جرت في زمن (هذا ان كانت قد جرت بالفعل) وان تدوينها قد تم في زمن آخر. ويبدو أن الفرق بين الزمنين ليس بالطفيف، بحيث تبخرت الحقائق، بل ترمدت مع ترمد الأزمان.

ولدينا على ذلك دليلان. ويتلخص اولهما في أن التوراة لا تشير إلى ظهور الكتابة عند العبرانيين إلا في عصر الملك أخاب في القرن التاسع (ق.م).

وهذا شيء طبيعي، لأن الكتابة حضرية وليست بدوية، والعبرانيون قد كانوا رعاة في أيام ابراهيم واسحق ويعقوب، وهذا شأن لا تنكره التوراة نفسها. بل ان شاول أول ملك عبراني في التاريخ، على حد زعم التوراة، قد كان راعياً للبقر. يقول سفر صموئيل الأول (١١ ـ ٥): «وإذا بشاول آت وراء البقر من الحقل». وقد عاش شاول هذا في النصف الثاني من القرن الحادي عشر (ق.م)، وفقاً لفرضية المؤمنين بصحة أخبار التوراة، وهو قرن كان فيه العبرانيون رعاة وفلاحين ومتخلفين. وسفر القضاة لا يخفي هذا التخلف، فقد سبق أن ورد اعتماد العبرانيين على الفلسطينيين في مضمار اصطلاح ادواتهم الزراعية المصنوعة من المعدن.

أما الدليل الثاني فواضح في الكثير من مواضع التوراة. يقول سفر التكوين (٣٢ : ٣٢): «لذلك لا يأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذي على حُق الفخذ إلى هذا اليوم». إن عبارة «إلى هذا اليوم» تعني أن الحادثة قد وقعت في زمن معين، وأن تدوينها قد تم في زمن آخر. والحادثة هي الضربة التي انزلها يهوه بيعقوب على فخذه.

ويقول سفر التثنية (٣٤ : ٦) عن موت موسى : «ولم يعرف انسان قبره إلى هذا اليوم». إذن، لا بد من أن تكون الكتابة قد تمت بعد موت موسى.

ويقول سفر الملوك الأول عن الشعوب التي لم يطردها العبرانيون من أرضها، إذ اكتفوا باستعبادها (٩ : ٢١) : «جعل عليهم سليمان تسخير عبيد إلى هذا اليوم». ولا ريب في أن هذا الخبر قد كتب بعد عصر سليمان، أو بعد حدوثه.

والحقيقة أنك تستطيع أن تجد في التوراة مائة جملة على الأقل، تحتوي على عبارة «إلى هذا اليوم»، مما يؤكد لك أن الأحداث قد جرت في زمن وأن تدوينها قد جرى في زمن آخر. إن الذاكرة البشرية محدودة القدرة على الصيانة. وتأخير تسجيل الأحداث يعرض الحقيقة للضياع أو للتشويه. ولهذا يصعب الثقة بأخبار التوراة السابقة على القرن التاسع.

ثالثاً ـ إن أخبار التوراة متناقضة، وهي تنفي بعضها بعضاً. ولا بأس في مثال واحد، أو اكثر.

يتحدث الاصحاح الحادي والثلاثون من سفر العدد قائلاً بأن بني اسرائيل قد أبادوا شعب مديان (وهو شعب كان يقيم في صحراء سينا). وبعدما سبوا نساءهم وأطفالهم، «وأحرقوا جميع مدنهم ومساكنهم وجميع حصونهم بالنار»، ثم عادوا إلى موسى المقيم في وادي العربة. فتلقاهم موسى قائلاً : «فالآن، اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلاً بمضاجعة ذكر اقتلوها. لكن جميع الأطفال والنساء اللواتي لم يعرفن مضاجعة ذكر ابقوهن لكم حيات». وهذا يعني ابادة شعب مديان ابادة تامة، بحيث لم يبق احد منهم. ولكن الاصحاحين السادس والثامن من سفر القضاة يتحدثان عن حروب طويلة دارت بين العبرانيين وشعب مديان، بعد موت موسى. وهذا يتضمن ان ذلك الشعب لم يخضع للإبادة. فأي الخبرين يصدق المرء. يقول سفر القضاة (٦ : ٦) : «فذل إسرائيل جداً من قبل المديانيين». ان في الأمر تناقضاً لا يمكن رفعه.

يقول سفر القضاة (١ : ٨) : «وحارب بنو يهودا اورشليم ، وأخذوها ، وضربوها بحد السيف ، وأشعلوا المدينة بالنار» .

ولكن الاصحاح الأول من السفر نفسه سرعان ما يقول (١ : ٢١) : «وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان اورشليم ، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم إلى هذا اليوم» . اعتمدوا واحدة من اثنتين ؛ إما أن تكونوا قد أخذتم اورشليم بالسيف ، وإما أن تكونوا قد حصلتم عليها بواسطة التسلل السلمي . أما الاثنتان معاً فمن المفارقات التي لا يطيقها العقل .

يقول سفر صاموئيل الأول (١٣ : ٢٢) : «إنه لم يوجد سيف ولا رمح بيد جميع الشعب الذي مع شاول» . ولكن هذا السفر نفسه (١٤ : ٢٠) ، وبعد صفحة واحدة فقط ، سرعان ما يقول : «وصاح شاول وجميع الشعب الذي معه ، وإذا بسيف كل واحد على صاحبه» .

وللحق أن التناقضات التي ينطوي عليها العهد القديم ، أو بعض أسفاره ، تؤلف سفراً قائماً بذاته ، لو أراد أحد الناس أن يجمعها في تدوين واحد . وهذا مما ينزع الثقة عن التوراة وأخبارها ، منذ البدء وحتى القرن التاسع (ق . م) .

رابعاً ـ في التوراة ثمة مبالغات لا يصدقها العقل ، وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى التاريخ العلمي . فمثلاً يتحدث سفر القضاة (١٥ : ٤ ـ ٨) عن ثعالب شمشمون التي وضع المشاعل بين أذنابها وأطلقها في زرع الفلسطينيين . وفي السفر نفسه (١٥ : ١٦) يقتل شمشون ألفاً من الفلسطينيين بفك حمار .

ثم ان بعضاً من الأرقام التي تسردها التوراة هي من صنع الخيال ، ولا يمكن لها أن تكون من صنع الحقيقة . يقول سفر الملوك الأول (٢٠ : ٢٩) : «فضرب بنو اسرائيل من الآراميين مائة ألف رجل في يوم واحد» . وإذا علمنا أن الحرب التي يتحدث عنها الاصحاح العشرون من سفر الملوك الأول قد دارت بين أخاب ملك اسرائيل وبين بنحدد ملك دمشق ، زهاء عام ٨٦٠ق . م ، كان من

العسير علينا أن نصدق هذا الخبر، لأن مملكة دمشق كلها لم تكن تحتوي على مائة ألف رجل، بل ربما لم يكن عدد سكانها يبلغ إلى مائة ألف نسمة.

* * *

وعلى أية حال، فإن أية قراءة متأنية للتوراة تملك أن تستنتج ما فحواه أن الصراع الذي دار بين العبرانيين واعدائهم الفلسطينيين، أو البلست حصراً، إنما حسم لصالح العبرانيين، لا بفضل قوتهم ولكن بفضل حلفائهم، ولا سيما حماة وصور ومصر، الشيء الذي لا تخفيه التوراة، بل تكاد أن تصرح به علناً

فزهماء عام ١٠٠٠ق.م كانت مدينة صور في أوج عظمتها، كما أن تجارتها البحرية قد كانت واسعة الانتشار. وكان في نية صور أن تبلغ إلى البحر الأحمر لتنقل منه بضائع الهند، نقلاً برياً، إلى سواحل الشام، ولا سيما إلى فينيقيا. ولكن الحرب التي دارت بين البلست والعبرانيين (على فرض أن أخبار التوراة وقائع وليس أخيلة) قد عرقلت حركة القوافل التي لا بد لها من أن تمر بفلسطين في طريقها إلى صور. ويبدو أن البلست، وهم من عتاة القراصنة قد راحوا يعتدون على سفن صور في البحر المتوسط. فانحازت صور إلى العبرانيين بغية كسر شوكة البلست، من أجل حماية الطريق البري الذي يربط خليج العقبة بالبحر المتوسط. وبانحياز صور إلى العبرانيين هزم البلست وبنى داود مملكته التي ورثها سليمان ابنه. يقول سفر الملوك الأول (٩: ٢٦ ـ ٢٧): «وعمل الملك سليمان سفناً في عصيون جابر التي بجانب ايلة على شاطىء بحر سوف، في أرض ادوم. فأرسل حيرام في السفن عبيده النواتي العارفين بالبحر مع عبيد سليمان».

وتتحدث التوراة عن ارسال حيرام لأخشاب الأرز إلى كل من داود وسليمان. كما تذكر أن سليمان قد تزوج واحدة من بنات الفرعون. وهذا زواج سياسي دون أدنى ريب. وجاء في سفر الملوك الأول (٩: ١٠ ـ ١٤) أن سليمان قد تنازل لحيرام، ملك صور، عن عشرين مدينة في أرض الجليل، وأن حيرام قد أرسل لسليمان خشب السرو ومعه مائة وعشرون وزنة من الذهب. أما هيكل

سليمان فقد بني بأخشاب فينيقية وبأيدي فنانين ومهندسين فينيقيين، كما تذكر التوراة بكل صراحة.

ويقول سفر صموئيل الثاني (٨: ٩ - ١٠): «وسمع توعي ملك حماة أن داود قد ضرب كل جيش هدد عزر. فأرسل توعي يورام ابنه إلى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه لأنه حارب هدد عزر وضربه، لأن هدد عزر كانت له حروب مع توعي».

أما حدد عزر هذا فهو ملك لمملكة آرامية تسمى صوبا، وموقعها في سهل البقاع، قرب بلدة عنجر الحالية. وقد كان يطالب بملك الآراميين في منطقة الفرات الأوسط. ويدعي أن ممالك الآراميين هناك هي أجزاء من مملكته. وقد ذهب إلى الفرات وخاض حروباً ضد بني جلدته الذين كان يراهم مجرد متمردين عليه. وههنا يستطيع المرء أن يحدس بالتحالف الذي قام بين ملوك الآراميين في شمال سوريا وبين داود في فلسطين. وما هزم حدد عزر الا بسبب هذا التحالف. وربما وقفت صور ضد حدد عزر أيضاً. فمملكته قريبة من صور، وتحمل لها بعض التهديد.

ولهذا، يمكن الظن بأن حروب سليمان (ان كان سليمان شخصية عينية) في حماة، وبناؤه لمدينة تدمر، كما تزعم التوراة، لا تعدو كونها مجرد تدخل (بناء على تحالف مسبق) في شؤون سوريا الشمالية والوسطى. فمن عادة الآراميين أنهم كانوا يتنازعون دوماً فيما بينهم. وليس من المستغرب أن يكون سليمان قد تحالف مع قوم من الآراميين ضد قوم آخرين، فأسهم في فتح حماة مع قوة آرامية أخرى معادية لتلك المدينة.

وعلى أية حال، فان دولة سليمان قد تجزأت بعد موته إلى جزئين: اسرائيل ويهودا، أو هكذا تقول التوراة، إذ من المحال أن نثبت اليوم، وضمن المعطيات التي بين أيدينا، أن دولة داود وسليمان قد ظهرت أو اتحدت، أو حتى تجزأت. إذ ربما لم تكن الوحدة المزعومة بين اسرائيل ويهودا، في أيام شاول وداود، سوى تحالف

عسكـري بين الاقليمـين، لا هدف له الا مواجهـة البلست. وكسرت شوكة البلست في عصر داود، فلم يبق للتحالف العسكري ما يسوّغه. ومن المحتمل ان تكون القدس هي مركز التحالف، او مقر رئاسة الأركان الموحدة، وذلك نظراً لأن القدس شديدة القرب من مدن البلست المنشورة بين يافا وغزة، أما شكيم، أقدم عاصمة لاسرائيل، فبعيدة بعض الشيء عن يافا، وبالأخص عن غزة واسدود وعسقلان، وهذه هي اقوى مدن البلست. وبما أن القدس هي مركز القيادة العسكرية الموحدة، فلا بد لملك القدس من أن يكون القائد الأعلى للجيشين المتحالفين، جيش اسرائيل وجيش يهودا. وهذا ما ظنه كتاب التوراة وحدة اندماجية للإقليمين.

على أن أغرب ما يمكن للمرء أن يسمع، بخصوص تجربة داود وسليمان، هو قول المؤرخ البريطاني ارنولد توينبي، في كتابه المشهور، «دراسة التاريخ»، (الجزء الأول من الترجمة العربية، ص ٤٤٢)، يقول توينبي: «لم يكن العالم السوري قطيعاً واحداً يحرسه راع واحد. إذ فشلت محاولة هدفت خلال القرن العاشر لكي تتوحد سياسياً تحت قيادة اليهود: المواطن العبرية، والفينيقية، والآرامية، والحثية، التي تقع في عرض الطريق بين العالمين البابلي والمصري».

يقيناً، إن هذا الرأي لا يدلل إلا على انسياق وراء الرغبة والمرغوب. فالمؤرخ الاوروبي الغربي قل أن يبرأ من الانسياق وراء الهوى حين يتعلق الأمر بثلاث من القضايا الكبرى: العبرانيون والأغريق واوروبا الحديثة.

ويتابع المؤرخ البريطاني قائلاً: «من ذلك يتبين أن انهيار الحضارة السورية، أحرى بأن يؤرخ من انحلال دولة سليمان بعد موت مؤسسها عام ٩٣٧ق.م، لا أن يؤرخ من عبور آشور ناصر بال الفرات لأول مرة عام ٨٧٦ ق.م».

إن توينبي يعطي لسليمان حجماً اكبر من حجمه الحقيقي، وكان أحرى به أن يرتاب بالوجود الفعلي لسليمان، ما دمنا لا نملك أية وثيقة تؤكد هذا الوجود.

والأبدى من ذلك أن توينبي قد خانته معرفته الموسوعية. فلا شك في أن أية قراءة متأنية للتوراة ولتاريخ القرن العاشر سوف لن تعجز عن ادراك جملة الحقائق المتعلقة بهذا الزمن. وأهم هذه الحقائق أن القوى المتحركة في الشام يومذاك أربع قوى بالضبط: البلست والعبرانيون والفينيقيون والآراميون. وللحق أن أضعف هذه القوى هي القوة العبرانية. فالآراميون المتصدون للآشوريين هم الأقوى. وحيرام الفينيقي قد وظف سليمان لخدمة مصالحه، ووظف أباه داود من قبله. أما البسلت فقوة هائلة، ولو لم يتحد العبرانيون والفينيقيون والمصريون ضدهم لصاروا أسياد جنوب الشام دون ريب. إذ لقد كان البلست القراصنة خطرين على التجارة الفينيقية المصرية، مما أدى إلى تحالف مصر وصور مع داود وسليمان، الأمر الذي تؤشر اليه التوراة تأشيراً لا لبس فيه. ومن حسن حظ العبرانيين أن جيرانهم الآراميين قد كانوا ميالين إلى التفكك والتخاصم فيما بينهم دوماً. ولو كان الآراميون موحدين تماماً لأخضعوا العبرانيين لنفوذهم قطعاً. لقد غاب عن بال توينبي أن الآراميين قد صارعوا الآشوريين طوال أربعة قرون، الشيء الذي ما كان العبرانيون قادرين على اطاقته البتة، لو انهم وضعوا أمام الآشوريين وجهاً لوجه.

يقيناً إن توينبي لم يستطع أن يدرك العلة الجوهرية «لانهيار الحضارة السورية». فلا ريب في أن السبب الجوهري لهذا الانهيار ليس تفكك دولة سليمان، التي برهنت التنقيبات الأثرية أن قوتها أصغر بكثير من الصورة التي قدمتها التوراة، وهي الصورة التي تقمصها توينبي بحكم تربيته، كما أن السبب ليس عبور الآشوريين لنهر الفرات عام ٨٧٦ ق.م، بل هو في الحق تمزق الآراميين واقتتالهم فيما بينهم. فلو استطاع الآراميون أن يتحدوا لوحدوا الشام كلها، وجعلوا منها قوة توازي أية قوة أخرى في الشرق الأوسط خلال الشطر الأعظم من الألف الأول (ق.م)، لقد انتقى توينبي أضعف الأطراف الأربعة دون أن يدري. فماذا عساهم ان يكونوا هؤلاء العبرانيون، حتى في عصر سليمان، إذا ما قورنوا بمدينة صور وحدها؟ فهم، بكل وضوح، ما كانوا إلا هامشاً لمدينة صور

وحسب، يعيشون على فتات مائدتها، أو قل على الضرائب التي تدفعها صور مقابل مرور بضائعها بفلسطين. أما تنازل سليمان عن الجليل (ما عدا عكا التي لم تكن لسليمان أو لابيه في أي يوم من الأيام) لملك صور فهو من أقوى الأدلة على أن العبرانيين ما كانوا إلا هامشاً ثانوياً لمدينة صور. فما كان لداود وسليمان أن ينتصرا على البلست الا بفضل الذهب الذي قدمه حيرام، الأمر الذي تصرّح به التوراة ولا تخفيه.

* * *

وعلى أية حال، فان التنقيب عن الآثار قد أكد استمرار الحضارة الكنعانية في فلسطين طوال عصر داود وسليمان المفترض، وبرهن على انسجامها وتجانس بقاياها. وأهم ما اكتشف في القرن العاشر (ق.م)، تقويم وجد في مدينة جازر، وهو يتحدث عن المنتجات الزراعية في جنوب فلسطين، ولاسيما عن الزيتون والقمح. واكتشف كذلك نصب تذكاري في مجدو، يؤكد هجوم الملك شوشنق، ملك مصر الليبي الأصل، على مدينة القدس. والتوراة تتحدث عن هذا الهجوم، وتقول بأنه تم إثر وفاة سليمان، التي لا اتفاق بين المؤرخين على زمن حدوثها، والتي لا يمكن ان تكون قد جرت بعد عام ٩٢٠ق.م، وتضيف التوراة بأن الفرعون الليبي قد نهب الكنوز التي سبق لسليمان أن اختزنها في داخل الهيكل.

ومع أن جيش مصر قد كان مضعضعاً يومذاك، والمملكة الفرعونية موهونة إلى حد الشيخوخة، فان دولة سليمان قد كانت أعجز من أن تواجه تلك القوة الشائخة. ولم لا، فالتوراة نفسها تتحدث عن ثورات قامت ضد داود وسليمان داخل مملكتهما. بل إن أبشالوم، وهو ابن داود قد ثار عليه وطرده من القدس، كما جاء في سفر صموئيل الثاني. وقد جاء في هذا السفر (١٥ : ٣٠) أن داود، بعدما هرب من وجه الثائرين، راح يتسلق جبل الزيتون، «كان يصعد باكياً ورأسه مغطى، ويمشي حافياً...».

ففي الحق أن دولة داود وسليمان، ان كان لها وجود فعلي، ما هي إلا كيان ثانوي، مفكك من داخله، وموهون القوة حتى لو اتحد وتخلص من انقساماته. وما كان لهذا الكيان أن يعيش إلا بفضل الدعم الذي قدم له من الخارج.

* * *

ويبقى السؤال الجوهري مطروحاً: هل اقتحمت فلسطين من قبل شعب جديد في القرن الثاني عشر (ق.م). أو في القرن الذي تلاه؟

لا يمكن الجزم في هذه المسألة، ما دامت الحفريات لم تكشف عن أي أثر غير كنعاني في جميع الأراضي التي يفترض أنها قد رضخت لسليمان ولأبيه داود. ولكن ثمة نقطة مهمة، وهي أن اللغة العبرانية تختلف قليلاً عن اللغة الكنعانية. وهذا الاختلاف يمكن أن يفسّر على وجهين: فهو إما أن يكون مجرد اختلاف في اللهجة بين اللغة الكنعانية في فلسطين واللغة الكنعانية في اوغاريت، التي باتت اليوم معروفة بالفعل؛ وإما أن يكون اختلافاً نتج عن قدوم شعب جديد إلى البلاد، وترك لغته الأصلية وتبنى لغة السكان السابقين، وذلك لأنهم أرقى منه. ومن المعروف أن شعباً حين يترك لغته الأصلية ويتبنى لغة أخرى، فانه لا يتبناها كما هي، بل يغيّر فيها ويبدل. وقد يكون هذا هو سر الاختلاف بين اللغة الكنعانية واللغة العبرانية.

وعلى أية حال، فان العبرانيين، إن كانوا قد دخلوا إلى فلسطين في القرن الثاني عشر (ق.م)، أو في أي قرن آخر، فانهم قد دخلوها سلماً، على الأرجح، وعبر التسلل التدريجي وحسب. وللحق أن التوراة نفسها لا تخفي هذا الأمر، بل تصرح به علناً في اكثر من موضع. وسفر القضاة (١: ٢٧ ـ ٣٦) هو مثال ممتاز على هذا التصريح. بل إن الاصحاح الثالث منه يكاد أن يكون الحكم الفيصل في هذا الشأن. فقد جاء في الجملتين الخامسة والسادسة من ذلك الاصحاح: «فسكن بنو اسرائيل في وسط الكنعانيين والحثيين والاموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم».

أليس في هذا القول اعتراف صريح بالتسلل التدريجي السلمي؟ ثم اليس في هذا القول ما يناقض ادعاءات الأسفار الأخرى، أوحصراً سفريشوع، القائلة بأن العبرانيين قد أبادوا أريحا وعاي وحاصور؟

فأي السفرين نصدّق؟

الفصل الرابع

ثلاثة شعوب من الشرق

١ ـ الآشوريون يجتاحون فلسطين :

نقل الملك عُمري عاصمة اسرائيل من ترصة إلى السامرة (سبسطية الحالية) التي بناها زهاء عام ٨٨٠ق.م. وقد كشفت الحفريات عن المدينة التي بناها عُمري، واثبتت أنها بنيت بالفعل في مطالع القرن التاسع (ق.م). ولهذا فان التوراة، كمصدر تاريخي، تستحق بعض الثقة، ولكن بعض الثقة وحسب، وابتداء من هذا التاريخ فقط.

وبلغت اسرائيل ذروة مجدها في عصر الملك أخاب، الذي ورث أباه عمري، سنة ٨٧٤ق.م، والذي تزوج من ايزابيلا ابنة ايتوبعل، ملك صور، وكان تابعاً من أتباع بنحدد الأول ملك دمشق. وحين قام شلمناصر الثالث ملك آشور بعبور الفرات ومهاجمة سوريا الشمالية، تصدى له الأراميون برئاسة بنحدد، وكان تابعه أخاب الاسرائيلي من جملة الملوك الذين تصدوا للآشوريين وخاضوا

معركة قرقر، إلى الشمال قليلاً من حماه، عام ٨٥٣ق.م. ولكنه لم يشترك في هذه المعركة إلا بعدما أرغمه بنحدد على ذلك، إثر حصار فرضه على السامرة. والغريب أن التوراة لا تذكر خبر اشتراك اسرائيل في هذه المعركة، وهو خبر تؤكده الوثائق الآشورية.

وبعد موت آخاب، الذي تقول التوراة بأنه قتل على يد بن حدد في معركة جلعاد راموت، شعر المؤابيون الخاضعون لاسرائيل بالضعف يدب في أجهزة الدولة، فثاروا وخاضوا ضد اسرائيل معركة تزعم التوراة أن الاسرائيليين قد كسبوها، بينما راح ميشع، ملك مؤاب يخلد انتصاره على حجر اكتشف حديثاً. وأغلب الظن أن اسرائيل قد هزمت أمام مملكة مؤاب الصغيرة، الواقعة إلى الشرق من البحر الميت، على ضفاف نهر الموجب، وهو ما كان يسمى نهر ارنون. ولا أدل على هذا من ذلك الانقلاب العسكري الذي قام به ضابط في الجيش الاسرائيلي اسمه ياهو، وهو من قتل ايزابيلا، الملكة الأم، وأزال أسرة عمري، وأسس اسرة حاكمة جديدة. ولكن هذا الانقلاب لم يغيّر من الأمر شيئاً. ففي احدى المسلات الآشورية يظهر ياهو راكعاً أمام شلمناصر الثالث.

ومات ياهو ليرثه يهوآحاز الذي أصبح دمية في يد حزائيل، ملك دمشق ووريث بنحدد. وقد زحف هذا الملك الآرامي على سواحل فلسطين، وبعد احتلالها انصرف إلى حصار القدس، فدفع له ملكها جميع كنوز هيكل سليمان. وكان قد زحف على شرق الأردن واحتلها حتى بلغ أطراف أدوم. ومن الواضح تماماً أن حزائيل الدمشقي كان يحاول أن يوحد النصف الجنوبي من بلاد الشام ليتمكن من الصمود في وجه الآشوريين. وقد أثبتت الحروب التي دارت بين دمشق والعبرانيين هشاشة كل من يهودا والسامرة، وهما المملكتان اللتان نخرتهما الدسائس والمؤامرات والثورات، وكذلك ما دار بينهما من حروب.

ولكن الآشوريين دوخوا دمشق إثر موت حزائيل، في أواخر القرن التاسع (ق.م)، فبعد موت شلمناصر الثالث عام ٨٢٧، ورثه ابنه شمشي حدد

الخامس، الذي انهمك في محاربة بابل وميديا، مما أتاح لدمشق أن تتنفس الصعداء. وحين مات عام ٨١٠ كان ابنه حدد نيراري الثالث ما انفك دون سن البلوغ، مما أتاح الفرصة لأمه سميراميس بأن تصبح وصية على العرش. وانهمكت هذه المرأة بالحرب ضد ميديا وسواها، مما أراح الآراميين في بلاد الشام. وعندما بلغ حدد نيراري الثالث سن البلوغ عام ٨٠٦، أخذ يشن الغارات على بلاد الشام، وأخضعها كلها لسلطته. وجاء في أحد نصوصه أنه أخضع «حمري وآدوم وفلسطيا». وحُمري هي اسرائيل وأما فلسطيا فليست سوى الساحل الفلسطيني من جنوب حيفا إلى غزة. أما ماري، ملك دمشق، فقد حاصره في عاصمته، ثم ألزمه بدفع جزية باهظة جداً.

ولكن آشور انشغلت بحروبها مع مملكة اورارتو (ارارات، في الأناضول الشرقي)، ومع سواها من أعداء آشور في ايران. كما حل بها الطاعون زهاء عام ٧٦٠ق.م. وبذلك نجت بلاد الشام من هجمات آشور وتدخلاتها طوال سبعين سنة، على وجه التقريب.

إلا أن حدد نيراري الثالث كان قد ضعضع مدينة دمشق عام ٨٠٢ ق.م. فقد دمر قراها ومدنها وقطع أشجار غوطتها وأخذ أموالها جزية أفقرتها إلى حد الامـلاق. ولهذا فقد تشجعت السامرة واستعادت حدودها القديمة، بل راحت تهاجم دمشق نفسها، في عصر يربعام الثاني (٧٨٥ـ ٧٤٥ ق.م)، وهو الملك الذي انتعشت اسرائيل في عهده أيما انتعاش، وذلك بفضل خمود مصر، وانشغال آشور بأمورها الداخلية، والكارثة التي ألمت بمملكة دمشق، وانصراف الفينيقيين إلى عالم البحر المتوسط، بوصفه المجال الأرحب لنشاطهم التجاري.

وهكذا اتيح ليربعام الثاني الوقت اللازم والأموال الكافية، لتحصين مدينة السامرة، وهو التحصين الذي سوف يقاوم الآشوريين ثلاثة أعوام قبل أن تسقط المدينة في أيديهم. فقد اكتشف المنقبون ذلك السور السميك الذي بناه يربعام

الثاني، والذي بلغ عرضه اكثر من عشرة أمتار، ولا غرابة في الأمر، فقد كان سوراً مزدوجاً بالفعل.

ومع السامرة انتعشت مملكة يهودا في عهد ملكها عزّياً الذي حكم ثلاثين عاماً انتهت عندما انتصف القرن الثامن (ق.م)، ولم يكن البلست قد ذابوا كلياً في هذا الطور، فهبوا يحاربون يهودا ظناً منهم أنها شديدة الضعف، ولكن الملك عزيا تصدى لهم وهزمهم دون صعوبة كبرى، كما صد العرب عن حدود مملكته، وأخذ الجزية من ربة عمون (عمان الحالية) عاصمة العمونيين.

غير أن آشور نهضت من خمولها مرة أخرى، لتصنع حماماً دموياً لم يعرف له مثيل من قبل. فلقد زحف تغلات فلاسر الثالث عام ٧٣٤ واحتل جلعاد (منطقة اربد والسلط حالياً)، كما احتل الجليل وسواحل فلسطين كلها، وسبى بعض السكان إلى آشور.

وفكر رصين، ملك دمشق، وفقح، ملك اسرائيل بالاتحاد من أجل مواجهة الآشوريين. وراحا يضغطان على آحاز، ملك يهودا، ليدخل معهما في هذا الاتحاد. ولكن آحاز استنجد بتغلات فلاسر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧)، فهب الملك الآشوري كالنمر، عام ٧٣٤ق.م. واجتاح أراضي مملكة دمشق ومدنها وأحالها إلى رماد. وهرب رصين، بينما شدد تغلات فلاسر الحصار على مدينة دمشق نفسها. وسقطت المدينة بعد إحراق الغوطة، أو قطع اشجارها، وقتل رصين، وسبى الآشوريون السكان، وذلك عام ٧٣٢ق.م.

وهكذا زال الدرع الحقيقي الذي يقي فلسطين من هجمات آشور العاتية. فجاء دور اسرائيل، التي دفعت الجزية لآشور في بداية الأمر.

تمرد هوشع، ملك اسرائيل، ورفض أن يدفع الجزية لشلمناصر الخامس، وريث تغلات فلاسر، فما كان من هذا الأخير إلا أن حاصر السامرة طوال ثلاثة أعوام. ومات شلمناصر قبل أن تسقط المدينة. فورثه ضابط قوي في الجيش الآشوري يسمى سرجون الثاني. فشدد الحصار على عاصمة اسرائيل واحتلها

عام ٧٢١ (ق.م)، وسبى من سكانها اكثر من سبعة وعشرين ألفاً، نقلهم إلى ميديا، وهي الشطر الشمالي الغربي من ايران. وجاء الآشوريون بأناس من العرب، وكذلك من عيلام وبابل وأسكنوهم في أرض اسرائيل، ليكونوا أنصاراً للدولة ضد أي تمرد يقوم به السكان الأصليون.

أما يهودا، فقد اعتلى عرشها، إثر دمار السامرة، ملك يسمى حزقيا. فما كان من هذا الملك إلا أن دفع الجزية للآشوريين اتقاء لشرهم.

ورفض ملك اسدود، وهو من البلست أن يدفع الجزية لسرجون، فما كان من هذا الأخير إلا أن عزله وولى أخاه على المدينة. وما إن رجع الملك الآشوري إلى بلاده حتى هب أهل اسدود وطردوا الدمية التي ثبتها سرجون على عرشهم، وعينوا بدلاً منه رجلاً آخر، ربما كان يوناني الأصل. وحين سمع سرجون بالنبأ أسرع في العودة إلى فلسطين، وضرب الحصار على اسدود، فهرب اليوناني إلى مصر، ولكن سرجون راح يحاصر المدينة ليفرض عليها الاستسلام، هي وحلفاؤ ها المجاورون لها، وليغنم منها الغنائم الكثيرة. ثم سبى سكانها، وجاء اليها بسكان جدد نقلهم من الشرق، وعين على المدينة حاكماً آشورياً.

والحقيقة أن اسدود كانت قد فعلت الكثير من أجل حريتها قبل أن يحتلها سرجون. فقد حفرت خندقاً حول أسوارها عمقه عشرة أمتار. واستنجدت بمصر وبعض جزائر البحر، وتحالفت مع بعض مدن فلسطين الواقعة في الجنوب الغربي. ولكن مصر يومذاك قد كانت مقسومة إلى شطرين، شطر جنوبي تحكمه السلالة الخامسة والعشرون الشديدة الضعف، وشطر شمالي تحكمه السلالة الرابعة والعشرون، وعاصمته مدينة سايس في الدلتا. وعبثاً حاول تف نخت فرعون سايس أن يدعم السامرة لتصمد في وجه سرجون. ولكن انتصارات هذا الأخير لم تمنع مصر من متابعة سياستها القائمة على تأييد فلسطين ضد غزاتها. ولذلك تشجع حنون ملك غزة على الثورة ضد سرجون، بعدما هرب إلى مصر كلاجيء سياسي في عصر تغلات بلاسر. فأمر الفرعون، باكن رنف، وهو ابن تف

نخت، قواته المرابطة في رفح (ربيحو) على التعاون مع حنون الذي شكل حلفاً في الشطر الجنوبي الغربي من فلسطين ليواجه قوات الآشوريين. ولكن حين نشب القتال، فقد ثبت أن هذا الحلف ضعيف وعاجز عن المواجهة. فهرب القائد المصري، سيبه، وقبض سرجون على حنون وساقه إلى آشور مقيداً بالسلاسل. ويضيف سرجون: «ثم دمرت ربيحو [رفح] وحولتها إلى أنقاض وحرقتها».

* * *

ولكن مصر شعرت بجدية الخطر الآشوري قرب حدودها، فشجعت حزقيا، ملك يهودا، ليتمرد على الآشوريين. فما كان من هذا الملك المنكود الحظ إلا أن تحالف مع بقايا البلست الذين انهكتهم الحروب، كما تحالف مع بعض المدن الفينيقية. ولكن هذا الحلف لم يكن إلا علاقة بين أصفار وقوى موهونة أكلها الزمن والصراع الطويل الأمد.

هب سنحريب الذي ورث أباه سرجون واستولى على صيدا وعكا ويافا وعسقلان بحد السيف. وخضعت له بالأمان كل من اسدود وعمان ومؤاب وادوم (الواقعة إلى الجنوب من البحر الميت). واحتل لاخيش في جنوب فلسطين، وضرب الحصار على عقرون (وهي العقير الحالية قرب عسقلان)، وكذلك على مدينة صور. وفي عام ٧٠١ ق.م. حاصر القدس وهاجم مدن يهودا.

وتدخلت مصر على نحو سافر ومباشر هذه المرة. فقد ثبت ان النصف الجنوبي من بلاد الشام عاجز تماماً عن حماية نفسه من الآشوريين العتاة. فزحف ترهاقة، الفرعون الحبشي الأصل، باتجاه فلسطين ليوقف الزحف الآشوري. ولكن سنحريب تصدى له في جنوب فلسطين وقاتله وفرض عليه أن يدفع الجزية، كما تقول الوثائق الآشورية نفسها.

وتابع سنحريب القتال في يهودا التي تحصن حزقيا في داخلها، ومعه النبي أشعيا. ولم تسقط القدس، لا لمناعتها، ولكن لأن الطاعون قد فتك بالجيش الآشوري. فرضي سنحريب بالجزية من حزقيا مقابل عودته إلى نينوى. وفضلاً

عن الجزية، نال سنحريب بنات حزقيا، وكذلك بعضاً من نساء قصره. وعاد الملك الآشوري إلى بلاده بعدما خرب مدن يهودا وقراها. ولقد نهب تسعاً وثمانين مدينة، فضلاً عن ثمانمائة وعشرين قرية، غنم الكثير من الحيوانات، منها ثمانمائة ألف رأس من الغنم، وأسر اكثر من مائتي ألف نسمة. وهذا يعني أن يهودا قد أصبحت مرشحة للزوال.

وبعد وفاة سنحريب ورثه ابنه اسرحدون. وقد قام هذا الملك بهجوم على مصر، ففتحها واحتل مدنها ونهبها، وعاد إلى عاصمته نينوى مثقلاً بالأسرى والغنائم.

وورثه ابنه آشوربانيبال، فتابع الحرب ضد مصر. ولكن مصر استعانت عليه بمملكة ليديا ودحرته عن أراضيها إلى غير رجعة، وذلك بعدما جندت مصر أعداداً كبيرة من المرتزقة اليونانيين في جيشها. والحقيقة أن مصر قد صارت مستعمرة يونانية في القرن السابع (ق.م)، إذ انتشر فيها التجار اليونانيون انتشاراً واسعاً، كما أصبح معظم جنودها من اليونانيين.

أما فلسطين، وبقية بلاد الشام، فقد ظلت على ولائها لآشوربانيبال. وفي أواخر عهد هذا الملك دب الضعف في الدولة الآشورية، نتيجة للجهود الحربية الكبيرة التي بذلتها طوال مائة سنة. فتجرأت القبائل الهمجية الرابضة عند تخوم آشور على الدولة، واندفعت في طوفان من الشمال إلى الجنوب، واجتاحت فلسطين ووصلت إلى حدود مصر. فما كان من الفرعون إلا أن دفع لها الجزية لتتراجع عن حدود بلاده، بل عن الشطر الجنوبي من فلسطين، وهو الشطر الذي احتلته مصر حين رأت الضعف يأكل الدولة الآشورية. وهكذا عاد السيكثيون من فلسطين إلى الأناضول بعدما اجتاحوا سواحل الشام، ووصلوا إلى عسقلان وغزة، زهاء عام ٦٢٥ق.م.

ثم ان الفرعون، بسماتيك، محرر مصر من الآشوريين، قد ضرب الحصار على اسدود واحتلها عام ٦٢٠ق.م. وهكذا تضعضع الآشوريون كثيراً في أواخر

عهـدهم. ولكنهم لم ينتقلوا إلى طور الضعف الا بعد ما دمروا الشام بالدرجة الأولى، وجنوب العراق ومصر بالدرجة الثانية. فلقد سبق لأسرحدون أن دمر مدينة صيدا العامرة الشامرة. كما ان آشور بانيبال دمر طيبة، عاصمة مصر سنة ٦٥٩ق.م. أما صورواروادفقد أذعنتا بعدما شاهدتا مصير صيدا. وقد سبق لسنحريب أن نهب بابل عام ٧٨٦ق.م، أما آشور بنيبال فقد دمرها تدميراً مريعاً سنة ٦٤٨ق.م. وبعد ثمانية أعوام دمر سوسة (شوشن، في التوراة)، وهي عاصمة عيلام، الواقعة إلى الشرق من بابل. وادعت نصوصه أو سجلاته أنه أخمد فيها أصوات البشر، وصرخات الفرح المنبعثة من السكان.

وبايجاز ان الهلال الخصيب قد اتخذ قراراً بالانتحار في العصر الآشوري الأخير.

* * *

وعندما دب الضعف في الدولة الأشورية، تجرأ عليها جيرانها بعد وفاة آشور بانيبال، آخر ملك قوي فيها (٦٢٧) ق.م. فهجم نبوبلاصر ملك الكلدانيين واحتل بابل واستعد لمواجهة آشور. وتحالف مع الميديين الذين زحفوا على الدولة الخائرة من الشرق، بينما زحف الكلدان من الجنوب. وأطبقت القوتان المتحالفتان على المدن الآشورية في شمال العراق والجزيرة، وكانت النتيجة دمار هذه المدن كلها، ولا سيما العاصمة، نينوى، أعظم مدينة في الشرق الأوسط يومذاك. وتقاسم الميديون والكلدان مملكة آشور، فأخذ الميديون شمال العراق واجزاء من الأناضول وايران. أما الكلدان فأخذوا العراق الجنوبي. وبلاد الشام كلها.

وتغير موقف مصر التي كانت معادية لآشور، فوقفت إلى جانبها خوفاً من الحلف الجديد. ولكن عبثاً حاولت مصر انقاذ آشور من قدرها الكئيب.

* * *

في القرن الثامن (ق.م)، وإثر سقوط دمشق، تبنت آشور اللغة الأرامية كلغة رسمية، وذلك بفضل سهولة الكتابة بها، وبفضل قدرتها على التعبير. فقد

سبق للآراميين أن تبنوا الأبجدية الفينيقية وطوروها. ومن الطبيعي أن تنتشر لغة ذات أبجدية، وأن تحل محل اللغة الأكادية ذات الكتابة المسمارية المعقدة، وهي التي كان يستعملها الأشوريون والبابليون معاً. فالكتابة المسمارية شديدة الصعوبة، لا يستطيع استعمالها إلا النخبة وحدها. أما الأبجدية التي ابتكرتها المدن التجارية الفينيقية، والتي طورها الآراميون الخبراء بشؤون التجارة والعمل، فقد جاءت أبجدية سهلة التداول وقابلة للاستعمال في الأوساط الشعبية.

ودخلت الآرامية إلى فلسطين وأخذت تزاحم العبرية والكنعانية وسواهما. وهكذا أصبحت الآرامية هي اللغة السائدة في جميع أطراف الهلال الخصيب. وكان غرض الآشوريين من نشر تلك اللغة وتعميمها على مجمل أرجاء مملكتهم هو ايجاد نوع من التجانس بين السكان المتباينين الذين يتعذر تجانسهم من دون لغة مشتركة تصهرهم في ثقافة موحدة، وفي نمط حضاري أحادي الصباغ.

٢ ـ الكلدانيون يجتاحون فلسطين:

ما ان سقطت آشور عام ٦١٠ق.م. حتى تحرك الفرعون نيخاو وزحف شمالاً ليحتل بلاد الشام، ظناً منه أنها في حالة فراغ عسكري. وتصدى له يوشيا، ملك يهودا التابع لبابل الكلدانية، واصطدم معه في مجدو، فأصيب بسهم اودي بحياته.

وتابع نيخاو زحفه شمالاً حتى وصل إلى كركميش (جرابلس الحالية). وهناك اشتبك مع نبوخذ نصر، وهو ابن الملك نيوبلاصر الكلداني، في معركة كبيرة، عام ٦٠٥ ق.م، كانت نتيجتها هزيمة ساحقة منيت بها القوات المصرية.

وزحف نبوخذ نصر ودخل القدس، عام ٥٩٧ق.م، وذلك بعد حصار قصير. فسبى الملك يهوياقين وأمه ونساء قصره، وسبعة آلاف جندي من جيشه، وأخذهم إلى بابل. ثم عيّن بدلاً منه رجلاً يسمى صدقيا ملكاً على يهودا، وهو ابن يوشيا الذي قتله نيخاو في مجدو.

ولكن صدقيا، بعد بضع سنوات، أخذ يفكر بالتمرد على بابل، معتمداً على مصر، مع ان النبي ارميا قد حذره من مغبة هذا التمرد. فقد رأى هذا النبي أن بابل قد اصطفاها الله لتكون وسيلة لمعاقبة شعبه المارق عن دينه. ووضع ارميا نيراً على عنقه لينبه الناس إلى النير البابلي الذي سوف يكدنون به.

وعلى أية حال فان نبوخذ نصر قد فرض الحصار على القدس. وجاءت فرقة مصرية لترد الكلدان، ولكنها لم تفلح. وهكذا هدموا السور ودخلوا المدينة عام ٥٨٦ق. م. فهرب صدقيا، ولكنه سرعان ما قبض عليه قرب أريحا، وجيء به إلى نبوخذ نصر الذي كان يخيّم في ربلة، إلى الجنوب من بحيرة حمص. فقتل ابناؤه أمامه، وسملت عيناه، وسيق إلى بابل مكبلاً بالسلاسل.

ثم هدم القدس، وهدم معها الهيكل، وسبى معظم السكان إلى جنوب العراق، ولم يبق في المدينة إلا النفر القليل. ويقال ان عدد المسبيين قد بلغ خمسين ألفاً. كما أن بعض المدن في يهودا لحق بها الدمار. وهكذا انتهت تلك الدولة، بعدما عاشت اكثر من ثلاثة قرون، منذ وفاة سليمان وحتى السبي. وقد حكمها خلال هذه الفترة تسعة عشر ملكاً، شأنها شأن دولة اسرائيل التي حكمها تسعة عشر ملكاً هي الأخرى، ولكن خلال قرنين وحسب، أو هكذا أخرجت الأسفار هذا التماثل في عدد الملوك.

أما صور التي تمردت هي الأخرى، فقد حاصرها نبوخذ نصر طوال ثلاث عشرة سنة. وصمدت للحصار، ولكنها رأت أن تستسلم بعد هذه المدة الطويلة. فما كان إلا أن اذعنت للمحارب القدير، عام ٥٧٢ق. م، فدخلها بالأمان ولم يمسّها بسوء.

توفي نبوخذ نصر (٦٠٥ - ٥٦٢) بعدما حكم ثلاثة واربعين عاماً، فورثه ملوك ضعاف، كان آخرهم نابونيد المولع بالآثار.

والحقيقة أن الهلال الخصيب قد استحال إلى رماد في تلك الآونة، بعد مائتي سنة من التدمير المتواصل، فأصبح شيئاً يمكن أن يناله أي راغب في

الحصـول عليـه . والحقيقـة أن مدن فلسطين على وجه الخصوص قد ظل معظمها خراباً منذ القرن السادس وحتى القرن الثالث (ق.م)، أي زهاء ثلاثمائة سنة أو اكثر.

* * *

مع سقوط اسرائيل ظهر أشعيا، ومع سقوط يهودا ظهر ارميا. وراح الرجلان ينعبـان كالغـربـان ولا يريـان إلا الخـراب القـادم إلى جميع الشعوب ولم يسلم من ويـلاتهـما، لا أرز لبنـان ولا بلوط باشـان (= الجـولان وحـوران)، ولا حتى سفن طرسـوس الـواقعـة في كيليكيـة. «هوذا دمشق تزال من بين المدن». أما المصريون فسـوف يهيـج بعضهم على بعض. وأمـا بابل فمصيرها كمصير سدوم وعمورة، وهما مدينتا قوم لوط.

وبايجاز، إن الأسفار التي ظهرت بين القرن الثامن والسادس لا تعدو كونها مجرد وقوف على الأطلال.

٣ ـ الفرس في فلسطين:

في اواسـط القـرن السادس (ق.م) ظهرت على مسرح التاريخ قوة الفرس الفتية بقيادة كورش، الذي احتل ايران والأناضول، ثم حاصر بابل واحتلها عام ٥٣٨ق.م. وبسقوط بابل أذعن العراق والشام دون أية مقاومة تذكر.

حين كان كورش يحاصـر بابـل راح اليهـود من داخـل المدينة يعملون على اسقـاطهـا. ولهـذا فقـد كافأهم الملك الفارسي بأن سمح لهم بالعودة إلى القدس وبنـاء الهيكـل، بعـدما منحهم الكنوز، التي سبق لنبوخذ نصر أن استولى عليها. والأرجح أن كورش كان يريد أنصاراً له في الشام، حيث الفينيقيون الموالون لمصر التي سوف تظل معادية للفرس حتى مجيء الاسكندر المكدوني.

وهكـذا راح سفـر أشعيـا (٤٥ : ١) ينظـر إلى كورش بوصفـه المسيح الذي أرسله يهوه لانقاذ شعبه المختار.

وعندما توفي هذا الملك، وورثه ابنه قمبيز، اتجه الفرس إلى فتح مصر، عام ٥٢٥ق.م. وقاومت مصر قليلاً، ولكنها سرعان ما سقطت هي الأخرى، فقد سبق لها أن استنزفتها الحروب مع آشور وبابل، كما أن الفرس كانوا قد ورثوا العلوم العسكرية الآشورية وهضموها.

ومات قمبيز لير ثه ضابط حصيف في جيشه يسمى دارا الأول (٥٢١ - ٤٨٦)، الذي يعد مع كورش خير من حكم امبراطورية الفرس الأخمينيين. فهو اداري قدير عرف كيف يوازن بين المحلية والمركزية.

وسمح دارا لليهود بالعودة إلى القدس وبناء الهيكل. ويذكر سفر عزرا أن الذين عادوا قد بلغ عددهم اكثر من اربعين ألفاً بقليل. وكان يتزعمهم الأمير زروبابل، الذي هو من سلالة ملوك يهودا. وبالفعل بني الهيكل عام ٥١٥ق.م، أو هكذا تقول التوراة.

وثارت مصر على الفرس تريد حريتها، وذلك في عهد دارا، أو حصراً عام ٤٨٨ ق.م. ولم تخمد الثورة إلا في عهد أحشويرش (الذي يسميه الاغريق: كزيركسس) الملك الفتاك، الذي اتبع سياسة النفي والتشريد وغمر البلاد المصرية بالفرق العكسرية. وفتكت الفرقة اليهودية في الجيش الفارسي بالمصريين، فتلاشت الثورة.

إلا أن مصر سرعان ما عادت إلى التفجر من جديد عام ٤٦٠ق.م. عندما اعتلى العرش ملك فارسي جديد هو أرتحششتا، شقيق احشويرش، وكلاهما من أبناء دارا الأول. وقاد الثورة العارمة هذه المرة أمير يسمى اناروس، الذي تحالف مع بركليس، زعيم أثينا المشهور. ووصل الاسطول الأثيني إلى مصر، مما جعل الفينيقيين، أعداء الاغريق، ينحازون إلى جانب الفرس. فانتصر ارتحششتا على الثورة، وأسر الامير اناروس وقتل. ولكن ثورة مصر سرعان ما اندلعت من جديد، وظلت تقاوم حتى طردت الفرس وأحرزت الاستقلال، وذلك في أواخر القرن الخامس (ق.م). وحين انتصرت الثورة دوهمت الجالية اليهودية وهدم

معبدها في جزيرة الفيلة (قرب أسوان)، وذلك عقاباً لها على ما أنزلته بالمصريين من ويلات أيام الفرس. فقد تناسوا جميع المساعدات التي قدمتها لهم مصر أيام الآشوريين والبابليين.

حين اشتدت الثورة المصرية في عهد ارتحششتا الأول (٤٦٥ - ٤٢٤)، وبعدما أثبت اليهود جدواهم في مساعدة الفرس ضد المصريين، راح هذا الملك يشجع بقايا المسبيين على الرجوع إلى القدس. ويبدو أن اليهود قد سيطروا على ارتحششتا وقصره بواسطة امرأة تسمى استير. وهكذا عاد فريق يتزعمه نحمياً، ثم عاد فريق آخر تحت قيادة عزرا. وحين أخذ نحميا يبني أسوار القدس تصدى له صنبلاط أمير السامرة. كما تصدى له أمير آخر يسمى جشم العربي.

وعلى أية حال، فقد تشكلت امارة يهودية في القدس، ذات طابع كهنوتي. وبرز عزرا الكاتب في النصف الثاني من القرن الخامس (ق.م)، وعزرا هو المذكور في القرآن: «وقالت اليهود عزير ابن الله». وما كان لعزرا هذا أن يصير ابناً ليهوه إلا لأنه أعاد كتابة التوراة، أو العهد القديم. وفي الحق أن ذلك الكتاب ما أعيدت كتابته إلا ليخدم وضع اليهود ووضع الفرس في ذلك الزمان. فالعهد القديم يسرف، ولا يبخل، في صب اللعنات على بابل ومصر وكنعان وآشور، وجميع خصوم الدولة الفارسية. لقد صار عزرا موظفاً رسمياً في خدمة النظام القائم. وأغلب الظن أن حكاية اضطهاد الفرعون للعبرانيين أيام موسى ليست إلا من اختلاق نحميا وعزرا وسواهما من الكهنة. وقد اختلقت لتفك الارتباط بين اليهود والمصريين، الذين حموا اليهود، أو حاولوا حمايتهم، من الآشوريين والبابليين. وبذلك يصبح اليهود مستعدين لخدمة الدولة الفارسية والعمل معها ضد المصريين الثائرين على الدوام.

وبما أن الكنعانيين حلفاء لمصر فلابد من لعنهم أيضاً. أما بابل فقد ثارت على دارا الأول، وهو من أعيد بناء الهيكل في عصره. ولهذا ينبغي أن تلعن هي الأخرى.

وكان عزرا متطرفاً في نزعته العرقية. فما ان عاد إلى القدس حتى أرغم كل يهودي على أن يطلق زوجته غير اليهودية، إن كانت لديه مثل هذه الزوجة. ولهذا فانك تقرأ في سفر التكوين (٢٤ : ٣) ان ابراهيم لا يريد لابنه زوجة من بنات الكنعانيين، بل ينبغي أن تجيء زوجة ابنه من أرضه وعشيرته. وفي السفر نفسه تجد اسحق يوصي ابنه يعقوب (٢٨ : ١): «لا تأخذ زوجة من بنات كنعان». وتقول رفقة لزوجها اسحق بن ابراهيم (٢٧ : ٤٦): «مللت حياتي من أجل بنات حث. إن كان يعقوب يأخذ زوجة من بنات حث، مثل هؤلاء من بنات الأرض، فلماذا لي حياة؟». والحقيقة أن اسحاق وزوجته قد أغاظهما ولدهما عيسو حين تزوج نساء حثيات.

أغلب الظن أن تحريم الزواج من غير العبرانيات في سفر التكوين، مرده إلى أن عزرا قد حرم مثل هذا الزواج في القرن الخامس (ق.م)، وإلا فلماذا تزوج ابراهيم نفسه من هاجر المصرية؟ والغرض من هذا واضح تماماً. فالشعب المنكوب المشرد سوف يذوب في الشعوب الأخرى، مالم يحافظ على مبدأ الزواج داخل العشيرة.

والشعب المشرد قد يندثر، ما لم يحصل على اقليم يخصه دون سواه. ومن هنا اخترع الكهنة اسطورة «أرض الميعاد». انها الأرض التي وعد يهوه بأن يقطعها لشعبه المختار. وقد اختارها يهوه بنفسه مثلما اختار شعبه بنفسه. ولهذا فلا بديل عن فلسطين.

إن عزرا، ومثله نحميا، موغل في الرجعية والعرقية. ويقيناً إن الصهيونية اليوم تعمل وفقاً لمنهاج هذين الكاتبين اللذين استطاعا أن يحددا الشخصية اليهودية طوال خمسة وعشرين قرناً. ونحميا لا يقل عن عزرا في نزعته العرقية. فالأمير نحميا، الذي حكم القدس حكماً كهنوتياً (٤٤٤ - ٤٣٢ق.م)، قد جلد بالسياط كل رجل متزوج من امرأة ليست عبرانية، ولعنه واقتلع شعره.

هكذا يصان نقاء العرق، أو هكذا تنشأ المتحجرات التاريخية. فالتاريخ كالطبيعة، لا يجهل مثل هذه المتحجرات. ومن أجل تحقيق هذا التحجر، كان لا بد للعهد القديم من أن يخضع للتحوير والتغيير، ومن أن تدس فيه بعض الأخبار الملفقة والأفكار الرامية إلى أغراض محددة.

* * *

ظل الفرس ينظرون إلى مصر بوصفها اقليماً متمرداً من أقاليم الامبراطورية، ولكن لا بد من اخضاعها واعادتها إلى الحظيرة العامة. ففي عام ٣٧٣ق.م. خرجت القوات الفارسية من عكا وشنت هجوماً على مصر. ولكن مصر صدتها على أعقابها بمساعدة مياه النيل التي فاضت على الفرس وأغرقت الكثيرين منهم. ولكن حدث في عام ٣٦٠ق.م. أن خرج الفرعون، مدعوماً بألف جندي اسبارطي، إلى فلسطين بغية استعادتها من الفرس. ولكنه أخفق في هذه الحملة فعاد أدراجه إلى وطنه مهزوماً.

وحين وصل ارتحششتا الثالث، ولقبه اوخوس عند اليونانيين، إلى عرش الامبراطورية عام ٣٥٨ق.م. أخذت المدن الفينيقية تتحد وتفكر بالثورة. وجعل الفينيقيون من مدينة طرابلس مركزاً لتحالفهم. وجيّش أوخوس وهاجم فينيقيا. وتصدت له صيدا ببسالة، فحاصرها حصاراً شديداً. ووقفت مصر إلى جانب صيدا. ولكن تنيس، ملك المدينة المحاصرة، قد خان شعبه وسلم صيدا للفرس وهرب، عندما رأى ضخامة جيوشهم. ومع ذلك فان أهل صيدا أبوا أن يستسلموا، فأحرقوا سفنهم، ودخلوا بيوتهم وأضرموا النار فيها. انه حادث انتحار جماعي نادر في التاريخ. وهكذا احترق أربعون ألف انسان. أما الذين لم تلتهمهم النار فقد سباهم اوخوس إلى بابل، عام ٣٥٠ق.م.

وبعد ذلك بسبع سنوات قام اوخوس بحملة على مصر، فطرد آخر فرعون في التاريخ، وهو نخت حارحبي، الذي هرب إلى الحبشة، وخسرت مصر استقلالها.

ولكن اوخوس لم ينعم طويلاً بهذا النصر، فقد دس له وزيره باجواس السم، ثم عيّن ابنه ارسيس بدلاً منه. وأقدم باجواس على جريمة أخرى حين دس السم لأرسيس الصغير السن، ورفع إلى العرش رجلاً آخر تحت اسم دارا الثالث. ولكن دارا، الذي يعرف باجواس جيداً، قد بادر الوزير بالضربة، فدس له السم وتخلص منه، قبل أن يقدم على جريمة ثالثة. وهذا يعني أن الدولة الفارسية قد كانت في حالة تضعضع مريع يوم غزاها الاسكندر المكدوني. فهي لا تحتاج إلى ابن اله للاستيلاء عليها. فالثورات تشمل جميع اجزائها، والدسائس في القصر تفتك بالسلطة المركزية.

الفصل الخامس

ثلاثة شعوب من الغرب

١ ـ المكدونيون يجتاحون فلسطين :

يقيناً ما كان الاسكندر المكدوني إلا حركة في فراغ . ومع أنه لم يحرز انتصاراته على دارا الثالث بغير مقاومة تثار في وجهه ، فإن اعداءه داخل الامبراطورية الفارسية قد كانوا أقل من حلفائه واصدقائه . هذا فضلاً عن أن تلك الامبراطورية التي احتلها الاسكندر قد كانت أشبه بثوب مهترىء . ففي الحق أنها انهكت بالحروب والثورات والمؤامرات والدسائس ، واستنزفت حتى باتت شديدة الصفرة والضعف .

أما لماذا صار الإسكندر أعظم فاتح في التاريخ ، فذلك شأن آخر . فجميع المعلومات التي بين أيدي المؤرخين عن الاسكندر ليس لها سوى مصدرين اثنين . أما الأول فهو السجل الرسمي للحملة ، وهو سجل كان يشرف عليه الاسكندر بنفسه . وأما الثاني فهو مذكرات القائد بطليموس الذي رافق الاسكندر طوال حملته ، والذي ورث مصر بعد وفاة الملك وفضلاً عن ذلك فان السياسة في تلك

العصـــور قد فرضت الاسكنـــدر الهـــاً على المعـابـد والهياكل في جميـع أرجـاء الامبراطورية، ولا سيما في مصر وبابل. وهكذا انتقل الرجل من قطاع الواقع إلى أفق الاسطورة.

وأهم ما في أمر الاسكندر أن أقدم مصادرنا عنه تقدمه تقديماً متناقضاً. فهو ابن اله، من جهة، أو قل فاتح عظيم وشخصية فذة نادرة، ولكنه معتوه، من جهة أخـرى، وشـديد الميل إلى التهتك والمجون. ولست تملك أن تعرف أي الصفتين هي صفته الحقيقية.

أمـا المؤرخـون الأوروبيـون المحـدثـون، وجلهم عرقيون متعصبون، فقد أسـرفـوا في كيل المدائح للأسكندر، قاهر الشرق والآسويين. وغاب عن بالهم أن ابن فيليب المكـدوني لم يستـول إلا على جيفـة منتنـة أكلهـا الـزمن بعـدما أنهكها واستنزف قواها. والدليل على ذلك أن المكدونيين قد بنوا في الشرق مئات المدن، مما يتضمن أن مدن الشطر الغربي من آسيا قد كانت مدمرة بالفعل.

* * *

وعلى أيـة حال، فقـد عبر الاسكندر الدردنيل عام ٣٣٤ ق.م. واشتبك مع الفـرس، ومـع حلفـائهم اليـونـانيـين في اكثـر من معركة. وكان النصر دوماً لابن فيليب. ووصل أخيراً إلى صور التي قاومته مقاومة باسلة طوال سبعة أشهر. ولولا ضخـامـة حلفـائـه ما كان له أن يحتـل صور قط. فلقـد تحالف مع جبيـل وصيدا وقبرص والسامرة ضد صور. ومع ذلك صمدت صور. وفجأة ظهر اسطول رودس المؤلف من مائـة وعشـرين سفينـة. وهـذا الاسطـول هو الذي جسم معركة صور لصـالـح الاسكنـدر. ففتـح المـدينـة وفتـك بالسكان. وباع ثلاثين ألفاً في أسواق الرقيق. وذلك عام ٣٣٢ق.م.

والغـريب أن لا تتعـظ غزة بمصير صور. فقد صمد العرب في تلك المدينة صموداً نادراً، وكان يقودهم خصي اغريقي يسمى باتيس. واستمر القتال شهرين حول أسوار غزة، وقيل أربعة شهور. وانتصر الاسكندر وفتح المدينة، وقبض على

باتيس. وغرز المسامير في قدميه، ثم قتله. وبعد ذلك ربط جثة باتيس بعربته وطاف بها حول أسوار غزة، وذلك اقتداء منه باخيل بطل الالياده، الذي كان الاسكندر معجباً به ويرى فيه جده من جهة امه، المرأة الغريبة الأطوار.

ونهب بضائع العرب في غزة، ولاسيما العطور والبخور ووزعها على أعوانه ورجال دولته. فلقد كانت غزة مركزاً كبيراً لتجارة العرب القادمة من اليمن إلى خليج العقبة، ثم إلى غزة فأقطار البحر المتوسط، ولا سيما مصر.

ثم اتجه الاسكندر إلى وادي النيل يرافقه طبيب مصري وطني النزعة. والحقيقة أن الثورة كانت لا تزال عارمة في الدلتا. وهذا يعني أن مصر قد استنجدت بالاسكندر على الفرس الذين استسلموا فوراً ورضخوا للقوة الجديدة. وبذلك يترسخ لدى المرء اعتقاد فحواه أن حلفاء الاسكندر داخل الامبراطورية الفارسية كانوا اكثر من أعدائه. وبفضل هؤلاء الحلفاء أحرز الاسكندر انتصاره الخاطف على امبراطورية تمتد من وادي النيل غرباً إلى وادي نهر السند في باكستان الحالية.

ولكن الاسكندر مات في بابل، في قصر نبوخذ نصر، عام ٣٢٣ق.م. وتطاحن ورثته على مملكته. وأبيدت عائلة الاسكندر كلها. واقتسم كبار الضباط البلدان المفتوحة. وتشكلت اربع ممالك كبرى، يهمنا منها اثنتان: مملكة بطليموس، وعاصمتها الاسكندرية، ومكلة سلوقس، وعاصمتها انطاكية. وكانت فلسطين كلها من حصة بطليموس.

وعندما تسلم انطيوخوس الثالث عرش انطاكية (٢٢٣ ـ ١٨٧)، حاول أن ينتزع فلسطين من البطالمة. فاشتبك معهم في معركة قرب رفح عام ٢١٧ق.م. ولكن الدائرة قد دارت عليه فانسحب إلى حدوده الأصلية. ولكنه عاود الكرة مرة أخرى، واشتبك مع البطالمة في معركة حاسمة قرب بانياس، عند منابع نهر الاردن. وانتصر انطيوخوس (١٩٨) ق.م، وضم فلسطين كلها إلى مملكته. وستبقى ضمن تلك المملكة حتى زوالها على أيدي الرومان، الذين انتصروا على

انطيـوخس الثالث نفسه في معركة مغنيزيا عام ١٨٨ ق.م، والذين أخذوا يتدخلون في شؤون انطاكية الداخلية، كما راحوا يحمون مصر من أي اجتياح سلوقي.

* * *

في القرن الثاني (ق.م)، كانت الحضارة اليونانية قد غمرت معظم البلدان التي احتلها المكدونيون. وهذا شأن لم يَرُقْ لبعض المتزمتين من اليهود.

ففي عهـد انطيـوخس الـرابع (١٧٥ - ١٦٤)، ملك أنطاكية، الذي لقب نفسـه ابيفـانـوس، او الالـه المتجلي، راحت فئتان من اليهود تقتتلان داخل أسوار القـدس، عام (١٧٠) ق.م. وكـان انطيوخـس عائداً من غزوته الفاشلة لمصر، فعـرّج على القـدس ودخـل الهيكـل ووجد فيه كمية كبيرة من الذهب، فاستولى عليها، وتابع سيره إلى بلاده بعدما قمع الفتنة وأنهاها.

وبعـد ذلـك بسنتـين أرسـل الملك جيشاً إلى القدس، فدخل المدينة وأخذ يضطهد اليهود ويفرض عليهم عبادة الملك، ويرغمهم على عدم الاختتان، وكل من اختتن.قتـل فهب كاهن يسمى متاثيـا، واعلن العصيـان على الملك. وهرب إلى الجبال وتبعه بعض اليهود الذين أخذوا يمارسون حرب العصابات.

وكـان متـاثيـا، وهـو من اسرة تسمى الأسرة الهشمونية، او المكابية، رجلاً طاعنـاً في السن، فمات بعـد سنتـين من بدء حركته. وورثه ابنه يهودا، الذي تابع حرب العصابات ضد السلوقيين. ويغالي سفر المكابيين، على عادة أسفار العهد القديم، بعدد الجنود السلوقيين الذين هزمهم يهودا. وعلى أية حال، فان الأسرة المكابية استطاعت أن تحتل القدس، عام ١٦٥ق.م، أي بعد ثلاث سنوات من اعلان التمرد.

وفي عهد الملك ديمتريوس الأول، أرسلت أنطاكية جيشاً إلى القدس سنة ١٦١، حاصرها وقاتل يهودا وقتله وشتت جيشه. وسيطر القائد السلوقي بكاديس على القدس واضطهد اليهود أيما اضطهاد. ولكن يوناثان، شقيق يهودا، قد جمع

جيشاً جديداً وراح يقاتل السلوقيين الذين انسحبوا إلى انطاكية عام ١٥٨، بعد أن سئموا من حرب العصابات. فاستراح اليهود في القدس فترة طويلة.

ثم استدعي يوناثان إلى انطاكية. وهناك غدر به السلوقيون وقتلوه عام ١٤٣.

ولكن سمعان، شقيق يوناثان ويهودا، راح يجمع القوات المكابية، ليشن الغارة على برج في القدس يسيطر عليه السلوقيون. واستطاع أن يدك البرج، وأن يعلن استقلال اليهود عن الدولة السلوقية، وأن يعقد حلفاً مع روما واسبارطة.

واغتيل سمعان بيد صهره، أمير أريحا، فورثه ابنه هركان الأول، سنة ١٣٥ق.م، فحكم هذا الابن زهاء ثلاثين سنة. وحارب جميع الذين اصطبغوا بالصبغة اليونانية، أكانوا من اليهود أم من الوثنيين. كما حارب طائفة السامريين وهدم مدينتهم، السامرة، ومعبدها. وهذه الطائفة لا تؤمن الا بالأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم. ولا زالت بقاياها في نابلس حتى اليوم.

ولكن انطيوخس السابع حشد جيشاً كبيراً وحاصر القدس. وفي أثناء الحصار استطاع الطرفان أن يتوصلا إلى تسوية ترضيهما معاً وتوقف النزاع. وخلاصتها أن يصبح هركان من أتباع الملك، وأن يؤدي له قسطاً من المال. فرفع السلوقيون الحصار وعادوا إلى انطاكية عام ١٣٣ق.م.

وحدث بعد ذلك بخمس سنوات أن راح انطيوخوس يهاجم الفرثيين. وذهب هركان مع انطيوخوس، ولكن جيش السلوقيين مني بهزيمة فادحة. فعاد هركان إلى القدس واعلن استقلاله عن انطاكية، مستغلاً الهزيمة التي حلت بها. ثم أخذ يوسع حدود مملكته، فشملت أدوم، وأجبر الأدوميين على التهود، زهاء عام ١٢٥ق.م. وبذلك استمدت الحركة المكابية دماء جديدة طازجة أتتها من الصحراء المشهورة بتخريج أصلب الرجال.

ومات هركان ليرثه ابنه ارسطوبولس وليحكم سنتين أو ثلاث، ولكنه توج نفسه ملكاً على اليهود خلال هذه الفترة.

ومات ارسطوبولس حزناً على أخيه الذي أمر بقتله، فورثه أخ آخر يسمى اسكندر جناديوس (١٠٣ - ٧٦ق.م)، الذي كان بمثابة لعنة صبت على أهل فلسطين جميعاً.

ففي عهده بلغت الدولة المكابية اوسع مساحة لها، إذ مد نفوذه حتى شمل الجليل الذي كان مأهولاً بقوم يسمون الايتوريين، وهم من فرض عليهم جناديوس أن يختاروا بين التهود وبين الطرد من البلاد. وكان الايتوريون قد بنوا دولة لهم مركزها خالكيس (عنجر) في سهل البقاع. كما كانوا يتكلمون الآرامية ويحملون ثقافتها.

آثر بعض الايتوريين أن يرحلوا عن الجليل اشمئزازاً من التهود. أما غالبيتهم العظمى فقد اختتنت وبقيت في مكانها. ولا ريب في أن هؤلاء الناس قد اسهموا اسهاماً فعالاً في نقل الثقافة الآرامية الرفيعة المستوى إلى الجليل، موطن السيد المسيح. وهذا هو ما يفسّر الفرق الجوهري بين النصرانية واليهودية.

وعلى أية حال فقد ظل الجليل يسمى «جليل الأمم»، أو هكذا وصف في الأناجيل بعد جناديوس بأكثر من مائة سنة. وبما أن سكان الجليل متهودون، وليسوا يهوداً أصليين، فقد ظل الأحبار ينظرون اليهم نظرة مواطنين من الدرجة الثانية. ولذلك قالوا يوم ظهر السيد المسيح: «أمن الناصرة يجيء شيء حسن؟». والحقيقة أن سكان الجليل لم يتكلموا اللغة العبرية إلا بلكنة ورطانة. والجدير بالذكر أنها لم تعد لغة الشارع قط، بل هي انحصرت في دور العبادة وحسب.

بعدما انتهى جناديوس من أمر الجليل، أخذ يشن الغارات على الساحل من صور إلى غزة. وراح يخيّر الناس بين التهود أو الموت. فاستنجدت المدن الفلسطينية بملك قبرص، لا تروس، فانجدها وفتك باليهود فتكاً ذريعاً. فما كان من هؤلاء الا أن استنجدوا بمصر فأنجدتهم، إذ لم تسمح مصر بأي تدخل أجنبي عند حدودها.

وهكذا استولى جناديوس على بعض المدن الساحلية، وعمل على

اضطهاد سكانها على نحو همجي. بل لقد فتك بأعدائه من اليهود وقتل منهم أعداداً كبيرة.

وحاول جناديوس، أن ينشر اليهودية بين الأنباط، المتخذين من البتراء عاصمة لهم، فما كان من ملكهم الحارث الثاني (١١٠ - ٩٦)ق.م. إلا أن أنجد غزة في محنتها. ولكن جناديوس عرف كيف يسترضي الأنباط ويخرجهم من فلسطين بالموادعة، ليلتهم غزة وبقية الساحل، الذي شمله الخراب كله باستثناء مدينة عسقلان. أما غزة فقد جعلها اسكندر جناديوس المكابي، المصاب بهوس ديني مزمن، أثراً بعد عين.

ولكن جناديوس هذا قتل وهو يحاصر أحد الحصون عام ٧٦ق.م، وقيل مات بالحمى التي انهكته طوال السنوات الأخيرة من عمره. وورثه ولداه، هركان الموالي لحزب الفريسيين، وارسطوبولس الموالي لحزب الصدوقيين. وسرعان ما دار الصراع بين الطرفين. واستنجد هركان بالحارث الثالث ملك ادوم، وهو من سبق له أن بسط نفوذه على دمشق بعدما طرد منها السلوقيين الذين كانوا مكروهين من شعب دمشق. ولبى الحارث الدعوة وضرب الحصار على القدس. فاستنجد ارسطو بولس بالرومان حين دخلوا سوريا عام ٦٤ق.م. واذعن الحارث للإنذار الروماني، ففك الحصار وعاد إلى البتراء.

* * *

تدهور وضع الدولة السلوقية إلى حد بعيد مع بداية القرن الأول (ق.م) فتفتت إلى دويلات صغيرة، منها دويلة للعرب في حمص، ودويلة أخرى في الجزيرة. هذا فضلاً عن دولة الأنباط التي شملت دمشق، ودولة الايتوريين الذين راحوا يشنون الغارات على الساحل اللبناني. وقد سبق للفرثيين أن هيمنوا على جميع الأراضي الواقعة إلى الشرق من الفرات منذ القرن الثاني (ق.م).

وتحرك ملك أرمينية، تيغرانس، واحتل سواحل الشام حتى عكا، عام ٦٩ق.م، ولكنه سرعان ما انسحب منها حين اعلنت روما الحرب على أرمينية.

وبعد أن تمكن قائد روماني مشهور يسمى بومبي من الحاق الهزيمة بالأرمن، فقد زحف على بلاد الشام واحتلها وضمها إلى الامبراطورية الرومانية، عام ٦٤ق.م، وبذلك خلصها من تدهور اوضاعها وفساد امورها.

٢ ـ فلسطين في العصر الروماني:

عندما كان بومبي في دمشق عام ٦٤ق.م. وفد اليه الأخوان المتنازعان من أجل وراثة العرش المكابي، هركان وارسطوبولس، وطلبا اليه أن يفض الخلاف بينهما. واقترح عليهما القائد الروماني أن يؤجلا حل هذا الخلاف، ريثما يتمكن من الحاق الهزيمة بالحارث الثالث، الذي سماه ملك العرب.

وكان ارسطوبولس يرى في بومبي حليفاً له، وظن أنه سوف يحسم الأمر لصالحه. ولكن الروماني خيّب آمال أرسطوبولس، فما كان من هذا الأخير إلا أن عاد إلى القدس وتحصن خلف أسوارها. وعند ذاك توجه بومبي إلى القدس (٦٣ق.م)، وفتحها بسهولة، وعزل ارسطوبولس، وعين هركان ملكاً. وتمرد اسكندر بن ارسطوبولس على الرومان، ولكنهم هزموه وقضوا على حركته.

وظهر على المسرح رجل يسمى انتيباتر الادومي، وهو رجل كان قد تهود في أيام جناديوس. وأخذ يمالىء الرومان، حتى إذا رأى كفة يوليوس قيصر قد رجحت على كفة بومبي في الحرب الأهلية، انحاز إلى قيصر، وناصره في حربه ضد البطالمة في الاسكندرية. فولاه قيصر عرش اليهود، أومنصب الحاكم في القدس، عام ٤٨ ق.م. وراح يجمع الضرائب الباهظة من اليهود ويقدمها للرومان. فثار عليه اليهود وقتلوه.

وورثه ابنه هيرودس الذي تزوج ابنة ارسطوبولس ليصبح حكمه للبلاد شرعياً. وسار على نمط أبيه فتملق الرومان كثيراً مقابل تثبيته على العرش.

حين قسمت الامبراطورية الرومانية إلى ثلاثة أقسام بعد الثأر من قتلة قيصر، كان الشرق من نصيب انطونيوس، عشيق كليوباترة المشهور. فحكم تسع

سنوات (٤٠ ـ ٣١)ق.م، بدأها بمواجهة غزوة كبرى شنها الفرثيون على بلاد الشام (٤٠ ـ ٣٨) وطردوا الرومان منها. وحين وصلوا إلى فلسطين هرب هيرودس إلى روما ليستنجد باوغسطس قيصر. فأمده هذا بجيش كبير قضى به على جميع مناوئيه من اليهود. أما الحملة الفرثية فقد تصدى لها انطونيوس ودحرها.

وحين نشب الصراع بين انطونيوس واوغسطس قيصر (اوكتافيان)، انحاز هيرودس إلى القوة التي أرغمت انطونيوس على الانتحار بعد معركة اكتيوم البحرية، عام ٣١ق.م. وهكذا ترسخ هيرودس المتملق في الحكم، ودام عهده حتى مضي سنة واحدة على ميلاد السيد المسيح.

أقام هيرودس الكثير من المباني في القدس، وأعاد بناء الهيكل، كما وسع مدينة السامرة وسماها سبسطية، وهي كلمة يونانية تعني باللاتينية اوغسطس، أي الموقر أو المبجل، وهذا هو اللقب الذي اتخذه اكتافيان حين أصبح الامبراطور الوحيد في روما عام ٣١ق.م. كما بنى مدينة أخرى على الساحل بين حيفا ويافا، وسماها قيسارية، أو قيصيرية، نسبة إلى قيصر.

وقد تزوج هيرودس بضع نساء، كان الذبح نصيب بعضهن، شأنهن في ذلك شأن اربعة من أبنائه. وفي الحقيقة أنه كان ملكاً فاسداً وجباراً عاتياً ومتملقاً للرومان، بل انه ما كان الا حارساً أميناً للمصالح الرومانية في فلسطين. ومن الغرائب حقاً أن يكون رجل مثل نقولا الدمشقي، المؤرخ والفيلسوف، قد رضي بأن يعيش في كنف طاغية من هذا النوع.

وعندما توفي هيرودس الكبير هذا، اختلف اولاده على الحكم. فتدخل الرومان، وعينوا ابنه أرخيلاوس حاكماً على القدس، وضموا اليه الشطر الأكبر من أراضي فلسطين. أما ابنه الثاني، هيرودس أنتيباس، فأصبح والياً على

الجليل، بينما تسلم ابنه الثالث منصب الحاكم في ولاية الجولان وحوران.

وأخذ هيرودس أنتيباس، حاكم الجليل يتملق الامبراطور الجديد، تيبير يوس، الذي أصبح امبراطوراً بعد وفاة اوغسطس عام ١٤م. فبنى هيرودوس مدينة على الشاطىء الغربي لبحر الجليل وسماها طبرية، وذلك ليداهن تيبير يوس، امبراطور الرومان. ولا ريب في أنه ورث هذه المداهنة عن أبيه الماهر في النفاق.

وخطر في باله ذات يوم أن يطلق زوجته، وهي ابنة الحارث الرابع، ملك الأنباط، فما كان من هذا الملك إلا أن اعلن الحرب على هيرودس وانتصر عليه اكثر من مرة.

وحين طلق ابنة الحارث كان في نيته أن يتزوج من هيروديا، وهي ابنة أخيه ارسطوبولس، ومطلقة أخيه فيليب. فعارضه يوحنا المعمدان، المذكور في القرآن باسم النبي يحيى، والمدفون داخل الجامع الأموي في دمشق. وقد لقّب بالمعمدان لأنه عمّد السيد المسيح بمياه نهر الأردن. وحين حرّم يوحنا الزواج من ابنة الأخ، اعتقله هيرودس وزجه في السجن. ويروي الاصحاح السادس من انجيل مرقص أن هيرودس قد عمل احتفالاً دعا اليه اكابر دولته وجميع وجهاء الجليل. وفي أثناء الاحتفال رقصت سالومه، وهي ابنة هيروديا، رقصاً ممتازاً، فأعجب بها عمها هيرودس، وقال لها أن تطلب ما تشاء ليكون مكافأة لها على رقصها النادر. وأقسم لها أن يلبي طلبها حتى لو كان نصف مملكته. ولم تكن الفتاة تعرف ما تطلب، فذهبت إلى أمها هيروديا وسألتها أن تحدد لها نوع المكافأة. فقالت الأم: اطلبي رأس يوحنا. ثم عادت الفتاة إلى هيرودس، وقالت له: أريد رأس يوحنا. فأرسل حاكم الجليل جنوداً إلى السجن وقطعوا رأس النبي وأتوا به على طبق وقدموه لسالومه.

سنوات (٤٠ ـ ٣١)ق. م، بدأها بمواجهة غزوة كبرى شنها الفرثيون على بلاد الشام (٤٠ ـ ٣٨) وطردوا الرومان منها. وحين وصلوا إلى فلسطين هرب هيرودس إلى روما ليستنجد باوغسطس قيصر. فأمده هذا بجيش كبير قضى به على جميع مناوئيه من اليهود. أما الحملة الفرثية فقد تصدى لها انطونيوس ودحرها.

وحين نشب الصراع بين انطونيوس واوغسطس قيصر (اوكتافيان)، انحاز هيرودس إلى القوة التي أرغمت انطونيوس على الانتحار بعد معركة اكتيوم البحرية، عام ٣١ق. م. وهكذا ترسخ هيرودس المتملق في الحكم، ودام عهده حتى مضي سنة واحدة على ميلاد السيد المسيح.

أقام هيرودس الكثير من المباني في القدس، وأعاد بناء الهيكل، كما وسع مدينة السامرة وسماها سبسطية، وهي كلمة يونانية تعني باللاتينية اوغسطس، أي الموقر أو المبجل، وهذا هو اللقب الذي اتخذه اكتافيان حين أصبح الامبراطور الوحيد في روما عام ٣١ق. م. كما بنى مدينة أخرى على الساحل بين حيفا ويافا، وسماها قيسارية، أو قيصرية، نسبة إلى قيصر.

وقد تزوج هيرودس بضع نساء، كان الذبح نصيب بعضهن، شأنهن في ذلك شأن اربعة من أبنائه. وفي الحقيقة أنه كان ملكاً فاسداً وجباراً عاتياً ومتملقاً للرومان، بل انه ما كان الا حارساً أميناً للمصالح الرومانية في فلسطين. ومن الغرائب حقاً أن يكون رجل مثل نقولا الدمشقي، المؤرخ والفيلسوف، قد رضي بأن يعيش في كنف طاغية من هذا النوع.

وعندما توفي هيرودس الكبير هذا، اختلف اولاده على الحكم. فتدخل الرومان، وعينوا ابنه أرخيلاوس حاكماً على القدس، وضموا اليه الشطر الأكبر من أراضي فلسطين. أما ابنه الثاني، هيرودس أنتيباس، فأصبح والياً على

الجليل، بينما تسلم ابنه الثالث منصب الحاكم في ولاية الجولان وحوران.

وأخذ هيرودس أنتيباس، حاكم الجليل يتملق الامبراطور الجديد، تيبير يوس، الذي أصبح امبراطوراً بعد وفاة اوغسطس عام ١٤م. فبنى هيرودوس مدينة على الشاطىء الغربي لبحر الجليل وسماها طبرية، وذلك ليداهن تيبير يوس، امبراطور الرومان. ولا ريب في أنه ورث هذه المداهنة عن أبيه الماهر في النفاق.

وخطر في باله ذات يوم أن يطلق زوجته، وهي ابنة الحارث الرابع، ملك الأنباط، فما كان من هذا الملك إلا أن اعلن الحرب على هيرودس وانتصر عليه اكثر من مرة.

وحين طلق ابنة الحارث كان في نيته أن يتزوج من هيروديا، وهي ابنة أخيه ارسطوبولس، ومطلقة أخيه فيليب. فعارضه يوحنا المعمدان، المذكور في القرآن باسم النبي يحيى، والمدفون داخل الجامع الأموي في دمشق. وقد لقّب بالمعمدان لأنه عمّد السيد المسيح بمياه نهر الأردن. وحين حرّم يوحنا الزواج من ابنة الأخ، اعتقله هيرودس وزجه في السجن. ويروي الاصحاح السادس من انجيل مرقص أن هيرودس قد عمل احتفالاً دعا اليه اكابر دولته وجميع وجهاء الجليل. وفي أثناء الاحتفال رقصت سالومه، وهي ابنة هيروديا، رقصاً ممتازاً، فأعجب بها عمها هيرودس، وقال لها أن تطلب ما تشاء ليكون مكافأة لها على رقصها النادر. وأقسم لها أن يلبي طلبها حتى لو كان نصف مملكته. ولم تكن الفتاة تعرف ما تطلب، فذهبت إلى أمها هيروديا وسألتها أن تحدد لها نوع المكافأة. فقالت الأم: اطلبي رأس يوحنا. ثم عادت الفتاة إلى هيرودس، وقالت له: أريد رأس يوحنا. فأرسل حاكم الجليل جنوداً إلى السجن وقطعوا رأس النبي وأتوا به على طبق وقدموه لسالومه.

وتسارع التدهور في فلسطين، فما كان من الرومان إلا أن خلعوا متلاوس، عام ٦م، ثم عمدوا بعد ذلك إلى تعيين الولاة على القدس. وكان بيلاطس البنطي خامس وآل روماني فيها. وأثناء عهده تم اعتقال السيد المسيح.

* * *

وتمرد اليهود عام ٦٦ق.م. في عهد نيرون، امبراطور روما، الذي كان اول امبراطور يفتك بالمسيحيين. فأرسل إلى فلسطين قائداً فذاً هو فسباسيان، فقاتل المتمردين وانتصر عليهم في عدة مواضع، وأخضع حصونهم المنتشرة في الجبال، دون أن يواجه من المقاومة إلا الشيء الطفيف. وأمعن فسباسيان في تدمير المدن المتمردة. وكانت مدينة يافا واحدة من تلك المدن التي لحق بها خراب عظيم، وذلك بسبب من كونها معقلاً للقراصنة اليهود، إذ هي تحتوي يومذاك على حي يهودي كان دوماً يثير الشغب، ويسبب المتاعب للسلطة الرومانية. وقد سبق للرومان أن فتكوا بأهل هذا الحي في زمن غالوس، الوالي الروماني على سوريا.

وتوفي نيرون عام ٦٨م، ورفع فسباسيان إلى العرش، فغادر فلسطين وعاد إلى روما، بعد أن اوكل مهمة القضاء على تمرد اليهود إلى ابنه تيتوس، الذي حاصر القدس زهاء خمسة أشهر، وفتحها عام ٧٠م.

وقد اشترك المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسفوس في هذا الشغب، وأسر وأخذ إلى روما، حيث تفرغ لكتابة التاريخ. وقد ترك لنا وصفاً مفصلاً لهذه الحرب بين ثنايا الكتابات التي انتجها. وخلاصة ما قاله أن تيتوس قد هدم القدس، وخاصة الهيكل، الذي ما عاد الناس يعرفون مكانه بعد تلك السنة. وزعم يوسفوس أن عدد الذين ماتوا في هذه الحرب قد بلغ مليون نسمة. وهذا رقم خرافي قطعاً.

ومن أهم ما ذكره يوسفوس أن التمرد قد كان له ثلاثة قادة، كل واحد منهم على رأس عصابة خاصة به. وهو يسميهم الخوارج أو العصاة، ويذكر أن كل واحد منهم قد كان يقاتل الاثنين الآخرين. وكانت نتيجتهم أن واحداً منهم قد استسلم فنال الأمان من تيتوس، وانتحر واحد آخر، أما الثالث فأسر وسيق إلى روما، ومعه آلاف الأسرى.

وقد استطاع بعض اليهود أن يفروا إلى الساحل ملتجئين إلى قرية تسمى يبنه، تقع بالقرب من مدينة حيفا. ولكنهم رحلوا بعد ذلك إلى طبرية واستقروا فيها، وصارت من أهم تجمعاتهم في فلسطين. كما أن الرومان سرعان ما أعادوا بناء القدس من جديد. الحقيقة ان وجود اليهود في فلسطين قد ظل كثيفاً على الرغم من المجزرة التي أنزلها بهم تيتوس. أما خارج فلسطين فقد كان لليهود وجود غزير في الكثير من المواضع، وطوال القرون الثلاثة السابقة على الميلاد. وكانت بابل وانطاكية ودمشق والاسكندريةوروما هي أهم معاقلهم في ذلك الوقت.

* * *

حين قرر الامبراطور الروماني هادريان أن يجبر اليهود على الالتزام بعبادة الآلهة الرسمية، ما كان من هؤلاء المتشبثين بشريعة موسى إلا أن اعلنوا التمرد عام ١٣٢م، بقيادة رجل يسمى باركوكبا، او ابن الكوكب. ولكن هادريان فتك بالمتمردين، وقبض على باركوكبا وقتله. ثم دمر القدس تدميراً نهائياً وأقام مكانها مستعمرة للجنود الرومان، سماها ايليا، أي وفقاً لأسمه الشخصي.

وقد بالغ المؤرخون مرة ثانية حين ذكروا عدد القتلى من اليهود في هذه النوبة التي استمرت حتى عام ١٣٥م. فقد ادعوا أن اكثر من نصف مليون يهودي قد قتلوا، وأن الرومان قد دمروا زهاء ألف قرية.

وأهم ما في الأمـر أن هادريـان قد اتخـذ قراراً بمنـع اليهـود من السكنى في ايليا، ومن ممارسة طقوسهم الدينية الخاصة.

وتـوفي هادريـان، وورثـه انطـونـين التقي، عام ١٣٨م، وكـان رجلاً نزيهاً متسـاهـلاً ورحيـماً، فأعـاد لليهـود حق ممارسـة شعـائـرهم الدينية وفقاً لمقتضيات شريعتهم. وبذلك شكلوا مجلسهم الروحي الأعلى، الذي، يسمونه السنهدرين، وجعلوا مركـزه في قريـة الجش، الـواقعـة إلى الغـرب من صفـد، قرب الحـدود اللبنـانيـة. وكف اليهود عن أي نشاط سياسي أو حربي بعد هذا العهد، واهتموا بالتجارة والدين. وألفوا كتاباً مشهوراً يسمى التلمود. كما ألفوا كتباً دينية أخرى.

* * *

ازدهرت فلسطين كثيراً في المائة السنة الأولى من العصر الروماني. وقد بلغ عدد سكانها زهاء مليونين، في أيام السيد المسيح، وفقاً لبعض التقديرات، وأعاد

الرومان بناء المدن التي هدمها المكابيون، ولا سيما السامرة وبيسان وغزة.

وتحسنت الحيـاة الاقتصـاديـة في فلسطين مع حلول السلام بين عام ٣١ق.م، وعـام ١٠٠م. وصـارت المـراجـع التـاريخيـة تتحـدث عن بصـل عسقـلان وفطر القـدس، وكـذلـك عن النحاس في أريحا وعند منابع نهر الأردن. واشتهرت مدينة عكـا بصيـد السمـك وتجـارتـه الـرابحـة. كما اشتهـرت غزة بتخـريـج نخبـة من الموسيقيين الممتازين. أما عسقلان فازدهر فيها فن المصارعة، وهي رياضة قديمة تعـود إلى ايّـام الـدولـة الفـرعونية الوسطى. وأما يافا فكانت سيئة الصيت، لأنها معقل للصوص القراصنة.

وكـان فسبـاسيـان قد هدم نابلس وحـاصـر المتمردين في جبل جرزيم وقتل منهم اكثر من عشرة آلاف رجل. ولكنه أمر باعادة بنائها. وبدلاً من أن تحمل اسم

شكيم، كما في العهود القديمة، فقد صارت تدعى نيابوليس، أو المدينة الجديدة. وهو اسم خضع للتحريف فيما بعد، فصار اسمها نابلس.

وقد ازدهرت مدينة بيسان أيما ازدهار في العصر الروماني، ودخلت في الديكابوليس (= المدن العشر) التي كانت تؤلف اتحاداً اقتصادياً فيما بينها. ومن أبرز من انجبتهم بيسان فيلسوف رواقي يسمى باسيل الأصغر. وقد استطاع هذا الفيلسوف أن يصير معلماً للإمبراطور الروماني ماركوس اوريليوس، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي معتنقاً للمبادىء الرواقية التي تنادي بالاخاء البشري وبجعل الدولة أداة في خدمة الشعب.

٣ ـ فلسطين والامبراطورية البيزنطية:

أخذت المسيحية منذ أواسط القرن الثالث تنتشر انتشاراً لم تألفه من قبل. ولكن الامبراطور دقلد يانوس عمد إلى اضطهاد المسيحيين على نحو فظيع، حتى لقد اطلق على عصره اسم عصر الشهداء، وذلك حوالي عام ٣٠٠م. ولكن الأمور تغيرت تغيراً جذرياً حين تسلم الامبراطور قسطنطين حكم

الامبراطورية. فقد أصدر هذا الامبراطور مرسوماً سمي مرسوم ميلانو، عام ٣١٢، ليعترف رسمياً بأن الديانة المسيحية هي واحدة من الديانات التي تسمح الدولة للمواطنين باعتناقها.

وكانت القديسة هيلانة، والدة قسطنطين، امرأة مسيحية شديدة التقوى، فسافرت إلى القدس، وبحثت عن الصليب الحقيقي، واعلنت أنها وجدته. ويبدو أنها قد ضغطت على ابنها الامبراطور، المتسامح مع المسيحيين، فبنى في

القدس كنيسة عظيمة سميت كنيسة القيامة، وهي ما زالت قائمة حتى هذا اليوم. وفي موضع الكنيسة كان هنالك معبد وثني للربة فينوس. فهدم ذلك المعبد الذي قيل انه قد بني في الموضع الذي شاهد السيد المسيح وهويضطهد ويعذب على أيدي الجنود الرومان.

وفي عام ٣٢٥ عقد الامبراطور مؤتمرا كنسيا في مدينة نيقيا ضمّ أساقفة من جميع أقطار الامبراطورية، وذلك من أجل البحث في شؤون الديانة المسيحية. وقد حضر المؤتمر تسعة عشر أسقفاً من فلسطين وحدها. ومن شأن هذا الرقم أن يؤكد لنا بكل وضوح أن المسيحية قد كانت شديدة الانتشار في فلسطين عهد ذاك.

وبنى قسطنطين مدينة بيزنطة. وتم البناء عام ٣٣٠، فسميت القسطنطينية نسبة اليه. وأصدر مرسوماً يخلع على المدينة اسم روما الجديدة. واتخذها عاصمة لملكه. وبذلك بدأ العهد البيزنطي. وحين كان قسطنطين على فراش الموت عام ٣٣٧، عمّده رجال الدين المسيحي فمات على المسيحية. وبذلك صار قسنطين اول امبراطور مسيحي في التاريخ.

وانتشرت الرهبنة أيما انتشار في عهد قسطنطين. وقد بدأها رجل مصري يسمى انطون. وقد كان هيلاريون الغزي واحداً من اتباع انطون. وقد عاد إلى فلسطين، أو إلى بلدة غزة ليعمل على نشر الرهبنة في بلاد الشام كلها. والحقيقة أن حياة الاعتزال ذات الطابع النسكي المتقشف قديمة في فلسطين. فقد روى

بليني، وهو كاتب موسوعي من القرن الأول الميلادي، انه شاهد أناساً يعتزلون المجتمع ويعيشون بتقشف إلى جوار البحر الميت.

وذاعت في زمن قسطنطين شهرة الاسقف يوسيبيوس، أسقف قيسارية. وقد ترك لنا هذا الرجل الطيب الذكر كتاباً عنوانه «تاريخ الكنيسة»، يشرح فيه حركة الديانة المسيحية منذ زمن السيد المسيح وحتى زمن قسطنطين، الذي كان صديقه الحميم. كما وضع يوسيبيوس، وهو المتخرج من انطاكية، قلعة الثقافة في ذلك العصر (ولكنه من مواليد فلسطين)، وضع الكثير من الكتب المتخصصة في التاريخ.

* * *

ولكن نجاح المسيحية سرعان ما أُصيب بنكسة حين اعتلى عرش الامبراطورية رجل يسمى جوليان المرتد (٣٦١ - ٣٦٣). فلقد عاد الامبراطور الجديد إلى الوثنية، وأخذ يقاوم المسيحية ويشجع الكهنوت الوثني على النشاط. ولا ريب في أن جوليان قد كان يكره اليهود لأنهم ليسوا وثنيين، ولكنه التقى معهم على رقعة مشتركة، وهي أن كلا الطرفين يكره المسيحيين. وكانت مدينة طبرية اكبر معقل ديني لليهود، إذ كان الحاخام الأكبر يقيم في تلك المدينة. وظلت القدس محرمة على اليهود منذ أيام هادريان.

قرر جوليان أن يجلب إلى القدس جالية يهودية يمكن لها أن تكون عوناً لسياسة الامبراطور في مقاومة المسيحية، وكذلك في انعاش الوثنية. وكلف وزيره البيوس بمهمة تقتضي اعادة بناء هيكل القدس، بالتعاون مع حاكم فلسطين، وكذلك مع أثرياء الطائفة اليهودية الذين لبوا رغبة الامبراطور بكل حماسة. ويقول المؤرخ الانجليزي، ادوارد جيبون، في الجزء الثاني من كتابه الموسوعي «اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها» (صفحة ٥١ من الترجمة العربية): «فتقدم الرجال المغرورون بمعاول وفؤوس من الفضة، ونقلت الأتربة في عباءات من الحرير». ثم يضيف جيبون قائلاً: «وهناك من الأدلة المعاصرة الموثوق بها ما

يؤيد، في قليل من الاختلاف، حدوث زلزال وهبوب عاصفة هوجاء، وثورة بركان عارمة، دمرت الأسس الجديدة التي شادها اليهود للهيكل، وطوحت بها في جميع الأرجاء». وليس للمرء أن يعرف ما إذا كان هذا الخبر صحيحاً أم اختلقته الأخيلة المعادية للإمبراطور واليهود.

ولكن جيبون، المعجب بالوثنية، شأنه في ذلك شأن جوليان المرتد، يستشهد بالمؤرخ الأنطاكي، اميانوس، الذي اعجب بشخصية جوليان دون ان يتردى في تعصبه الأسود. وللحق أن اميانوس مؤرخ يحترمه الجميع منذ عصره وحتى هذا العصر، وذلك لنزاهته وصدق روايته وفذاذة عقله. يقول اميانوس: «بينما كان البيوس، بمعاونة حاكم الولاية يقوم بتنفيذ العمل في قوة ومثابرة، كانت تنفجر إلى جوار البناء، في هجمات كثيرة متكررة، كرات نارية رهيبة تلفح أجساد العمال وتحرقها، وتجعل دخولهم إلى المكان محالاً. واستمرت النار على هذا المنوال في عناد وتصميم، كما لو انها عازمة على طردهم بعيداً، حتى اضطر الناس إلى التخلي عن المشروع بأكمله».

ومع أن القديس جريجوري، المشهور باسم جيروم، قد نشر هذا الخبر خلال السنة التي جرى فيها، ومع أن امبروز اسقف ميلانو، قد دونه في رسالة بعث بها إلى الامبراطور، كما ذكره يوحنا فم الذهب الأنطاكي، اسقف بيزنطة، فان مثل هذه المعجزة أقرب إلى التخريف منها إلى الحقيقة. والأرجح أنها دسّت في بطون الكتب خلال عهود لاحقة. وليس صدفة أن يدور هذا الخبر على بركان، أو شبه بركان. فمن المعروف أن يهوه قد كان الهاً للبراكين في الهلال الخصيب، خلال الألف الثاني قبل الميلاد. وإذ ينفجر يهوه على هذا النحو فانه يدلل على عدم رضاه عن اعادة بناء الهيكل.

أما السبب الحقيقي لتوقف المشروع فهو، دون ريب، مقتل الامبراطور جوليان. إذ لقد خرج الرجل في حملة على أراضي الدولة الساسانية، واشتبك مع الساسانيين في عدة معارك إلى الشرق من نهر الفرات، فأصيب بسهم أرداه قتيلاً،

عام ٣٦٣. وبوفاته لم يبق أمام الوثنية إلا ان تندثر بالتدريج، إذ لم يصل إلى العرش البيزنطي بعد جوليان أي امبراطور ليس بمسيحي.

* * *

لم تكن المسيحية هي الديانة الوحيدة الآخذة بالانتشار في أراضي الدولتين الساسانية والبيزنطية، بل كانت هنالك ديانة أخرى، وهي المانوية التي بشر بها ماني. وهذا رجل فذ ونادر المثال في تاريخ البشرية. وقد افرزته ارض بابل التي يندر أن تبذها أية أرض أخرى من حيث خصوبتها الثقافية.

نظر ماني في التوراة فلم يخفَ عليه تسطحها وجنوحها إلى التزوير. وادرك أن الاحبار لم يكتبوا ما قد حدث بالفعل، بل كتبوا رغباتهم، أو دونوا ما تمنوا لو انه قد حدث. ولهذا فقد حرّم ماني على أتباعه أن يؤمنوا بأي شخصية من شخصيات التوراة. ولم يعترف إلا بالمسيح والبوذا وزرادشت. وقال بأن الأنبياء الحقيقيين أربعة فقط، عاش ثلاثة منهم قبل عصره، وكان هو الرابع والأخير. وأعلن أنه النبي الذي بشر به المسيح، وأنه خاتم الرسل.

ووصلت المانوية إلى فلسطين، معقل المسيحية ومهدها الأول. ودار الجدال بين الطرفين، اثر انتهاء عصر جوليان المرتد. وتصدى للمانويين رجل كنعاني يسمى فورفوريوس الغزي، لعله أسقف غزة أو اسقف قيسارية. ولا يعرف المرء مدى انتشار الديانة المانوية في فلسطين خلال المرحلة الممتدة بين نشوئها في أواسط القرن الثالث الميلادي، وبين دخول العرب إلى فلسطين عام ٦٣٤، وما ذاك إلا لأن المصادر التاريخية تبخل علينا بأخبار المانوية في فلسطين. والمانوية ديانة لقيت من المقاومة والعداء مالم تلقه أية ديانة اخرى على الأرض طوال التاريخ كله. ولكنها، مع ذلك، استطاعت أن تنتشر من الهند إلى اوروبا الغربية. ولهذا، لا بد لها من أن تكون قد انتشرت بعض الشيء في فلسطين.

وعلى أية حال، فقد كان القرنان الرابع والخامس الميلاديين عصر النشاط الديني المسيحي بامتياز. إذ لقد أخذ الناس، بأعداد لا تقدر ولا تصدق، يهجرون

شؤون الحياة الدنيوية وينصرفون إلى ممارسة النسك والتقشف والانقطاع إلى العبادة. وكانت فلسطين على الدوام قبلة المسيحيين في جميع بلادهم، يغدون اليها من مختلف الجهات. وكان من أبرز الذين قدموا إلى فلسطين، في أواخر القرن الرابع، رجل يسمى جريجوري، المشهور بجيروم. فقد أتى من روما إلى بيت لحم، ترافقه امرأة ثرية تسمى بولا. وفي بيت لحم أنشأت المرأة مستشفى للفقراء، كما أنشأت أربعة أديرة اكتظت بالرهبان والراهبات. أما القديس جيروم فقد انهمك بالنسك وبترجمة العهد القديم إلى اللغة اللاتينية.

* * *

كان عهد الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) شؤماً على فلسطين. فقد حاول هذا الامبراطور أن يرغم طائفة السامريين في منطقة نابلس على التنصر، ولكن هذه الطائفة أبت أن تغيّر دينها القائم على الايمان بالأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم. فأعلن السامريون الثورة وراحوا يهاجمون جيرانهم المسيحيين ويفتكون بهم فتكاً ذريعاً. فما كان من الامبراطور، الذي لم يكن ليحتمل تعدّد المذاهب والأديان، إلا أن أرسل جيشاً كبيراً أخذ يقتل السامريين دون أية رحمة. وهكذا أباد جوستنيان عشرين ألفاً من السامريين، وأسر عشرين ألفاً أخرى، وباع الأسرى في أسواق النخاسة. ويقال إن مجموع القتلى في هذه الحرب قد بلغ مائة ألف نسمة، بما في ذلك المسيحيون الفلسطينيون العزّل. وأما منطقة نابلس فقد استحالت إلى رماد بعدما كانت عامرة مأهولة بالحياة والحركة.

هذا وقد تميز العصر البيزنطي بكثرة الحروب بين البيزنطيين والساسانيين. ولا يدخل في اختصاص هذا الكتاب من تلك الحروب الا حرب واحدة وحسب، وهي الحرب الأخيرة، وذلك لأنها قد وصلت إلى فلسطين وجرت عليها الكثير من الويلات. ولقد اندلعت تلك الحرب، عام ٦٠٢، حينما راحت قوات الملك الساساني الطموح، كسرى الثاني، تشن غارات موفقة على الأناضول. وفي عام ٦٠٩ وصل الساسانيون إلى البوسفور وضربوا الحصار على العاصمة البيزنطية.

ثم اندفع محور ساساني آخر باتجاه بلاد الشام. ووصل هذا المحور إلى القدس عام ٦١٤، فاستسلمت الحامية البيزنطية دون مقاومة. ولكن سكان القدس، وكانت يومذاك تسمى ايليا، ثاروا على الاحتلال، وتمكنوا من طرد الجيش الساساني إلى خارج اسوار المدينة. فما كان من القيادة الساسانية إلا أن أرسلت جيشاً كبيراً ضرب الحصار على القدس طوال ثلاثة أسابيع، ثم اخترق أسوارها ودخلها بالقوة، وراح يفتك بالسكان دون رحمة، وينهب المدينة بكل جشع وهمجية. وكان الصليب المقدس من جملة الأشياء التي نهبوها من المدينة المقدسة. ولم يكتفوا بهذا القدر من الشرور، بل راحوا يضرمون النار في القدس ويحيلونها إلى رماد.

ولكن الامبراطور هرقل، الذي وصل إلى العرش عام ٦١٠، قد أبدى بطولات عسكرية نادرة في التاريخ. فقد انتصر على الساسانيين في سلسلة من المعارك، ولا سيما معركة نينوى، عام ٦٢٧، مما أرغمهم على طلب الصلح والانسحاب من جميع الأقطار التي احتلوها، واعادة الصليب الحقيقي. وهكذا انتهت الحرب عام ٦٢٨، بعدما دامت ستاً وعشرين سنة. وبعدما حل السلام حج هرقل إلى القدس وأعاد الصليب الحقيقي إلى موضعه في كنيسة القيامة. وحين كان في حمص عام ٦٢٨ وصلته رسالة من النبي العربي تدعوه إلى الدخول في الإسلام.

والحقيقة أن القيادة العربية في الحجاز قد برهنت على سعة أفقها وحدة بصيرتها حين جنّبت العرب شر الاشتراك في هذه الحرب الطويلة الأمد التي استنزفت الطرفين المتصارعين. فبينما كانت عواطف اليهود والمجوس والمزدكيين والوثنيين مع كسرى، فان عواطف المسلمين والمسيحيين قد كانت مع هرقل. واكد القرآن أن الروم (وهذا هو اسم البيزنطيين عند العرب) سوف ينتصرون بعد الهزائم التي حلت بهم. ولكن، مع ان عواطف المسلمين قد كانت إلى جانب الروم فقد رفضوا الانخراط في هذه الحرب لصالح قوة كانت القيادة العربية في الحجاز تتأهب للانقضاض عليها. وبالفعل، جاء انقضاض العرب على الروم،

وعلى الساسانيين الذين كان العرب يسمونهم الفرس، في أنسب اوقاته على الاطلاق. فالجيشان في الخندقين كليهما قد أنهكهما القتال إلى حد الضنك، الأمر الذي ساعد القوات العربية القليلة العدد على احراز النصر بسرعة فائقة.

* * *

قسّم البيزنطيون فلسطين إلى ثلاثة أقسام هي: فلسطين الأولى وعاصمتها قيسارية، وتضم القدس، فضلاً عن الساحل كله باستثناء عكا؛ وفلسطين الثانية، وعاصمتها بيسان، ويتبعها الجليل الشرقي ومرج بني عامر، وفلسطين الثالثة، ومركزها البتراء، وتضم النقب ووادي العربة وشطراً من شرقي الأردن. أما عكا فكانت تابعة لولاية فينيقيا الأولى، وعاصمتها صور.

أصبحت مدينة غزة اكثر المدن الفلسطينية ازدهاراً بعد قيسارية. وقد أسس فيها البيزنطيون مدرسة للبلاغة والنحو والأدب خلال القرن الخامس الميلادي. وكان من أبرز مثقفي ذلك القرن مؤرخ يدعى سوزومين، من مواليد قرية تسمى بيت ايل، وهي مجاورة لمدينة غزة. كما أنجبت قيسارية في القرن السادس مؤرخاً كبيراً يسمى بروكوبيوس. ولقد عمل هذا المؤرخ في خدمة القائد البيزنطي الشهير بليزاريوس، الذي احرز انتصارات عسكرية باهرة في عصر جوستنيان.

وازدهر الاقتصاد في المدن الفلسطينية الساحلية الهادئة. فكانت عسقلان وغزة من أهم المدن المصدرة للخمور. أما قيسارية، أعظم مدن فلسطين في ذلك العصر، فقد اشتهرت بصناعة الارجوان. ويذكر أميان، المؤرخ الانطاكي، ان الأراضي المزروعة في فلسطين قد كانت واسعة المساحة، وأن الناس قد راحوا يخدمون تلك الأراضي بعناية بالغة.

أما الطريق التجاري الذي يربط اليمن والحجاز، من جهة، بأيلة وغزة من جهة اخرى، والذي وصفه بليني بالتفصيل في الجزء الثاني عشر من «التاريخ الطبيعي»، فقد ظل نشيطاً طوال العصر البيزنطي تقريباً. وقد ازداد نشاطاً في القرن السادس الميلادي، حينما صار الحجاز، ولا سيما مكة، المركز الأكبر للتجارة

العربية، بعدما هُزم عرب الجنوب على أيدي عرب الشمال، في اواسط القرن الخامس الميلادي.

وفي هذا الطور كانت غزة مركزاً تجارياً كبيراً للعرب. وقد توفي فيها هاشم جد الرسول فسميت غزة هاشم. ويبدو أن العرب كانوا على اتصال وثيق بالشطر الجنوبي من الساحل الفلسطيني. وفي الأخبار أن تاجراً مكياً يسمى عقبة بن أبي معيط قد كان له متجر كبير في صفورية القريبة من الناصرة. أما أبو سفيان فقد كان يملك عقارات ومتاجر في فلسطين والاردن.

فمن الواضح أن العرب لم يكونوا اغراباً عن فلسطين يوم راحوا يطردون جيوش الروم من ربوعها إثر وفاة الرسول.

الفصل السادس

فلسطين تستعرب

١ ـ الفتح والتعريب:

لم يمتثل هرقل، امبراطور الروم، للرسول حين طلب اليه أن يعلن دخوله في الاسلام. وما ان عاد ذلك الامبراطور من الحج الى القدس، بغية اعادة الصليب الحقيقي إلى كنيسة القيامة، بعد استرداده من الفرس في نهاية الحرب، حتى خرجت اول سرية للعرب المسلمين من الحجاز لتنقض على حدود الدولة البيزنطية في الطرف الجنوبي لبلاد الشام. ودارت معركة مؤتة بين العرب والروم، عام ٦٢٩. وقتل زيد بن ثابت، قائد العرب، وحين تسلم خالد بن الوليد القيادة، بعد مصرع قائدين آخرين، فقد رأى أن لا تكافؤ، من حيث العدد والعدة، بين الجيشين المتحاربين، فما كان منه إلا أن أمر بالانسحاب والعودة إلى المدينة.

وفي العام التالي، حشد الرسول بنفسه جيشاً قوامه ثلاثون ألف جندي، وقاده إلى تبوك. ورأى الروم أن التوازن في العدد قد اختل هذه المرة لصالح

العرب. فأحجموا عن القتال، بل انسحبوا شمالاً، تاركين الطرف الجنوبي من الشام للعرب.

وعند ذاك أخذ الرسول يبعث السفراء إلى المدن القريبة من تبوك ليعقد معها صلحاً يتأسس على أن تدفع هذه المدن الجزية للعرب بدلاً من الروم. والحقيقة أن جميع المدن التي بلغها السفراء قد استجابت للطلب ولبت الدعوة. ولم يكن بين هذه المدن كلها سوى مدينة فلسطينية، هي مدينة إيلة، او إيلات، التي هي مؤنث إيل، بكل وضوح. فقد تصالح ملكها المسيحي، يوحنا، مع حكومة الرسول، على أن يدفع لهذه الحكومة ثلاثمائة دينار سنوياً. وإلى الشرق من وادي العربة وخليج العقبة، كانت هناك ثلاث مدن لليهود، جربا وإذرح ومقنة، فعمدت هي الأخرى إلى التصالح مع الرسول على الشرط نفسه.

ثم عادت القوة العربية إلى المدينة لكي تستعد لحملة أخرى. وبالفعل خرج اسامة بن زيد عام ٦٣٢، وهو العام الذي توفي فيه الرسول، إلى الشام. وكان محمد قد «أمره أن يُوطِىء الخيل تخوم البلقاء والداروم، من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون». أما الداروم فهي دير البلح الحالية، بالقرب من غزة. وبما أن الرسول قد أمر كبار الصحابة، أو «المهاجرين الأولين»، بالغزو مع أسامة، وبالتوجه إلى فلسطين حصراً، أو إلى الشطر الجنوبي من ساحلها، كما يقول ابن هشام في السيرة المشهورة، فإن من الواضح أن النبي العربي قد كان شديد الاهتمام بفلسطين على وجه الخصوص. وثمة أحاديث منسوبة إلى الرسول تشجع الناس على السكنى في فلسطين. كما أن الإسلام قد نظر إلى المسجد الأقصى في القدس من حيث هو ثالث الحرمين الشريفين.

بعد وفاة الرسول في حزيران من عام ٦٣٢، انخرطت الحكومة العربية الناشئة في حروب الردة التي استمرت حتى صيف العام التالي. وفي شتاء عام ٦٣٣ ـ ٦٣٤، أرسل أبو بكر الصديق واحداً من أفضل ضباط جيشه إلى

فلسطين. فسار عمرو بن العاص على رأس فرقة يذكر الواقدي في «فتوح الشام» أنها تتألف من تسعة آلاف جندي. والحقيقة أن تلك الفرقة لم تكن تزيد عن نصف هذا العدد. ولكن سرعان ما بعث الخليفة الأول بفيلقين آخرين، يقود الأول يزيد بن أبي سفيان، ويقود الثاني شرحبيل بن حسنة. ثم بعث الخليفة جيشاً رابعاً إلى الشام بقيادة أبيي عبيدة بن الجراح. وهكذا صار للعرب أربعة جيوش في الشام.

اتجه عمرو بن العاص إلى أيلة، ثم سار على الطريق التجاري باتجاه الساحل. وكان غرضه الواضح أن يفصل الموانىء البحرية عن الشطر الداخلي من البلاد. وهذه حركة استراتيجية تستهدف الفتح لا الاغارة السريعة المؤقتة.

أما يزيد بن أبي سفيان فقد اصطدم مع الروم في تبوك. وحين أنجده شرحبيل بن حسنة، فقد تم النصر للعرب الذين تمكنوا من قتل القائد البيزنطي. ثم تابعوا سيرهم حتى وادي العربة، وهناك اصطدموا بالروم مرة اخرى، يقودهم سرجيوس والي قيسارية، عاصمة فلسطين الأولى يومذاك. وانتصر يزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وراح العرب يطاردون سرجيوس وفلوله، فالتقوا به من جديد في مكان قريب من غزة، يسمى دائن. وهناك قتل سرجيوس، ودارت الدائرة على الروم، وذلك في شباط، عام ٦٣٤. ويبدو أن الجيوش الثلاثة قد كانت تعمل تحت قيادة عمرو بن العاص في هذه المعركة. أما جيش أبي عبيده بن الجراح فقد اتجه صوب دمشق. وهكذا اجتاح العرب الشطر الجنوبي من فلسطين، وعزلوا الساحل عن الداخل، واصبحت الموانىء الفلسطينية خاضعة للحصار. وكان صمود هذه الموانىء مرده إلى الامدادات التي كانت تتلقاها من جهة البحر.

وأدرك هرقل حجم الخطر الذي يحمله هؤلاء العرب للإمبراطورية البيزنطية. فما كان منه إلا أن جيّش وحشد قوة ضخمة يبلغ عدد رجالها ستين ألفاً، وفقاً لاحدى الروايات. ووضع أخاه تيودور على رأس هذه القوة. وعلم أبو

بكر بحشود الروم، فأرسل إلى خالد بن الوليد، الذي كان يقاتل الفرس في العراق، أن يتوجه إلى الشام. واجتاز خالد البادية، على رأس بضع مئات من الجنود، بطريقة ما زالت مبعث اعجاب المؤرخين. وناوش الروم قرب دمشق ليجس نبضهم ويتعرف على مدى استعدادهم وكفاءتهم الحربية. وانتصر عليهم، ولكنه تابع الزحف إلى الجنوب لينضم إلى رفاقه الأربعة، إذ بذلك يتكامل احتشاد القوى قبل أن تخوض معركتها الحاسمة ضد الروم. وفي شباط عام ٦٣٤ تمكن العرب من فتح مدينة غزة. فكانت اول مدينة فلسطينية يحتلها العرب عنوة. وفي تموز من السنة نفسها التحمت الجيوش العربية التي اتحدتْ في جيش واحد يقوده عمرو بن العاص، بجيش الروم في معركة كبيرة عند اجنادين بين غزة والقدس، أو إلى الجنوب من الرملة. ودارات الدائرة على جيش الروم، فهزم شر هزيمة.

وغيّر الروم قائد جيشهم، فعينوا ضابطاً بدلاً منه يسمى بانيس. ولكن العرب تابعوا هجماتهم الضارية واستولوا على بيسان وحوران والجولان، ثم زحفوا صوب دمشق، فالتقاهم بانيس في مرج الصُّفَّر، قرب بلدة تسمى شقحب، إلى الجنوب الشرقي من دمشق، ولكن لتلحق به هزيمة منكرة. فما كان من العرب بعد هذه الانتصارات المتكررة إلا أن حاصروا مدينة دمشق نفسها. واستمر الحصار ستة أشهر وأسفر عن سقوط المدينة بيد العرب صلحاً، عام ٦٣٥، ولهذا فقد نالت عهداً بالأمان من خالد بن الوليد. ولم يتوقف العرب عند دمشق، بل زحفوا شمالاً بقيادة ابي عبيدة، الذي احتل بعلبك وحمص وحماة.

ولكن الجيش البيزنطي أخذ يتقدم من انطاكية وحلب باتجاه الجنوب، فما كان من العرب إلا أن أخلوا جميع المدن التي احتلوها في سوريا وأخذوا يحتشدون في منطقة نهر اليرموك. وبالقرب من الواقوصة، وعند ملتقى وادي الرقاد بوادي اليرموك، الذي صار يسمى والدي خالد، تصادم العرب والروم في معركة من أشهر المعارك الحاسمة في تاريخ العرب، وذلك في شهر آب، عام ٦٣٦. وبينما

وادي

كان عدد جيش الروم ستين ألفاً، فإن عدد جيش العرب لم يزد عن عشرين ألفاً إلا قليلاً. ومع ذلك، فقد دارت الدائرة على الروم، وأحرز العرب نصرهم المؤزر. وبذلك حسم مصير بلاد الشام لصالح العرب. ولقد قتل تيودور، قائد الروم، كما قتل كثير من جنده، فضلاً عمن غرق منهم في مياه النهر.

وراح العرب يضربون الحصار على القدس. كما راحت بعض فرقهم تهاجم المدن الساحلية في فلسطين ولبنان. فسقطت عكا وصور في قبضة شرحبيل بن حسنة. أما يزيد بن أبي سفيان، الذي كان معاوية أخوه يحمل رايته، فقد احتل مدن الساحل اللبناني.

واصرّت القدس على أن لا تستسلم إلا لعمر بن الخطاب نفسه. وجاء عمر إلى الجابية ليعقد مؤتمراً للنظر في شؤون بلاد الشام. ووصل إلى القدس وتسلم مفاتيح المدينة من الأسقف صغرونيوس. وكتب أماناً لأهلها، سنة ٦٣٨.

وظهر الطاعون في فلسطين، وأخذ يلتهم جيوش العرب، وهو الطاعون المشهور بطاعون عمواس، سنة ٦٣٩. وكان من بين الذين أبادهم ذلك الطاعون، ابو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان، الذي ولاه عمر على الشام بعد وفاة أبي عبيدة. ولكن عمر ولى أخاه معاوية بدلاً منه، وذلك عام ٦٣٩. وكان اول عمل فعله معاوية في عهد ولايته هو تشديد الحصار على قيسارية التي أغدق عليها الروم جميع أصناف الدعم الحربي من جهة البحر. ولكنها سقطت في قبضة معاوية سنة ٦٤٠. وبسقوطها أكمل العرب احتلالهم لفلسطين، بل اكملوا احتلالهم لبلاد الشام كلها.

قسّم العرب سوريا الكبرى إلى أربعة أقسام ادارية يحكمها وال واحد مركزه دمشق. وكانوا يسمون كل قسم جنداً. فالطرف الشمالي هو جند حمص، ويليه جند دمشق، ثم جند الأردن، ومركزه طبرية، ويشتمل على الجليل والجولان وأرض اخرى من شرق الأردن. وفي الطرف الجنوبي ثمة جند فلسطين.

وقد جعلوا مركزه مدينة اللد، منذ عهد عمر. وظلت اللد اكبر مركز لجيوش العرب في فلسطين حتى بنيت الرملة في عهد الوليد بن عبد الملك.

واتخذ العرب من فلسطين قاعدة للانقضاض على مصر بقيادة عمرو بن العاص. والأهم من ذلك أنهم اتخذوا من مدينة عكا ميناء حربياً للهجوم على قبرص وسواها من جزائر البحر. فقد اعتنى معاوية بتلك المدينة وجعل منها مركزاً لصناعة السفن. وحاول أن يقنع عمر بن الخطاب بالخروج بحراً إلى قبرص. ولكن عمر رفض طلبه، فسكت معاوية حتى عهد عثمان الذي وافق على قيام والي الشام بحملة حربية، ولكن بعد كثير من التردد. فاحتل معاوية قبرص سنة ٦٥٤. وفي السنة التالية خاض معركة ذات الصواري قرب شواطىء الأناضول، حيث تمكن العرب من تدمير اسطول الروم تدميراً نهائياً.

وحين نشب القتال بين علي ومعاوية اثر مقتل عثمان عام ٦٥٦، بايعت فلسطين والاردن معاوية، شأنها في ذلك شأن بقية بلاد الشام. ويروي خليفة بن خياط في تاريخه أن أهل الأردن كانوا في ميسرة جيش معاوية في معركة صفين عام ٦٥٧، وكان على رأسهم أمير يسمى أبو الأعور السلمي. وكان أهل فلسطين في الميسرة أيضاً، وعلى رأسهم أمير يسمى مسلمة بن مخلد. وكان يقود مشاة فلسطين رجل اسمه الحارث بن عبد الأزدي. أما قبائل فلسطين والأزدن التي اشتركت في صفين فأهمها كنانة ومذحج وجذام وغسان. فالحقيقة أن عمر بن الخطاب كان قد اهتم اهتماماً شديداً بتوطين الكثير من القبائل العربية في فلسطين، بغية تعريبها ووسمها بميسم الحضارة الاسلامية، وذلك نظراً لمكانتها المقدسة عند البيزنطيين الذين لم يتنازلوا عنها إلا على مضض، والذين سوف ينتهزون أول فرصة مناسبة لاسترجاعها وضمها إلى الامبراطورية التي تسمي نفسها حامية المسيحية.

واهتم عبد الملك بن مروان بالقدس، بعدما هدأت الحروب الأهلية العربية، وبنى فيها مسجد الصخرة عام ٦٩١. كما ان ابنه الوليد قد بنى المسجد

الأقصى بعد ذلك بقليل. وفي خلافة الوليد اعطيت ولاية فلسطين إلى سليمان بن عبد الملك. فما كان من هذا الوالي، الذي سيصبح خليفة بعد وفاة أخيه، إلا أن بنى مدينة الرملة وجعلها عاصمة فلسطين، بل أعظم مدينة في الشطر الجنوبي من بلاد الشام. وقد شيد فيها جامعاً شهد بعض الرحالة بأنه أعظم جامع في بلاد الاسلام كلها. كما شيد فيها قصراً عظيماً بقيت اطلاله حتى اليوم. أما الجامع فما زال جزء منه قائماً إلى هذا العصر.

٢ ـ الثورات في فلسطين:

في أواخر عهد الوليد بن يزيد ثار الفلسطينيون على الأجهزة الاموية الفاسدة، وطردوا والي قطرهم، ونادوا بيزيد بن سليمان بن عبد الملك أميراً للمؤمنين. واستمرت الثورة حتى عهد الخليفة يزيد الثالث، الملقب بالناقص، عام ٧٤٤. وكان اخلاص الفلسطينيين ليزيد بن سليمان سببه محبتهم لأبيه الذي ولي فلسطين في عهد أخيه الوليد بن عبد الملك.

وقد ثارت ولاية الاردن أيضاً، وهي التي تضم الجليل كله فضلاً عن حيفا وبيسان، وأيدت يزيد بن سليمان. ولكن يزيد الناقص أرسل جيشاً تمكن من الحاق الهزيمة بالولايتين المتآزرتين.

وفي السنة الأولى من عهد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الامويين، ثارت فلسطين مرة أخرى. واشتبك مروان مع الثائرين قرب طبرية، التي أيدت ثورة فلسطين، وانتصر عليهم. وألقى القبض على ثابت بن نعيم، والي الرملة، وزعيم الثورة، وكذلك على أبنائه الثلاثة، فصلبهم جميعاً على أسوار دمشق.

وحين اندلعت الثورة العباسية، وأخذت قوات مروان تتقهقر باتجاه مصر، رأى الخليفة الأموي أن يخوض ضد العباسيين معركة فاصلة في ساحل فلسطين. والتقت القوتان لآخر مرة قرب الرملة، ودارت الدائرة على مروان، عام ٧٥٠، عند نهر أبي فطرس الذي يعرف اليوم بنهر العوجا. وأحجم والي الرملة عن نصرة

مروان، الأمر الذي أسهم في هزيمة أمية. أما بنو العباس، فقد دخلوا الرملة وانزلوا بالأمويين مجزرة مروّعة. ولكن الفلسطينيين، كبقية أهل الشام، سوف يظلون معادين للعباسيين وموالين لبني أمية.

وهدأت فلسطين حتى وفاة الرشيد، الذي ورثه ابنه الأمين، الخليع المولع باللهو والإسراف. وفي عهده وثب رجال الدولة في فلسطين على خراج مصر وهو في طريقه إلى بغداد، واستولوا عليه، وأخذوا منه رواتبهم ثم سمحوا لبقية المبلغ بمتابعة طريقه إلى خزائن بني العباس.

أما أشهر ثورة عرفتها فلسطين في تلك الحقبة، فهي ثورة المبرقع اليماني، في عهد المعتصم. اعلن المبرقع أنه مصمم على اعادة السلطة إلى الأمويين. ودعمته جماهير الفلاحين الذين نهبهم ولاة بني العباس وافقروهم حتى الاملاق. وتألبت حول المبرقع جموع غفيرة تعد بعشرات الألوف. فأرسل المعتصم جيشاً كبيراً يقوده رجاء بن أيوب، الذي أحجم في البداية عن القتال، نظراً لضخامة أعداد الثائرين. وانتظر حتى حل موسم الحرث، وتفرق الفلاحون من أجل أعمالهم، ثم انقض على المبرقع ومن بقي معه وألحق بهم هزيمة فادحة. وأرسل المبرقع إلى المعتصم ومعه بعض أصحابه.

وفي عهد المعتز العباسي أسندت ولاية فلسطين إلى عيسى بن شيخ الشيباني، عام ٨٦٦، وكان مركز الخلافة يعاني من الضعف، ومن تحكم الأتراك بمقدرات الدولة. فرغب عيسى بين شيخ في تأسيس دولة تستقل بالشام ومصر. فهيمن على ولاية الأردن، وكذلك على ولاية دمشق. ة ثم تعرض لخراج مصر وهو في طريقه إلى بغداد، وصادره كله. ومات المعتز وخلفه المهتدي عام ٨٦٩، ولكن عيسى لم يبايع الخليفة الجديد، الذي قتل بعد سنة واحدة. وورثه المعتمد، وظل عيسى على موقفه الرافض لمبايعة العباسيين، بل منع الخطباء من الدعاء للمعتمد على المنابر في فلسطين ودمشق. فاسترضاه المعتمد، وأسند إليه ولاية أرمينيا،

فانصاع الرجل، وبايع خليفة بغداد، الذي راح يترقب الفرصة المناسبة للقضاء على هذا الوالي الجموح.

أرسل المعتمد جيشاً على رأسه ضابط تركي يسمى أماجور. واشتبك هذا الجيش مع قوات عيسى التي كان يقودها ابنه منصور. وهزمت هذه القوات، وقتل منصور، وهرب عيسى إلى أرمينيا.

٣ ـ فلسطين ممراً للقوى المتصارعة:

ازدادت الدولة العباسية ضعفاً فطمع الولاة بأقاليمها الكثيرة. وكان أحمد بن طولون (٨٦٨ ـ ٨٨٤) واحداً من اكثر هؤلاء الولاة طموحاً وقوة شخصية. وتحرك ابن طولون من مصر باتجاه الشام، وأيده الفلسطينيون المحالفون دوماً لأعداء العباسيين. وارتضت الحكومة المركزية في بغداد بهذه الحركة، ولكن على مضض.

وتوفي ابن طولون، وخلفه ابنه خمارويه. ورأت بغداد أن الوقت قد حان للقضاء على الدولة الطولونية، فأرسلت قوة على رأسها أحمد بن الموفق لاسترجاع الشام، فطرد الطولونيين إلى مصر. فتجهز خمارويه وخرج إلى فلسطين، والتقى بالجيش العباسي على ضفاف نهر العوجا. وجرت بين الطرفين معركة سميت معركة الطواحين، عام ٨٨٦. وانتصر العباسيون في هذه المعركة وراحوا يلاحقون فلول الجيش الطولوني. ولكن قائداً مصرياً يسمى سعد الأعسر استطاع أن ينصب كميناً للمنتصرين ليحيل نصرهم إلى هزيمة. وعند ذاك نزع الطرفان نحو الصلح، وتزوج الخليفة المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه.

وتوفي خمارويه عام ٨٩٥، ودب الوهن في دولة الطولونيين، إذ ورثه ملك ضعيف سرعان ما قتل ليرثه ملك أضعف. فانقض العباسيون على الشام واستولوا عليها كلها وأعادوها إلى حظيرة دولتهم، وذلك عام ٩٠٥. وولى العباسيون على فلسطين حاكماً يسمى محمد بن الخليج. وسرعان ما راح هذا

الحاكم يفكر بالاستقلال، بعدما تاكد من صدق الفلسطينيين في مناصرته. وهيمن على مصر، ثم اعلن الثورة على بني العباس. ولكن هؤلاء تمكنوا من الحاق الهزيمة به واعادة البلاد إلى السيطرة المركزية.

وفي عام ٩٣٥ تسلم ولاية مصر رجل اسمه محمد بن طغج، الملقب بالاخشيد. وطمع الاخشيد بالشام، ولكنه واجه واليا لا يقل عنه طموحاً. ذاك هو محمد بن رائق، والي الجزيرة والشطر الشمالي من بلاد الشام. وقد زحف ابن رائق جنوباً وطرد الاخشيديين من دمشق، وارغمهم على التراجع إلى الرملة، عاصمة فلسطين يومذاك. ثم حاصر ابن رائق الرملة واحتلها، واتجه صوب مصر، التي سرعان ما غادرها الاخشيد ليصد عنها ذلك العدو القوي. والتقى الطرفان عند العريش، حيث تم النصر للأخشيد، فتراجع ابن رائق نحو الشمال، ولكن ليكمن للجيش المصري ولينتصر عليه عند اللجون (مجدو)، سنة ٩٣٩، على الرغم من المساعدات التي قدمها الفلسطينيون لملك مصر.

وعند ذاك عقد الصلح بين الطرفين على أن يكون النصف الجنوبي من بلاد الشام حصة للأخشيديين، وعلى أن تدفع مصر مبلغاً كبيراً لابن رائق الذي سوف يتكبد نفقات الصراع ضد الروم. وبذلك اشترت مصر درعاً لها يقيها أخطار الأناضول.

ولكن الحمدانيين اغتالوا ابن رائق في الموصل عام ٩٤١ وورثوا ولايته، فما كان من الاخشيديين إلا أن زحفوا شمالاً واحتلوا دمشق. وعند ذاك تحرك سيف الدولة الحمداني من حلب وحاصر دمشق واحتلها، ثم زحف جنوباً حتى مشارف الرملة، حيث اصطدم بجيش الاخشيديين الذي أنزل بالحمدانيين هزيمة ساحقة، فهرب سيف الدولة إلى حلب واعتصم بأسوارها. وعند ذاك عقد الصلح بين الطرفين، وتنازل الحمدانيون عن دمشق للمصريين.

وضعفت الدولة الاخشيدية بعد وفاة كافور عام ٩٦٨، فطمع بها القرامطة، الذين سبق لهم أن نهبوا طبرية، وذبحوا الكثير من أهلها، وسبوا

النساء والأطفال. فبينما كان الفاطميون يزحفون على مصر من جهة الغرب، راح القرامطة يغيرون على هامشها الفلسطيني من جهة الشرق. فدخلوا الرملة عام ٩٦٩ وأقاموا فيها مدة قصيرة من الزمن.

ولكن الدولة الجديدة في مصر، أقصد الدولة الفاطمية، لم يكن أمامها محيد عن الالتزام بمبدأ دائم التحكم بالسياسة المصرية، وهو مبدأ الهيمنة على فلسطين من أجل الدفاع المبكر عن مصر. وهكذا تحرك الجيش الفاطمي واحتل فلسطين والاردن ودمشق عام ٩٧٠. ولكن سكان فلسطين تحالفوا هذه المرة مع القرامطة ضد الفاطميين المّالين إلى الجور وسفك الدماء دون رحمة.

واستطاع الحسن بن الأعصم القرمطي أن يجتاح جنوب الشام كله، وأن يدعو على المنابر لخلفاء بني العباس، وذلك اتقاء للخطر الفاطمي. ثم زحف الحسن على مصر، ومعه قوات فلسطين، حتى وصل إلى مشارف الفسطاط. وهناك راح جوهر الصقلي يتصدى للقرامطة وحلفائهم، فهزمهم شر هزيمة، وراح يطاردهم حتى مشارف الرملة. ولكن القرامطة اتجهوا مرة أخرى باتجاه مصر. وهزموا المعز لدين الله، الخليفة الفاطمي الرابع، وامعنوا في نهب المدن والقرى المصرية. ثم حاصروا القاهرة، فدفع لهم المعز مبلغاً كبيراً من المال مقابل رحيلهم عن مصر، فأخذوه وغادروا البلاد عام ٩٧٣.

٤ ـ الفلسطينيون يحاولون انشاء الدولة المستقلة:

في السنة التالية، راح الحسن القرمطي يهاجم مصر للمرة الثالثة. وقد عاونه في هذا الهجوم أمير فلسطين، حسان بن الجراح الطائي، الذي كان يهدف إلى اقامة دولة مستقلة إلى الجنوب من دمشق. وادرك الأمير الفلسطيني أن هدفه يشبه المحال في ظلال هذه القوى العاتية. ولهذا فقد وافق حسان على أن يخون القرمطي، وذلك حين اتصل به المعز وأغراه بمائة ألف دينار مقابل التخلي عن حليفه ساعة الهجوم. وهكذا حلت بالقرامطة هزيمة منكرة. ولا ريب في أن ابن

الجراح، وهو رجل داهية، كان غرضه من الخيانة أن يلقن القرامطة درساً فحواه أنهم لن ينتصروا إذا ما تخلى عنهم. وهذا يعني أنه شريك، لا مجرد تابع صغير.

ثم تشكل حلف ثلاثي يتألف من افتكين، والي دمشق العباسي، ومن القرامطة وآل الجراح، وذلك لمواجهة جوهر الصقلي الذي زحف على فلسطين واحتلها. وحين وصلت قوات الحلف إلى الرملة، انسحب جوهر إلى عسقلان، فحاصرها الحلفاء زهاء سنة ونصف السنة. ودارت المفاوضات بين الطرفين المتحاربين، وأسفرت عن السماح للقوات الفاطمية بمغادرة عسقلان بسلام.

وتوفي العزيز وخلفه ابنه المعز. وتوجه الخليفة الفاطمي الخامس عام ٩٧٩ إلى الشام، والتقى بالحلف قرب الرملة. واوقع الجيش الفاطمي أفدح الخسائر في صفوف أعدائه. ولكن الحلف لم يكن ثلاثياً هذه المرة، إذ لقد استطاع العزيز أن يستميل ابن الجراح إلى جانبه قبل أن يغادر مصر. فقد سبق لحسان بن الجراح أن توفي، فورثه ابنه المفرّج، الذي رأى ان استقلال فلسطين لا يمكن أن يتم إلا من خلال مصر وبموافقتها. ولهذا فان ابن الجراح، عندما التجأ اليه افتكين المهزوم، قد ارتضى بتسليمه إلى الخليفة الفاطمي مقابل جائزة مالية كبيرة. كما كوفىء المفرج بتعيينه والياً على فلسطين ذي صلاحيات واسعة.

وما إن رضيت مصر عن ابن الجراح حتى غضبت عليه حلب التي طمعت بالأراضي المجاورة لها من جهة الجنوب، لأن دولة الحمدانيين في شمال الشام لا تتكامل إلا اذا انضم اليها النصف الجنوبي من الاقليم نفسه.

فتقدم أبو تغلب الحمداني من حلب واحتل دمشق ثم زحف إلى الجنوب. وتدخلت مصر فوراً، وقاتلت إلى جانب ابن الجراح، وهزمت الحمدانيين، وأسرت أبا تغلب.

وادرك العزيز أن الهامش المصري في الشام لايمكن حمايته إلا إذا رابط فيه الجيش المصري على الدوام. وخرجت قوة مصرية كبيرة إلى الشام فتصدى لها

ابن الجـراح الـذي لم يكن يعلم بأن والي الاردن في طبريـة قد سبق له أن تحالف مع المصريين ضده. فهزم ابن الجراح وفر باتجاه الشمال.

ولكنه استرضى العزيز بعد ذلك، وعاد إلى الرملة من جديد، بوصفه والياً على فلسطـين. ومـا كان في هذه المـرة إلا قطاً مقلم الأظافر، وخادماً مطيعاً لسيده الـرابض في القـاهـرة. وحـين تمرد والي دمشق ضد العـزيـز، أسهم ابن الجراح في انتصار الحكومة المركزية على الوالي الثائر عام ٩٩٢.

واضطـربت أحـوال مصـر بعـد موت العـزيز سنة ٩٩٦. وفكر ابن الجراح بالاستقلال من جديد. فما كان من الحاكم بامر الله، الخليفة الفاطمي السادس، إلا أن أرسـل له جيشـاً يقوده جيش بن الصمصامة، الذي هزم ابن الجراح وطرده من الرملة. ولكنه سرعان ما استرضى الخليفة فعفا عنه.

ولكن المفـرّج بن الجـراح لم يهدأ، ولم يتراجـع البتة عن هدفه النهائي، وهو بناء دولة مستقلة في فلسطين. ولهذا فقد اتفق مع رجل اسمه أبو الفتوح الحسن بن جعفر، وهو من سلالة الحسن بن علي بن أبي طالب، على أن يجعل منه خليفة في مواجهة الفاطميين الذين هم من سلالة الحسين.

وجن جنـون الحـاكم بأمـر الله حين سمـع بالنبأ. وزحف الجيش المصـري باتجاه فلسطين، وتصدى له آل الجراح وهزموه قرب رفح، وأسروا قائد الجيش وقتلوه.

وسرعان ما اتجهت أنظار ابن الجراح إلى بيزنطة يطلب منها الدعم، بعدما حسَّن علاقتـه بالمسيحيـين في فلسطـين، فمال إليـه المسيحيـون أثـر قيـام الخليفـة الفـاطمي بهدم كنيسـة القيـامـة. ولكن البيـزنطيين كانوا منهمكين في الحرب ضد البلغار، ولهذا فلا حاجة بهم إلى ازعاج مصر.

ما كان من الخليفة الفاطمي إلا أن أرسل جيشاً جراراً هذه المرة، بقيادة علي بن جعفر الكتامي، حتى لكأن الصراع بين بيبي الأول وبين الكنعانيين قد بعث

من جديد، وحتى لكأن الكتامي هو ونا نفسه وقد غيّر اسمه وحسب. وعلى أية حال فقد أنزل هذا الجيش بآل الجراح هزيمة منكرة.

وحين انتقلت الخلافة إلى الظاهر (١٠٢١ ـ ١٠٣٥) هب آل الجراح من جديد في وجه الفاطميين. فأرسل الخليفة جيشاً يقوده الدزبري. واحتل الجيش الرملة عام ١٠٢٥، بعد قتال دام ثلاثة أيام حول عاصمة فلسطين. فهرب آل الجراح إلى الجليل، وأخذوا يعتدون على الأراضي التابعة للفاطميين.

ومات المفرّج، وحل محله ابنه حسان. وفكر حسان هذا باقامة حلف بينه وبين والي دمشق ووالي حلب، إذ من دون بقية الشام لا أمل لفلسطين. وتألف الحلف بالفعل. واتصل قادته بالبيزنطيين. ولكن بيزنطة كانت تمر بمرحلة من الخمود الشديد بعدما استنزفت طاقاتها في حروب طويلة خلال عهد باسيل الثاني. ولهذا فانها لم تستجب لطلب الشاميين المتحالفين ضد مصر. فما كان من الحلف إلا أن اعتمد على قواه الذاتية وداهم الرملة واحتلها عام ١٠٢٦. وكان ذلك نصراً مظفراً للقوى الشامية. فرضح الظاهر للأمر الواقع، ولجأ إلى سياسة الملاطفة.

واستطاع الظاهر أن يستميل والي دمشق إلى صفه عام ١٠٣٠. وعند ذاك خرج الخليفة، أوجيشه من مصر، واشتبك مع قوات حلب والرملة في مكان يسمى الاقحوانة، إلى الجنوب من بحيرة طبرية. فقتل أمير حلب، وهزم الجيشان المتحالفان شر هزيمة. فهرب آل الجراح إلى الأناضول واحتموا بالبيزنطيين. ثم عادوا بعد ذلك ليمارسوا بعض النشاط السياسي، ولكنهم أصبحوا قوة ثانوية بالفعل. وهكذا أخفق المشروع الرامي إلى اقامة دولة مستقلة في فلسطين.

لماذا أخفق المشروع الفلسطيني؟

كان القدر العلمي لفلسطين ـ المحاطة بالقوى العظمى من جميع الجهات ـ أن تصير إلى الاجهاض كل محاولة ترمي إلى جعلها كياناً سياسياً مستقلاً.

فمصر لا تسمح بقيام مثل هذه الدولة، إلا إذا فرضتها قوة أخطر من مصر وأعظم. والعراق لا يسمح ولا الأناضول. وحتى الشطر الشمالي من الشام، وهو دوماً أقوى من الشطر الواقع إلى الجنوب من دمشق، لم يكن يسمح باستقلال فلسطين حين يتمكن من اقامة سلطة قوية تستطيع أن تواجه القوى الثلاث المحيطة ببلاد الشام. وتجربة الحمدانيين مع ابن الجراح من شأنها أن تؤكد هذه الفكرة. ولكن شمال الشام كان دوماً يصطدم بالمصريين في جنوب الشام. فيرغمونه على التقهقر إلى دمشق، أو حتى الى الشمال منها، وهذا ما حدث بالفعل لسيف الدولة الحمداني.

وهكذا تحتم على جنوب الشام، أو على فلسطين حصراً، أن لاتكون إلا ممراً للقوى العظمى المندفعة من مصر، أو باتجاه مصر. هكذا كان الوضع في العصر العربي، أو في اواخر العصر العبراني، منذ سرجون الآشوري وحتى نبوخذ نصر، بل حتى عصر الفرس والمكدونيين. فما كان للعبرانيين أن يؤسسوا دولتين في فلسطين (على حد زعم التوراة) إلا بسبب خمود القوى في مصر والعراق والأناضول، بعد مرحلة من التوقد منقطعة النظير. وكان شمال الشام الآرامي عهد ذاك قادراً على ازالة دويلة داود وسليمان، لو أنه ترك لذاته. ولكن شمال الشام انخرط في صراع طويل مع الآشوريين، فكان درعاً لجنوب الشام يقيه غارات العراق، الأمر الذي مكن داود وسليمان من بناء دويلتهما المستقلة. وحين سقط الشطر الشمالي من الشام في أيدي الآشوريين، بات من المحتم أن يسقط نصفه الجنوبي أيضاً. وهذا هو ما حدث بالفعل، إذ وصل سرجون إلى رفح ودمرها. وقد ترك جيباً صغيراً في يهودا، لالشيء إلا لأن هذا الجيب الصغير قد كان بحكم الساقط. ولم تتنازل مصر عن جنوب الشام لسرجون وخلفائه، إلا لأنها كانت أعجز من أن تتصدى لآشور.

ولئن كان داود وابنه سليمان قد قاتلا ضد الآراميين في البقاع ودمشق وحماه وتدمر، كما تزعم التوراة، فانهما لم يفعلا شيئاً سوى أنهما حطما بأيديهما ذلك السدّ

المنبع الذي يقيهما شر الآشوريين، أو أسهما في تحطيمه، الشيء الذي تقتضي السياسة عكسه بالضبط ولهذا يصعب على المرء أن يصدق ذلك. ومن المحتمل أن يكونا قد تدخلا في شؤون الآراميين، من باب الانحياز لهذا الطرف الآرامي ضد ذاك الطرف. ولكن ليس من أجل دعم الصمود الأرامي في وجه الآشوريين.

وعلى أية حال، فان القانون الأكبر الذي يتحكم بتاريخ فلسطين هو هذا: ما من دولة مستقلة في فلسطين، إلا إذا خمدت القوى في مصر والعراق والأناضول وشمال الشام.

ولكن، هل يمكن لهذا القانون أن يستمر في آونة الصناعة الثقيلة، وفي عصر تحولت فيه مراكز القوى العالمية من آسيا وحوض البحر المتوسط، إلى اوروبا وأمريكة الشمالية؟

كان يعقوب بن كلس، اليهودي الأصل، وزيراً للفاطميين في مصر. وحين حضرته الوفاة زاره العزيز وسأله النصح. فقال الرجل الداهية: سالم الروم ماسالموك، وارض من حلب بالخطبة والسكة، أما ابن الجراح فاقلته فور القبض عليه.

اذن، فلتقبل مصر بحكم اسمي في شمال الشام. ولكن عليها ألا تسمح البتة بأي استقلال تناله فلسطين وتنفصل بواسطته عن بنية مصر. وهذه هي بالضبط سياسة الفراعنة منذ العصر الهرمي.

٦ ـ السلاجقة في فلسطين:

بعدما انتصف القرن الحادي عشر أخذت الأمور تتطور تطوراً جذرياً في العالم العربي. فقد ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر (١٠٣٥ ـ ١٠٩٤)، ودبت فيها الشيخوخة. فتحرك بدر الجمالي والي عكا ودخل القاهرة وهيمن على الأمور، وتولى وزارة مصر.

أما بغداد الشائخة منذ زمن بعيد فقد دخلها السلاجقة بقيادة طفرل بك، عام ١٠٥٤، وهيمنوا على مقاليد الحكم فيها. وحين مات طفرل بك خلفه ابن أخيه ألب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢). فزحف السلاجقة في عهده على الشام وأنزلوا فيه خراباً كبيراً، كما أنهم اصطدموا مع البيزنطيين في معركة حاسمة تسمى منازكرد، قرب بحيرة وان، في الأناضول الشرقي، حيث احرزوا على البيزنطيين نصراً كان من شأنه أن يحسم مصير الاناضول لصالح السلاجقة.

وكلف ألب أرسلان أحد أعوانه، واسمه أتسز، بالتوجه جنوباً حتى فلسطين. فاحتل القدس عام ١٠٧١، ولكن عسقلان لم ترضخ له بسبب الدعم المصري القادم من البحر. وعبثاً حاول أتسز أن يدخل مصر، فقد تصدى له بدر الجمالي وأرغمه على الالتزام بحدود الشام. وحين عاد أتسز إلى دمشق، أعمل السيف في رقاب السكان عام ١٠٧٦، وذلك في عهد السلطان ملكشاه، ابن ألب ارسلان ووريث عرشه.

واستطاع سليمان، وهو ابن عم لألب أرسلان، أن يقتحم الأناضول وأن ينتزع معظمه من البيزنطيين. واتخذ نيقية عاصمة له، وهي مدينة على بحر مرمرة، قريبة من بيزنطة.

أما تتش بن ألب أرسلان، فقد استولى على الشام كله. وحين قتل تتش عام ١٠٩٥، اقتسم ولداه مملكته، فنال ابنه رضوان مدينة حلب، بينما نال دقاق، ابنه الآخر، مدينة دمشق.

واستغل الفاطميون الخلافات الدائرة بين الأخوين، رضوان ودقاق، وهاجموا فلسطين واستردوها من السلاجقة، عام ١٠٩٨، ولكنهم خسروها للصليبيين بعد سنة واحدة من هذا التاريخ. وكان بدر الجمالي قد توفي، وورث منصبه ابنه الأفضل الذي سوف يخدعه الصليبيون ويستولون على فلسطين.

٧ ـ الأوضاع العامة :

ازدهرت فلسطين أيما ازدهار في هذا الطور العربي ، ولا سيما حين كانت تهدأ فيها الحروب والثورات المتكررة . وقد زارها الرحالة الفارسي ناصر خسرو في أواسط القرن الحادي عشر وقدم لها وصفاً مفصلاً خلاصته ازدهار الزراعة والعمارة والتجارة والصناعة . وتحدث عن كثرة زيت الزيتون في القدس ، ويبدي اعجابه برخام الرملة المتنوع والكثير الألوان ، وكذلك بتين الرملة الذي «ليس أحسن منه في أي مكان» . وسافر ناصر خسرو من القدس إلى الخليل «عن طريق جنوبي به قرى كثيرة وزروع وحدائق وشجر بري لا يحصى ، من عنب وتين وزيتون وسمّاق» .

وقبل ناصر خسرو بنصف قرن دوّن المقدسي (٩٤٦ ـ ١٠٠٠) وصفاً مفصلاً لفلسطين واحوالها واوضاعها في أواخر القرن العاشر ، وذلك في كتابه المهشور ، «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» . والمقدسي أخبر الناس بفلسطين في ذلك الزمن ، فهو ابن القدس ، من جهة ، وهو من أبرز الجغرافيين العرب ، من جهة أخرى .

ومن أبرز أخبار فلسطين في هذا الطور العربي أن خراجها قد بلغ في عصر المأمون ثلاثمائة وعشرة آلاف من الدنانير ، فضلاً عن ثلاثمائة ألف رطل من الزيت . أما ولاية الاردن ، ومركزها طبرية ، فقد بلغ خراجها سبعة وتسعين ألف دينار . ولكن خراج فلسطين قد نقص بعض الشيء في عهد المعتصم ، أما خراج الاردن فقد ارتفع قليلاً .

وجدير بالتنويه أن ابن طولون قد بنى قلعة يافا ، كما أنه أعاد تحصين عكا ووسع ميناءها وجعلها مدينة تجارية مرموقة . وقد وظف من أجل تحصين عكا وتوسيع مينائها مهندساً يسمى أبا بكر المقدسي ، وهو جد الجغرافي المقدسي المشهور .

وقد عرفت فلسطين في هذا الطور عدداً كبيراً من رجال الثقافة والعلم، وكان أشهرهم الامام الشافعي، المدفون في غزة، ومحمد بن أحمد التميمي المقدسي، وهو طبيب وصيدلاني وعالم في النبات، ومحمد بن أحمد المقدسي، الجغرافي المشهور. كما اشتهرت بعض النساء في مضمار التصوف والزهد، وأبرزهن آمنة الرملية التي عاشت في القرن التاسع الميلادي، وارتحلت إلى بغداد لتلتقي بأكابر الطائفة الصوفية.

ومن الغرائب حقاً أن لا تنجب فلسطين أي شاعر كبير في هذا الطور الذي ازدهر فيه الشعر العربي ازدهاراً مرموقاً. وهذا ما يؤكد قول المقدسي عن المدينة التي ولد فيها:

«الفقيه مهجور، والأديب غير مشهور». ولكن طبرية، على أية حال، قد كان لها شرف استضافة المتنبي لفترة قصيرة من الزمن.

الفصل السابع

الحروب الصليبية

حين راح الصليبيون يحاصرون القدس ويحتلونها في ١٠٩٩/٧/١٥، لم يكن فيها سوى ألف جندي فاطمي فقط، مع أن الخطر الصليبي لم يعد خافياً على أحد، بعدما احتلوا انطاكية ودمروا المعرة، واخفقت جميع الجهود التي بذلتها الموصل وحلب ودمشق لصدهم عن الشام. ويبدو أن وزير مصر، الأفضل بن بدر الجمالي، كان قد اتفق معهم على اقتسام الاقليم الشامي، بحيث ينال الافرنج نصفه الشمالي، بينما يكون النصف الجنوبي حصة لمصر. ولولا ذلك لكان الأفضل قد حشد واستعد لملاقاتهم في الجليل أو في السواحل اللبنانية.

وعلى أية حال، فقد حشد الأفضل بعد سقوط القدس وخرج إلى فلسطين. ولكن الافرنج داهموا معسكره وقتلوا عدداً كبيراً من جنوده، قرب عسقلان، وهرب الأفضل إلى مصر. ولكن ليحشد من جديدة، وليخوض عدة معارك موفقة. وقد كانت معركة الرملة، عام ١١٠٢، أبرز هذه المعارك، إذ لقد أحرز الجيش المصري نصراً مؤزراً على الافرنج.

وقد أساء هؤلاء الغزاة للناس في الشام كثيراً، إذ لقد شووا بعض أهل المعرة وأكلوهم، فاشتكى أهل الشام لخليفة بغداد. وراسل الخليفة سلطان السلاجقة القابع في اصفهان، فكان أن تحرك مودود، أمير الموصل، لمقاتلة الافرنج. ووصل الأمير إلى دمشق وتحالف مع حكومتها، ثم عبر نهر الاردن، على جسر الصنّبره، إلى الجنوب من بحيرة طبرية، واصطدم بالافرنج قرب بلدة تسمى الاقحوانة، وذلك عام ١١١٣. وانتصر مودود انتصاراً باهراً، وأرسل الخيل بين نابلس وعكا، فراحت تنهب وتأسر وتحرق وتدمر وتقتل دون أن تلقى أية مقاومة ذات شأن. وعاد مودود إلى دمشق ليغتاله الحشاشون في الجامع الأموي، بعدما اتفق مع الجنود الذين سرحهم على العودة اليه في الربيع القادم، ليستأنف القتال من جديد.

أما في شمال الشام فقد دارت معارك كثيرة، أهمها معركة ساحة الدم، ١١١٩، التي قتل فيها الكونت روجر، امير انطاكية.

* * *

أقام الافرنج في الشام ثلاث امارات، فضلاً عن مملكة القدس: الرها، انطاكية، طرابلس. وكانت هذه الامارات تابعة لملك القدس الذي اعتبر أعلى سلطة افرنجية. وكان غودفري دي بويون، الفرنسي الأصل، اول ملك على القدس. وحين توفي، بعد احتلال القدس بسنة واحدة، ورثه أخوة بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨). ومن أبرز امراء الصليبيين في هذا الطور، امير نورماندي يسمى بوهمند، وكذلك ابن اخته تنكرد، وامير فرنسي آخر يسمى ريموند سان جيل، من مدينة تولوز في جنوب فرنسا.

وقد تسلم تنكرد، النورمندي الايطالي، ولاية الجليل في بداية الفتح، فعمل على طرد السكان المسلمين من الأرض، واستبقى المسيحيين واليهود، فلجأ بعض الناس إلى دمشق وبنوا فيها حي الصالحية.

فالحقيقة أن الافرنج ما كانوا إلا أقواماً موغلة في الهمجية. فقد هدموا يافا (١٠٩٩)، وأخذوا أرسوف بالأمان (١١٠١)، ولكنهم طردوا أهلها منها، ثم فتحوا قيسارية بالسيف (١١٠١) ونهبوها وجزروا أهلها، وأعانهم الاسطول الجنوي على ذلك. أما القدس فقدفتكوا بأهلها دون تمييز بين مسلم أو مسيحي. وقد تجمع اليهود في كنيسهم، فأشعل الفرنجة النار بالكنيس على من فيه. وهكذا قتلوا في القدس سبعين ألفاً، على ما يقول ابن الأثير. وقد ذكر هذا المؤرخ بأنهم ذبحوا في المعرة ستين ألفاً، بعدما أعطوا الأمان للسكان. والحقيقة أن الغدر من أبرز صفات الشعوب الاوروبية الغربية. وفي انطاكية جزروا السكان، وقتلوا المسيحيين قبل المسلمين. كما ذبحوا الكثير من أهل سروج وبيروت. أما طرابلس، فقد ذبحوا بعض سكانها وأشعلوا النار ببعض أحيائها، وأتت ألسنة اللهب على مكتبتها التي كانت واحدة من أعظم مكتبات ذلك الزمان.

والحقيقة أن الصليبيين ماكان لهم أن ينتصروا لولا المساعدات الكبرى التي بذلتها أساطيل المدن الايطالية، ولا سيما جنوه والبندقية، التي اسهمت ايما اسهام في محاصرة المدن الساحلية، مقابل حصة من الغنيمة. كما أن المقاتلين الاوربيين ظلوا يتدفقون من اوروبا على الشام منذ بداية الحروب الصليبية وحتى نهايتها. وكانت حملة عام ١١٠١ أبرز امداد، إذا ما استثنيت الحملات الكبرى. ولكن حملة ١١٠١ قد منيت بهزيمة شنيعة في الأناضول، ولم تصل إلى الشام.

أما سكان فلسطين فقد تشرد الكثيرون منهم. وبقي بعضهم في الأرض ليمارسوا قطع الدروب في الجبال، ولا سيما في جبل الكرمل. وكان المسافرون الافرنج يتعرضون لاعتداءات الفلسطينيين على الدوام. وحين انتصر مودود في الاقحوانة عام ١١١٣، هب الفلاحون في منطقة نابلس، وداهموا المدينة ونهبوها وقتلوا بعض الرجال من حاميتها الفرنجية.

ولم تسقط المدن الساحلية كلها دفعة واحدة، فقد سقطت حيفا عام ١١٠١، وعكا عام ١١٠٤، وطرابلس عام ١١٠٩، وصيدا وبيروت عام

١١١٠، وقد سقطت هاتان المدينتان الأخيرتان بمساعدة اسطول نرويجي. أما صور فقد تأجل سقوطها حتى عام ١١٢٤، وذلك بفضل الدعم الذي قدمه لها الأسطول المصري. وعجز الافرنج عن الاستيلاء على عسقلان حتى عام ١١٥٣، وذلك لشدة قربها من مصر.

وقد تنبه الافرنج لأهمية الأراضي القريبة من البحر الميت، وذلك لأنها تشكل تقاطعاً لأربع طرق، الواحدة إلى الحجاز، والثانية إلى الشام، والثالثة إلى مصر، والرابعة إلى العراق. ولهذا فقد أنشأوا هناك سبعة حصون، أهمها قلعة الشوبك التي بنوها عام ١١١٥، وقلعة الكرك، وقد بنوها عام ١١٤٠.

وأهم شيء تجدر الاشارة إليه أن السلاجقة والفاطميين، أو السنة والشيعة، قد تناسوا أحقادهم وخلافاتهم، وقاتلوا جنباً إلى جنب ضد الصليبيين، في اكثر من معركة.

* * *

وفي الحق أن التفوق الافرنجي قد تلاشى ابتداءاً من عام ١١٠١. يوم دحر الأتراك السلاجقة حملة شرسة أبادوا معظم رجالها في الأناضول. وجاءت معركة حران عام ١١٠٤، التي انتصرت فيها حكومة الموصل على الافرنج، لتؤكد أن الصليبيين ما عادوا شيئاً ذا بال لولا الأساطيل الايطالية الشديدة النشاط في الشواطىء الشامية. وتأكد ضعف الافرنج حينما أخفقوا في حصار حلب سنة ١١٢٥، وفي الهجوم على دمشق في السنة التالية.

وعلى أية حال، فقد تغير الموقف جوهرياً يوم صار عماد الدين زنكي حاكماً على الموصل سنة ١١٢٧. وقد ضم مدينة حلب إلى املاك دولته وأخذ ينازل الافرنج في شمال الشام وينتزع منهم المواقع والحصون. وقد حاول عبثاً أن يضم مدينة دمشق إلى أملاكه. وحين أخفق في هذا المضمار الوحدوي، فقد عمد إلى مهاجمة مدينة الرها والاستيلاء عليها عام ١١٤٤. وبذلك أصبحت جميع

الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات، وكذلك إلى الشرق من نهر العاصي، في قبضة الحكومة السورية الآخذة بالنمو.

ولكن عماد الدين قد مات غيلة عام ١١٤٦. فورثه ولداه، سيف الدين غازي الذي أخذ الموصل، ونور الدين محمود الذي أخذ حلب. ولكن اوروبا حشدت من أجل الرها. وخرجت الحملة الصليبية الثانية يقودها ملك المانيا، كونراد الثالث، وملك فرنسا لويس السابع. وانهكت الحملة في الأناضول وفقدت الكثير من رجالها على أيدي جنود مملكة قونية السلجوقية. وتجمع الصليبيون في عكا، وقرروا أن يفرضوا الحصار على دمشق. وبالفعل حوصرت المدينة في تموز عام ١١٤٨. ولكن أهل دمشق استبسلوا في الدفاع عن مدينتهم بعدما وصلتهم نجدة كبيرة من مدينة بعلبك. ودحر الصليبيون عن أسوار دمشق، وطاردهم الناس حتى عبروا نهر الاردن.

وتنمر نور الدين، ملك حلب، واصطدم بريموند، امير انطاكية وقتله. ثم زحف باتجاه دمشق وضمها إلى أملاكه عام ١١٥٤. وبذلك اتحدت سوريا من نهر اليرموك جنوباً إلى أطراف الاناضول شمالاً، باستثناء الساحل، في دولة واحدة.

وتدهورت أوضاع مصر كثيراً. وتدخل نور الدين في شؤونها الداخلية. فقد دار الصراع بين سوريا والافرنج من أجل الهيمنة على مصر. وقامت سوريا بثلاث حملات على وادي النيل، بقيادة ضابط فولاذي يسمى أسد الدين شيركوه، وهو عم لصلاح الدين الأيوبي، الذي اشترك في الحملات الثلاث على مصر. واستطاع شيركوه أن يصبح وزيراً للعاضد، ملك مصر الفاطمي. ولكنه سرعان ما توفي ليحل في منصبه ابن اخيه، صلاح الدين، عام ١١٦٩.

صد الأيوبي الافرنج والبيزنطيين عن دمياط، وألغى الخلافة الفاطمية عام ١١٧١. وضم الشطر الشرقي من ليبية إلى مملكته، كما ضم النوبة واليمن والحجاز. وحين توفي نور الدين عام ١١٧٤. زحف الأيوبي إلى بلاد الشام

واحتل دمشق. وظل يقارع الزنكيين حتى استولى على حلب والموصل. وبذلك أصبح يهيمن على مملكة واسعة وغنية بالسكان والموارد الاقتصادية.

وفي حزيران، عام ١١٨٧، زحف الايوبي وعبر نهر الاردن، وحاصر مدينة طبرية واحتلها، ولكن قلعتها ظلت تقاوم. وكان الصليبيون قد احتشدوا في عكا، غير أنهم تحركوا إلى صفورية يوم عبر الايوبي نهر الاردن. ثم زحفوا شرقاً باتجاه طبرية لانقاذها من المهاجمين. ولكن صلاح الدين نصب لهم كميناً قرب حطين، وأملى عليهم أن يقاتلوا في زمان معين ومكان محدد. وهزم الصليبيون هزيمة منكرة في حطين، كان من أهم نتائجها سقوط فلسطين كلها في قبضة الايوبيين، الذين استولوا على القدس بعد حطين بثلاثة أشهر.

وخرجت الحملة الصليبية الثالثة يقودها عدد من الملوك والأمراء، أشهرهم فيليب اوغست، ملك فرنسا، وريكارد س قلب الأسد، ملك انجلترا.

وتحرك الافرنج من صور وضربوا الحصار على مدينة عكا. وطال الحصار أكثر من سنتين، واشتد بعد وصول الفرنسيين ثم الانجليز عام ١١٩١. وعبثاً حاول الأيوبي ان ينقذ عكا فاستسلمت في شهر تموز من العام نفسه. وذبح قلب الأسد اكثر من الفي رهينة، لأن الأيوبي قد تأخر في دفع الأموال التي اتفق عليها عند سقوط عكا.

وتحرك قلب الأسد جنوباً، فأغارت عليه القوات الأيوبية في غابة أرسوف. ثم تابع الزحف وخاض معركة صغيرة في دير البلح حيث أحرز النصر. وحين حاول الأيوبي أن يسترجع يافا، تصدى له قلب الأسد، وراح كل من الطرفين يزعم انه المنتصر. ولكن بقاء يافا في أيدي الفرنجة يؤكد أنهم المنتصرون.

وراح قلب الأسد يطلب الصلح ويلح في الطلب، وذلك لأن أخاه جون قد انقلب عليه ونصب نفسه ملكاً في انجلترا. فصار قلب الأسد مضطراً لمغادرة فلسطين من أجل تسوية الأمور في بلاده. وكان الملك العادل، سلطان مصر، وشقيق صلاح الدين، سفيراً بين الطرفين. ونجحت المفاوضات، وابرم الصلح

في الرملة عام ١١٩٢ . وعاد صلاح الدين إلى دمشق، وأصيب بالحمى فمات في آذار، عام ١١٩٣ .

وبذلك انطوت الحقبة الأولى من الحروب الصليبية .

* * *

بقي من الحروب الصليبية زهاء مائة سنة، ولكنها فقدت زخمها وفورانها وأخذت تميل إلى الركود . ومما خفف ويلاتها أن الحملة الصليبية الرابعة قد اتجهت إلى بيزنطة واستولت عليها سنة ١٢٠٤ .

أما الحملة الخامسة فقد اتجهت إلى مصر سنة ١٢١٨ وضربت الحصار على مدينة دمياط الواقعة في الزاوية الشمالية الشرقية من الدلتا . فقد ادرك الاوروبيون أن احتلالهم لمصر هو الذي يكفل استمرارهم في الشام، ويضمن سيطرتهم على البحر الأحمر والطرق المؤدية إلى الهند والشرق الأقصى .

وفي بداية الحصار مات الملك العادل سلطان مصر، فخلفه ابنه الكامل . وسقطت دمياط بعد قتال دام اكثر من سنة . ثم زحف الافرنج جنوباً باتجاه القاهرة، فتصدى لهم الجيش الأيوبي بعدما تعزز بقوات الشام . ودار القتال عنيفاً فهزم الافرنج، فطلبوا الصلح وبالفعل صالحهم الكامل على أن يرحلوا عن دمياط . ورحلوا بالفعل بعد قتال دام أربعين شهراً .

وتوثقت الصلات الودية بين الكامل وبين فريدرك الثاني، ملك صقلية، وهو من كان البابا يلح عليه للقيام بحملة صليبية . ولم تكن الدولة الايوبية قادرة على التصدي لحملة جديدة . فدارت المفاوضات الدبلوماسية بين مصر وصقيلة، وتم الاتفاق على اعطاء القدس لفريدرك دون حرب . وبالفعل جاء هذا الملك إلى القدس ولبس تاجها، ثم رجع إلى بلاده، وذلك عام ١٢٢٨ .

وحين تسلم الصالح نجم الدين منصب السلطنة الأيوبية، عام ١٢٤٠، كان اول عمل فكر به هو استرداد القدس من الصليبيين . فقاد فرقة من

الخوارزميين الفارين من امام جنكيز خان، وزحف إلى القدس واحتلها عام ١٢٤٤.

ولم يكن الصالح محبوباً من بعض الايوبيين المقيمين في الشام، فتحالف ملك حمص وملك دمشق وملك طبرية مع الافرنج. واحتشدت قوات الحلف في غزة. ولم تكن فرقة الفرسان الخوارزميين المؤلفة من عشرة آلاف فارس قادرة على أن تجابه هذا الحلف وحدها. فأرسل الصالح فرقة أخرى من القاهرة يقودها الظاهر بيبرس، وهو أحد مماليك السلطان.

واصطدم بيبرس بالحلف وهزمه هزيمة مروعة قرب غزة، عام ١٢٤٤.

وهكذا ثبت أن مصير الشام، ولا سيما فلسطين، تحدده مصر، شريطة أن لا تتدخل أية قوة من الخارج.

الفصل الثامن

المماليك

١ ـ سقوط عكا:

لم ترض اوروبا عن سقوط بيت المقدس وضمه إلى الدولة الأيوبية. وكانت فرنسا أقوى دولة اوروبية على البحر المتوسط، كما كانت البحرية في اوروبا قد تطورت إلى حد مرموق، بحيث صار باستطاعة الصليبيين أن يهاجموا العالم العربي من خلال البحر، ولم يعودوا بحاجة إلى الطريق البري الطويل والمكلف والخطير.

فما ان فقد الصليبيون في عكا كل أمل باسترداد القدس، بعد معركة غزة الرهيبة، حتى أخذ لويس التاسع، حفيد فيليب اوغست الذي اشترك في الحملة الثالثة، يفكر بالهجوم على مصر. وفي عام ١٢٤٩ أبحر الملك الفرنسي على رأس اسطول ضخم قدر بألف وثمانمائة سفينة تحمل ثمانين ألف جندي.

وضرب لويس التاسع الحصار على دمياط واحتلها. وكان الصالح نجم الدين مريضاً في تلك الأثناء، ولكنه مع ذلك نهض للدفاع، وزحف من القاهرة

إلى الشمال وخيم في المنصورة، ومعه قوات ممتازة، من حيث العدد والعدة.

وتجرأ لويس، وهو ملك شديد الورع والتقى، وزحف جنوباً واقتحم المنصورة نفسها، في شباط عام ١٢٥٠. وفي شوارع البلدة دار القتال عنيفاً بين الفرنسيين والمصريين. وقاتل الشعب هذه المرة، إذ راح الناس يقذفون الافرنج بالادوات المطبخية وأثاث المنازل. أما سفنهم المبحرة في النيل فقد صب عليها المصريون جحيماً من النيران اليونانية المتفجرة.

ومات السلطان أثناء المعركة، ولكن زوجته شجرة الدر، قد كتمت الخبر، وظلت تصدر الأوامر باسمه، من داخل خيمته. وبعد قتال عنيف، هزم الافرنج وأسر لويس، ومعه قيادة جيشه كلها. والحقيقة أن الفرقة التي كان يقودها الظاهر بيبرس هي التي حسمت معركة المنصورة لصالح مصر.

وتسلم تورانشاه، ابن الصالح، عرش ابيه. ولكنه كان غلاماً غراً لا يحسن التصرف. فأساء إلى زوجة أبيه، كما أساء إلى المماليك، فقتلوه وارتاحوا من شره، ونصبوا شجرة الدر ملكة على مصر.

وأخيراً أطلق سراح لويس ونبلائه مقابل فدية مقدارها أربعمائة ألف قطعة ذهبية لم يدفع إلا جزءاً منها. وغادر الملك الفرنسي مصر، وذهب إلى عكا. وأقام هناك مدة من الزمن يراسل المغول ويحثهم على مهاجمة العالم العربي. وتحالف مع الحشاشين، وراح يحصن قيسارية ويافا وعكا وحيفا. ولكنه عاد إلى فرنسا بعد معركة المنصورة بأربع سنوات.

وفي مصر تزوجت شجرة الدر من عز الدين أيبك، وهو أحد مماليك زوجها الراحل، ولكنها قتلته يوم علمت أنه سوف يتزوج امرأة أخرى. ثم ما لبثت شجرة الدر نفسها أن قتلت هي الأخرى بأيدي جواريها.

ولكن الأحداث أخذت بالتطور على نحو نوعي إلى الشرق من دولة المماليك. فقد هجم هولاكو، أحد ملوك المغول، على بغداد، سنة ١٢٥٨، ودمرها بطريقة همجية مروّعة، وذلك بعد مراسلات كثيرة بينه وبين البابا. وفي السنة

التالية هاجم حلب، وأنزل بها ما أنزله ببغداد من قبل. ثم عاد هولاكو إلى ايران بعدما أسند قيادة جيشه إلى ضابط يسمى كتبغا. وزحف جيش المغول جنوباً، ووصل إلى فلسطين. ومن الواضح أنه كان يريد مصر.

آثر السلطان المملوكي، المظفر قطز، أن لا ينتظر المغول في وادي النيل، إذ الأفضل أن يجابههم في فلسطين، قلعة الدفاع المبكر عن مصر. فخرج إلى عكا، حيث أبرم اتفاقية عدم اعتداء مع الافرنج الذين روّعتهم كثافة الجيش المصري وحسن استعداده للقتال. ثم زحف السلطان شرقاً إلى مرج ابن عامر، والتقى مع المغول في مكان يسمى عين جالوت، يقع إلى الغرب من بيسان. ودارت الدائرة على المغول في الثالث من أيلول عام ١٢٦٠، وقتل كتبغا، وأبيد معظم جيشه. وهرب المغول من دمشق وحلب واخلوا سوريا للسلطان المنتصر.

ولكن بيبرس اغتال قطز إثر المعركة، وتربع فوق عرش مصر. وخرج السلطان الجديد إلى فلسطين، ونهب مدينة الناصرة، ثم زحف باتجاه عكا حيث خاض معركة حامية الوطيس عند أسوارها، كتب فيها النصر لجيش المماليك. وداهم بيبرس قيسارية واحتلها عام ١٢٦٥، ثم دمرها لكي لا يعود اليها الافرنج. وحاصر عتليت فاستعصت عليه قلعتها. ولكنه دمر ارسوف وحاصر صفد وأباد حاميتها. وحرر الجليل كله ما عدا عكا، التي هاجمها بعد سنتين، أي عام ١٢٦٧. وفي السنة التالية هاجم يافا واحتلها بعد معركة مريرة. ثم انقض على انطاكية ودمرها عام ١٢٦٨.

وفي السنة التالية عاد بيبرس إلى عكا وخاض قرب اسوارها معركة كتب فيها النصر للمماليك. وانتزع حصن الأكراد المنيع من الافرنج. ثم حاصر صافيتا واحتلها. كما احتل حصن كوكب الهوا في فلسطين عام ١٢٧١. والحقيقة انه لم ينقذ الصليبيين من بيبرس إلا المغول المتحالفون مع الافرنج. وهكذا تحتم على دولة المماليك الفتية أن تقاتل ضد غزوين في آن واحد.

وفي تلك السنة الأخيرة ، وصل ادوارد، ولي عهد انجلترة **إلى فلسطين**، على رأس حملة جديدة. ولكن هذه الحملة كانت ضعيفة فلم تستطع ان تفعل شيئاً. واغتيل الأمير ادوارد في فلسطين، ولكنه لم يمت وبعد ذلك أبرم الصلح بين دولة المماليك وبين مملكة عكا، على أن تحتفظ هذه المملكة بأراضيها الممتدة بين صيدا شمالاً وجبل الكرمل جنوباً. وحدث ذلك عام ١٢٧٢.

وفي أثناء هذه الحروب التي دارت بين المماليك والصليبيين، كان المغول يغيرون على شمال الشام، ولا سيما على حلب وحماة، اغارات مروعة ومدمرة. وكان على بيبرس أن يواجه القوتين المتحالفتين، قوة المغول وقوة الصليبيين في آن واحد.

وبعد ابرام الصلح مع الافرنج، تجهز بيبرس وقام بحملة على الأناضول ليخلص الشام من خطر المغول. وانتصر بيبرس على سلاجقة الروم المتحالفين مع أباقا، ملك المغول، وذلك في عام ١٢٧٧. ودخل بيبرس إلى العاصمة، قيصرية، ولكنه سرعان ما انسحب منها عندما علم بالحشود الكثيفة التي أعدها أباقا.

وبعد هذه الحملة توفي بيبرس في تموز عام ١٢٧٧، فخلفه سلطان قوي يسمى قلاوون، بعد أن حكم اولاد بيبرس مدة سنتين.

وفي أوائل عهد قلاوون شن المغول هجوماً عنيفاً على سوريا، فتصدى لهم قلاوون وانتصر عليهم انتصاراً ساحقاً، وذلك في حمص، عام ١٢٨١، بعدما تمكنوا من تدمير حلب واشعال النار فيها، قبل ذلك بسنة واحدة.

وبعدما تلاشى خطر المغول، زحف قلاوون على بلاد الصليبيين في سواحل الشام. فأبرم صلحاً مع بيروت، ثم هاجم قلعة المرقب، إلى الشرق من بانياس، واحتلها عام ١٢٨٥.

وفي سنة ١٢٨٩ حاصر طرابلس واحتلها. ثم دمرها تدميراً كاملاً لكي لا يعود الافرنج إلى احتلالها.

وذات يوم هاج الافرنج في عكا وأخذوا يذبحون المسلمين في ضواحي المدينة، دون رحمة. وبذلك نقضوا الاتفاقية التي ابرمت بينهم وبين المماليك في زمن بيبرس. فخرج قلاوون من مصر عام ١٢٩٠، وفي نيته أن يزيل عكا من الوجود. ولكنه مرض في الطريق ومات في أواخر هذا العام.

وخلفه ابنه الأشرف خليل، الذي تابع الزحف باتجاه عكا في ربيع العام التالي. واشترك الملك المؤرخ، أبو الفداء، امير حماه في حصار عكا. وكان هذا الأمير من بقايا الأيوبيين في الشام. وسقطت عكا في أيار عام ١١٩١، بعد قتال عنيف دام زهاء شهرين. وسقطت صور بعد عكا بأيام قليلة. ثم اذعنت صيدا للمماليك بعد صور بشهرين. وفي الشهر نفسه احتلوا بيروت وعكا. أما عتليت (جنوب حيفا) فصمدت حتى شهر آب. وبذلك تحرر بر الشام من الصليبيين تحرراً تاماً. ولم يبق لهم أي مكان سوى جزيرة ارواد التي تحصنوا فيها حتى عام ١٣٠٣، ثم انسحبوا منها إلى الأبد. وبذلك انتهت الحروب الصليبية.

٢ ـ فلسطين بعد الحروب الصليبية:

أمر بيبرس باعادة بناء صفد وجعلها عاصمة لولاية واسعة، تشمل صور وتبنين وهونين في لبنان، كما تشمل عكا وحيفا والناصرة وعتليت وطبرية وجنين. أما بقية فلسطين فقد الحقت بولاية دمشق وولاية الكرك.

والحقيقة أن معظم مدن الساحل الفلسطيني، والشامي بعامة، قد أصبحت خراباً في أواخر القرن الثالث عشر. ولكن بعضها أخذ ينهض من جديد بعد مرور جيل واحد على انتهاء الحروب الصليبية في فلسطين عام ١٢٩١. فقد وصل ابن بطوطة إلى غزة، زهاء عام ١٣٣٠، ووصفها بقوله: «متسعة الأقطار، كثيرة العمارة، حسنة الأسواق، بها المساجد العديدة، والأسوار عليها». ووصف الرملة بأنها «مدينة كبيرة كثيرة الخيرات، حسنة الأسواق». أما عكا وصور فقد وجدهما ابن بطوطة خراباً. ولكن الرحالة الألماني، سوخم، وقد زار عكا بعد ابن

بطوطة بعشر سنوات، فقد تحدث عن حسن عمارة عكا ونشاط أسواقها المسقوفة بالحرير. وهذا يعني أن المدينة قد اعيد بناؤ ها بعدما غادرها ابن بطوطة بقليل.

وظلت عسقلان خراباً منذ أن دمرها صلاح الدين، زهاء عام ١١٩٠، وحتى مجيء ابن بطوطة إلى فلسطين بعد ذلك التاريخ بمائة واربعين سنة على وجه التقريب.

ولكن مدن الداخل كانت شديدة الازدهار، كما يقول ابن بطوطة. فقد وصف نابلس بأنها «مدينة عظيمة، كثيرة الأشجار، مطردة الأنهار، من أكثر بلاد الشام زيتوناً، ومنها يحمل الزيت إلى مصر والشام. وبها البطيخ المنسوب اليها، وهو طيب عجيب. والمسجد الجامع في نهاية من الاتقان والحسن».

ووصف ابن بطوطة الخليل بقوله:

«عجيبة المخبر، في بطن واد، ومسجدها أنيق الصنعة، محكم العمل، بديع الحسن، سامي الارتفاع، مبني بالصخر المنحوت».

ووصل ابن بطوطة إلى القدس، التي كانت تابعة لولاية دمشق في ذلك العهد، والتي جلب والي دمشق الماء اليها من الجبال. وقد سبق ان بنى فيها صلاح الدين مدرسة ومستشفى وتكية للدراويش، وذلك بعد ما استردها من الافرنج في تشرين الأول، عام ١١٨٧. وتحدث ابن بطوطة عن المسجد الأقصى الذي «ليس على وجه الأرض مسجد اكبر منه». كما تحدث عن مسجد الصخرة المزخرف «بما يعجز الواصف». ولم ينس ابن بطوطة الكنائس، ولاسيما كنيسة القيامة المشهورة.

وغاب ابن بطوطة عن فلسطين زهاء عشرين عاماً، ثم عاد إليها من الهند، وهو في طريقه إلى المغرب، فوجد الطاعون قد فتك بأهلها، ووجد أنه قد تأخر في غزة حتى يوم وصوله اليها. يقول ابن بطوطة: «ثم سرنا إلى غزة، فوجدنا معظمها خالياً من كثرة من مات بها في الوباء. وأخبرنا قاضيها أن العدول بها كانوا ثمانين فبقي منهم الربع، وأن عدد الموتى بها انتهى إلى ألف ومائة في اليوم». وفي

خبر آخر، أورده ابن إياس، أن غزة قد فقدت اثنين وعشرين ألف نسمة في شهر واحد.

وذكر مجير الدين الحنبلي في «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل»، أن الطاعون قد فتك بمدينة القدس في زمانه، كما فتك بجميع مدن الشام ومصر، واستمر اكثر من أربعة أشهر، وذلك زهاء عام ١٤٩٠.

وعلى أية حال ازدهرت مدن فلسطين في القرن الرابع عشر، ولكن جميع بلاد المماليك قد أخذت تضمحل في القرن التالي. واشتهرت فلسطين بالمنسوجات الحريرية والكتانية والصوفية. وقد عاد ميناء عكا إلى الازدهار، ونشطت فيه التجارة الصادرة والمستوردة. واشتهرت يافا بتجارة اللؤلؤ. وكثرت أحواض الملح في عتليت. أما الزراعة فازدهرت هي الأخرى، ولاسيما زراعة الحبوب والفواكه والزيتون.

ومن أبرز أعمال بيبرس في فلسطين أنه حصن مدينة صفد وجعلها عاصمة فلسطين. كما أنشأ مكتبة ضخمة في مدينة غزة. وحسَّن مسجد القدس وحرم الخليل. وبنى جسر دامية على نهر الاردن، كما أنشأ جسوراً أخرى في الساحل. وشيد قلعة في مدينة قاقون وبني فيها جامعاً كبيراً. وجدد جامع الرملة، وانشأ فندقاً ضخماً في كل من القدس واسدود.

وفي عهد الناصر محمد بن قلاوون أُعيد بناء مدينة غزة، بعدما ضمرت بفعل الحروب. فبنى فيها أحد امراء المماليك «جامعاً ومستشفى ومدرسة وحماماً وفندقاً». والحقيقة أن عهد الناصر من أزهى عصور العمارة في التاريخ. وقد أنشأ في فلسطين الكثير من المنشآت المعمارية الضخمة ولاسيما الفنادق والمدارس والمستشفيات والجوامع. أما ابنه السلطان حسن فقد أنشأ سبع مدارس في القدس وواحدة في الخليل. وفي هذا العصر المملوكي بنيت مدينة خان يونس.

ولكن فلسطين لم تكد تعرف أحداً من الأسماء الثقافية الكبيرة. وهناك رجلان أصلهما من فلسطين، ولكنهما عاشا خارجها، وهما الصلاح الصفدي وابن حجر العسقلاني. وقد عاش الأول في دمشق، أما الثاني فقد عاش في القاهرة. وحتى القاضي الفاضل، صديق صلاح الدين الإيوبي، وقد ولد في بيسان، لم يزدهر في فلسطين، بل في القاهرة.

والحقيقة أن الثقافة لم تزدهر في فلسطين لأن هذا الاقليم لم يعرف من المدن الكبرى ما يعادل دمشق وحلب وبغداد والقاهرة. فالثقافة الرفيعة هي نتاج لمدن كبرى، دون ريب. ولكن مدن فلسطين لم تكن إلا صغيرة طوال التاريخ.

الفصل التاسع

العثمانيون

١ ـ نهاية المماليك :

دب الضعف في أجهزة الكيان المملوكي منذ اوائل القرن الخامس عشر، نتيجة لسوء الادارة، وللصراع بين الأمراء. وراحت الطواعين والمجاعات تفتك بالشعب وتهبط بعدد السكان إلى ما دون النصف. وأخذ الانحطاط يترسب إلى الحركة الثقافية بعد وفاة المقريزي تلميذ ابن خلدون أما الجيش المملوكي الذي صد المغول عن الشام، وأنهى الوجود الصليبي فيه، فقد خضع للضعف والعجز، نتيجة للسلام الطويل الذي عاشته مصر والشام في القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

وطوال هذين القرنين كان الأتراك العثمانيون في حرب دائمة مع اوروبا، فأزالوا الدولة البيزنطية، بعدما فتحوا مدينة قسطنطين (بيزنطة، أو القسطنطينية) وسموها استنبول، أو الأستانة. كما انهم قد اندفعوا في البلقان وحوض الدانوب، حتى وصلوا إلى حدود النمسا في اوائل القرن السادس عشر.

وكان سلاطين المماليك لا يخافون شيئاً كما يخافون بني عثمان. فقد اعتاد السلطان برقوق، الذي عاصر تيمورلنك، أن يقول: الجميع سوف يساعدونني على تيمور، فهو لا يخيفني، وكل خوفي من ابن عثمان.

والحقيقة أن التخريب الذي أنزله تيمور بالمدن السورية، ولا سيما بدمشق وحلب، عام ١٤٠٠ قد كان واحداً من الأسباب التي أدت إلى اضمحلال الكيان المملوكي، وبالتالي العالم العربي كله. هذا فضلاً عن التدمير الفظيع الذي ألحقه الصليبيون والمغول بمصر والهلال الخصيب.

* * *

زحف السلطان سليم الأول (١٥١٢ ـ ١٥٢٠) على سوريا، والتقى بالسلطان المملوكي قانصوه الغوري، في مرج دابق، إلى جوار مدينة حلب، عام ١٥١٦. ودارت الدائرة على جيش المماليك، إذ لم يستطع الصمود أمام جيش العثمانيين المدجج بالأسلحة النارية. فتراجع الغوري إلى مصر متخلياً عن بلاد الشام للعثمانيين، الذين سرعان ما احتلوا مصر، وقضوا على سلطنتها. والحقيقة أن جميع المدن في الشام لم تقم بأية مقاومة تستحق الذكر.

قسّم العثمانيون الشام إلى ثلاثة أقسام ادارية، أو إلى ثلاث ولايات، وهي حلب ودمشق وطرابلس. أما فلسطين فقد ضمت كلها إلى ولاية دمشق. وهذا دليل قاطع على أن فلسطين لم تعرف المدينة الكبيرة يومذاك.

ولقد قسّم العثمانيون الولاية الواحدة إلى سناجق، أو محافظات، كما يقال اليوم. وهذه هي سناجق فلسطين في العهد العثماني، أو في شطره الأول: سنجق صفد، سنجق يافا، سنجق غزة، سنجق نابلس، وسنجق القدس.

* * *

وعلى أية حال، فقد ازدهرت البلاد في القرنين السادس عشر والسابع عشر، أو قل منذ بداية الحكم العثماني، وحتى اواسط القرن السابع عشر. واشتهرت فلسطين بزراعة الحبوب، ولا سيما زراعة الشعير في غزة، والقمح في الشمال. كما

ازدهرت فيها زراعة القطن والزيتون. وراحت فلسطين تصدر **الصوف والقطن** والزيت والحبوب والحرير والأقمشة القطنية والكتانية. ونشط ميناء يافا نشاطاً مرموقاً طوال العصر العثماني. أما الموانىء الأخرى، مثل عكا وحيفا وغزة، فقد ظلت خاملة حتى اواسط القرن الثامن عشر. أما السبب الذي ضمن النشاط الدائم لميناء يافا فيتلخص في أن تلك المدينة هي البوابة البحرية للقدس وبيت لحم. فالحجاج الاوروبيون المتدفقون دوماً على الأماكن المسيحية المقدسة لا يجدون ميناء أقرب من يافا إلى تلك الأماكن.

وحل السلام في ربوع فلسطين منذ الفتح العثماني وحتى اواسط القرن الثامن عشر، يوم راح ظاهر العمر يحاول تأسيس دولة مستقلة في الجليل. ولكن حركة الأمير فخر الدين المعني الكبير قد مسَّت الأطراف الشمالية لفلسطين. فقد ضم هذا الوالي اللبناني النشيط كلاً من صفد وطبرية والناصرة ونابلس إلى ولايته. ولكن فخر الدين لاقى حتفه في استنبول عام ١٦٣٥، بعد حروب كثيرة ومعارك دامية، اشتركت فيها بعض مدن فلسطين بوصفها جزءاً من ولاية الأمير الطموح. ولقد قتل والي صفد، وهو علي بن فخر الدين نفسه في احدى هذه المعارك.

وفي عام ١٦٦١ حلت بفلسطين مجاعة رهيبة، نتيجة للقحط والجفاف وغزو الجراد. وابتداء من هذا التاريخ، أخذت أحوال الاقليم تتردى على الدوام. والحقيقة أن الدولة العثمانية قد أخذت تنتقل من القوة إلى الضعف ابتداء من أواخر القرن السابع عشر. فأخذت المدن تضمر، وعدد السكان يتقلص. أما الاقتصاد، ولاسيما الانتاج الزراعي، فقد صار إلى اضمحلال مستمر. وتفشى الفساد في الأجهزة الادارية. أما الجيش فترهل، وأخذ يتقهقر تدريجياً في اوروبا الوسطى، وذلك ابتداء من حصار فينا الفاشل، عام ١٦٨٣.

* * *

ظاهر العمر وتجربة الاستقلال الثانية :

ما من فرق بين المحاولة التي بذلها آل الجراح في القرن العاشر، وتلك التي بذلها آل زيدان في القرن الثامن عشر، سوى أن الأولى كانت تناضل ضد مصر - كما هي عادة فلسطين في العصر الكنعاني القديم - بينما ناضلت الثانية ضد الأناضول بقواه الشديدة الضخامة، وسوى أن الأولى قد جرت في جنوب فلسطين، بينما اتخذت الثانية من الشمال مسرحاً لها. ومن الجدير بالتنويه أن آل الجراح قد استنجدوا بالأناضول ضد مصر (ولم ينجدهم الأناضول) أما آل زيدان فقد عكسوا الأمر واستنجدوا بمصر ضد الأناضول. ولو لم يخذلهم النصف الشمالي من بلاد الشام، الذي ظل على ولائه للأناضول (كما لو أن تجربة رمسيس الثاني قد جرت مرة ثانية)، لنجحت الحركة، واسترجع العالم العربي بعض استقلاله، منذ اواسط القرن الثامن عشر. والحقيقة أن الضمور الذي أصاب مصر والشام في القرن الثامن عشر قد كان واحداً من أهم الأسباب التي أدت إلى اخفاق الحركة المصرية - الفلسطينية أيام ظاهر العمر. فلقد تحدث فولني، الرحالة الفرنسي، عن غزة يوم مَرَّ بها بعد مضي بضع سنوات على مقتل ظاهر العمر، فقال ان عدد سكانها لا يزيد عن ألفي نسمة. وبداهة، ان مثل هذا العدد لا يشكل سوى قرية وحسب. أما صفد، التي كان عدد سكانها ٣٢,٠٠٠ نسمة في بداية العهد العثماني، فقد دمرها زلزال مروع سنة ١٧٥٩. وحين مرّ بها فولني، فقد وصفها بأنها قرية لا قيمة لها. وبعد هذا الزلزال الذي خرب قسماً كبيراً من فلسطين، ولا سيما الشمال، فقد انتشر وباء الكوليرا، عام ١٧٦٠، أي في عهد ظاهر العمر، ففتك بالسكان وقلص عددهم إلى حد ملموس.

* * *

عيّن الأمير بشير الأول، وهو من الأسرة الشهابية التي ورثت الأسرة المعنيّة في لبنان والجليل، عيّن رجلاً عجوزاً يسمى عمر الزيدان موظفاً في ادارة صفد، وذلك عام ١٧٣٧. ثم راح ظاهر، أصغر ابناء الشيخ، يتولى خراج بعض

الأراضي للعثمانيين. وكان ابتداء أمره في قرية من قرى الجليل تسمى عرابة، الواقعة عند طرف سهل البطوف الصغير، إلى الشمال الغربي من طبرية. وأخذ ظاهر يوسع مناطق نفوذه بالتدريج. فسيطر على صفد ثم على طبرية أي على الجليل الشرقي. وسرعان ما نجح في الهيمنة على الناصرة، عاصمة الجليل الأدنى ثم انضمت اليه مدينة نابلس، في اواسط فلسطين. وأخيراً استطاع ان يصل إلى البحر، عندما هيمن على مدينة عكا سنة ١٧٥٠. فعمل الرجل على تحصين المدينة، وعلى تنشيط مينائها، ة كما عمل على تنشيط الزراعة والعمران، وحقق الأمن وقضى على الفوضى واللصوصية وقطع الطرقات. واتخذ التسامح الديني مبدأ لسياسته. فكان بهذه الأفعال الحضارية والانسانية عاملاً مجداً في مضمار إعادة الحياة إلى اقليم أتلفه الفساد والطغيان والاهمال وسوء الادارة، فضلاً عن الطواعين والمجاعات. ويكفيه فخراً أنه ثبت الأمن في مملكته بحيث صار المرء يسافر في أي اتجاه دون أن يعترض سبيله قاتل أو قاطع طريق.

وحين انشغل العثمانيون بالحرب ضد روسيا التي تقودها كاترين، الملكة الجبارة، تحالف ظاهر العمر مع علي بك الكبير، والي مصر، الجانح إلى التخلص من فساد العثمانيين. وخرج الجيش المصري إلى الشام، يقوده رجل يسمى أبو الذهب، واحتل الساحل الفلسطيني وضمه إلى ظاهر العمر، الذي لم يكتف بالتحالف مع مصر، بل انحاز إلى جانب الروس ضد العثمانيين. وبذلك كان اول قائد في العالم العربي تنبه إلى الأهمية الاستثنائية لقوة الروس الآخذة بالاستفحال سنة عن سنة.

ووصل اسطول روسي إلى السواحل الشامية، ودمر بيروت ونهبها، كما دمر صيدا وسلمها لظاهر العمر، حليف الروس، وذلك عام ١٧٧٢. وعند ذاك تنبهت الحكومة المركزية في الاستانة إلى خطورة مايجري في فلسطين وقرب حدودها الشمالية، فحركت الأسرة الشهابية، وكذلك والي دمشق الموالي للعثمانيين، كما ارسلت اسطولاً عثمانياً ليجابه الروس في مياه الشام. والأنكى من ذلك أن مصر

قد انقلبت على ظاهر العمر وتحالفت مع العثمانيين، وذلك نظراً لخطورة استقدام الروس إلى المنطقة. وهكذا صارت جميع النيران موجهة إلى فلسطين.

انسحب ظاهر العمر من صيدا أمام الهجوم الذي شنته ثلاث قوات تتألف من دمشق والشهابيين اللبنانيين والاسطول العثماني، وتحصن داخل عكا التي لا يمكن اقتحامها بسبب مناعة اسوارها وحصونها.

وفي عام ١٧٧٥ خرج الجيش المصري إلى الشام وأخذ يتقدم حتى يافا، وهناك اعترضته قوات ظاهر العمر الصغيرة العدد، والتي لم تكن تتألف الا من ألف ومائة جندي. وهذا الرقم دليل قاطع على ضمور عدد السكان في القرن الثامن عشر. وعجز الجيش المصري عن احتلال المدينة التي كان يتولى أمر الدفاع عنها رجل من آل زيدان. ومع ان مدفعية الجيش المصري قد كانت ممتازة، ومع انها صبت الجحيم نفسه على يافا، فقد اضطر المصريون، المتحالفون مع الأناضول والشطر الشمالي من الشام، هذه المرة، اضطروا إلى عقد هدنة مع الشيخ كريم الظاهر، تعهدوا بموجبها بوقف اطلاق النار. ولكن الهدنة ما كانت الا خدعة، فلقد تسللوا إلى داخل يافا خفية (وكأن قصة جهوني قد تكررت من جديد) وراحوا يفتكون بالسكان دون رحمة. هكذا ارتكب ابو الذهب مجزرة في يافا راح ضحيتها اكثر من ألف شخص.

أما عكا، التي كانت تحت وطأة الحصار في الوقت نفسه، والتي تمترس داخل أسوارها ذلك الرجل النادر في تاريخ فسطين، فقد استبسلت في الدفاع عن نفسها وعن حريتها، ضد الهجوم الرباعي الكبير. وعلى الرغم من ضخامة الهجوم، البري والبحري، فان المدينة لم تسقط. وعند ذاك فكرت السلطة العثمانية باللجوء إلى الرشوات. فأغدقت الذهب على بعض ضباط الحامية، فنهضوا ضد سيدهم واغتالوه. وهكذا أجهضت أول دولة فلسطينية في التاريخ الحديث. فقد طارد العثمانيون جميع أفراد الأسرة الزيدانية في كل مكان، وعملوا على قتلهم وتشريدهم والقضاء على حركتهم إلى الأبد.

٣ ـ الجزار ونابليون:

كان أحمد باشا الجزار رجلاً سافلاً منذ بداية حياته. فقد أغوى زوجة أخيه وهرب بها من البوسنة إلى استنبول. وبعدما تخلى عن المرأة المنكودة الحظ، باع نفسه لتاجر رقيق يهودي. ثم تخلى عن ديانته المسيحية واعتنق الاسلام، وانضم إلى الجيش العثماني. وامتهن مهنة الجلد في مصر، أيام علي بك الكبير، وكان قاسياً على المجلودين، فلقبه الناس بالجزار.

ثم رحل إلى دمشق والتحق بجيش واليها، واشترك معه في حصار صيدا ضد ظاهرة العمر، مما دفع أهل السلطة إلى تعيينه والياً على تلك المدينة بعدما انسحبت منها القوات الفلسطينية. ثم امتد سلطانه إلى عكا، حيث أنشأ جيشاً صغيراً واسطولاً أصغر. وكان معظم جنده من الألبان واليوغوسلاف. وقد عمل على تحصين المدينة من جديد، بعدما دمرتها الحرب.

وبسبب ولائه واخلاصه للسلطان العثماني فقد ولاه على دمشق، وعلى الشطر الأكبر من لبنان، وأصبح سيداً مطلقاً في أواسط الشام. فعين الأمير بشير الشهابي نائباً له على جبل لبنان، ولكن هذا الأمير قد خذله في أشد ساعاته حرجاً، إذ كان جميع الناس في الشام تواقين إلى التخلص من ذلك الطاغية الدموي الذي بث الرعب في جميع أرجاء مملكته، والذي لم يسلم من شره حتى نساء حريمه اللواتي أحرقهن كلهن دون رحمة.

ففي عام ١٧٩٩، خرج نابليون بونابرت الى فلسطين قادماً من مصر التي احتلها قبل ذلك بسنتين. فتصدت له مدينة يافا الباسلة وقاومته طوال يومين مريرين. ولكن قواته اقتحمت المدينة، ونهبتها، وفتكت بالسكان والحامية، ودمرت جميع تحصينات المدينة.

ثم اتجه نابليون إلى عكا وضرب عليها الحصار، وراح يقصفها بمدافعه الممتازة دون رحمة. واستمر الحصار أكثر من شهرين ونصف الشهر. واستنجد الجزار بتابعه الشهابي، فأبى هذا أن ينجده، ظناً منه أن نابليون سوف يخلصه من

الطاغية. وغاب عن باله اسهام الانجليز في الحرب لصالح الجزار. فقد راح هؤلاء يمدون المدينة من البحر بكل ما يضمن صمودها. والحقيقة أن ضعف الفرنسيين في البحر هو الذي قرر مصير نابليون، وحسم الحرب لصالح الانجليز.

وفي أيار من العام نفسه، تراجع نابليون عن عكا وارتد إلى مصر.

ولم يعش الجزار بعد ذلك سوى خمسة أعوام. فمات عام ١٨٠٤، بعدما بنى في عكا جامعاً حفظ سمعة الجزار حتى اليوم.

٤ - ابراهيم باشا في بلاد الشام:

تحالف العثمانيون والانجليز ضد نابليون وطردوه من مصر. وكان في الفرقة العثمانية، التي نزلت في الدلتا، ضابط الباني يسمى محمد علي باشا. وقد تمكن هذا الضابط من الهيمنة على مصر، بعدما دبر مجزرة للمماليك وقضى عليهم إلى الأبد.

وكان هذا الباشا طموحاً حقاً، فعقد العزم على أن يقيم في العالم العربي امبراطورية عربية ينتزعها من جسم الدولة العثمانية. ولهذا فقد عمد إلى تنشيط اللغة العربية، وإلى الاعتماد على الناطقين بها في ثورته على العثمانيين.

فبعد ما استتب له الأمر في مصر أرسل ابنه ابراهيم باشا إلى بلاد الشام، عام ١٨٣١. ولم يلق ابراهيم مقاومة كبيرة في الشام، إلا عند أسوار عكا التي تركها الجزار منيعة حصينة، والتي سبق لها ان استعصت على نابليون. وتحالف الأمير بشير الشهابي مع ابراهيم باشا، واشترك معه في ضرب الحصار على عكا. ودام الحصار ستة أشهر، ولكن المدينة سقطت بعد ذلك لأن أحداً لم ينجدها من جهة البحر هذه المرة.

ثم تقدم الباشا المصري شمالاً واحتل دمشق، وتابع زحفه حتى بلغ أضنه، إلى الشمال من أنطاكية. وههنا تدخلت الدول الأوروبية لصالح السلطان

العثماني. فاوروبا ترفض كل الرفض أن تنشأ في العالم العربي دولة فتية على انقاض الدولة العثمانية التي باتت لقمة سائغة للأوروبيين.

قامت الثورة في جميع بلاد الشام ضد المصريين، وراح الانجليز والعثمانيون يغذونها بجميع الوسائل الكفيلة بانتصارها. واسهمت فلسطين في هذه الثورة. ولكن اسطول الانجليز قد كان العنصر الحاسم في طرد المصريين من الشام عام ١٨٤٠. فقد ظل هذا الاسطول يقصف تجمعات الجيش المصري في سواحل الشام من أضنه حتى العريش.

وقد تعرضت مدينة عكا للحصار من جديد عام ١٨٤٠، وذلك على أيدي القوات العثمانية والانجليزية والنمساوية المتحالفة ضد مصر. وتخلت فرنسا حليفة مصر عن ابراهيم باشا، وتركته لقدره. وليس هذا التخلي من قبيل الصدفة. فالحقيقة أن البحر قد كان للإنجليز، وكل محاولة يبذلها الفرنسيون في البحر يومذاك، محكوم عليها بالخسران سلفاً.

وهكذا اخفقت الحركة الأولى من حركات القومية العربية.

٥ ـ فلسطين قبيل الانتداب البريطاني:

في العقد السابع من القرن التاسع عشر أخذت فلسطين تصدر الحمضيات على نحو منتظم. وكانت يافا سيدة البرتقال، منذ ذلك العقد وحتى عام النكبة. «وارتفعت قيمة الصادرات من يافا، خلال عقدين من السنين (١٨٦٢ ـ ١٨٨٥) خمسة أضعاف». واحتكرت بريطانيا برتقال يافا التي صدرت الى بلاد الانجليز مائة وعشرة الاف صندوق عام ١٨٨٨. وقد ارتفع هذا العدد الى ربع مليون صندوق عام ١٨٩٥. ولكنه ارتفع الى مليون ونصف مليون من الصناديق عام ١٩١٣.

وتدفقت رؤوس الأموال الأجنبية على فلسطين خلال السنوات الخمسين الأخيرة من العصر العثماني. فعرفت فلسطين الآلات البخارية وغير البخارية في

هذه الآونة. ومدت سكة حديد القدس ـ يافا عام ١٨٩٢. كما اتصلت القدس بالخط الحديدي الحجازي وبسكة عكا ونابلس.

وبلغ عدد سكان فلسطين عام ١٨٨٠ زهاء ٤٥٠ ألف نسمة، يعيش ربعهم في المدن التي أخذت تتوسع وتزدهر بالتدريج بفضل تدفق رؤوس الأموال الأجنبية على فلسطين. فقد «ابتدأ البنك الفرنسي، كريديت ليونز، العمل في فلسطين عام ١٨٩٢، والبنك الألماني ـ الفلسطيني عام ١٨٩٧، والبنك العثماني الرسمي (منظمة مجموعات مالية من بريطانيا وفرنسا) عام ١٩٠٥، والبنك التجاري لفلسطين (رأسمال فرنسي) عام ١٩١١». وأنفق اللورد روتشيلد أكثر من خمسة ملايين جنيه استرلينية من أجل توطين الصهاينة في فلسطين، وذلك بين عام ١٨٨٣ وعام ١٩١٧.

وأخذت فلسطين تصدر الزيت والصابون والشعير في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بحيث تفوقت هذه الصادرات تفوقاً ملحوظاً على صادرات البرتقال. وفي السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر كانت غزة وحدها تصدّر أربعين ألف طن من الشعير كل عام. وهذه الكمية هي «ثلاثة أرباع مجموع صادرات فلسطين من الشعير». وراحت مصانع البيرة في بريطانيا وألمانيا تقبل اقبالاً شديداً على شعير غزة، بسبب جودته النادرة.

وعلى الرغم من ازدياد حجم الصادرات في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، فإن حجم الواردات قد صار أكبر من حجم الصادرات في تلك الآونة، لأن رؤوس الأموال الوافدة الى البلاد قد عملت على تحويل فلسطين الى سوق يستهلك البضائع الأجنبية في مقابل منتوجاتها الزراعية التي كان عليها أن تزيد حجمها على الدوام لتسدد ثمن الواردات. فقد كانت فلسطين تستورد الأرز من ايطاليا ومصر، والسكر من فرنسا، والأقمشة من انكلترا وسويسرا والمانيا، والقهوة من اليمن، والخشب من تركيا. وكان ميناء يافا أهم ميناء لحركة التصدير

والاستيراد خلال تلك الفترة. أما القدس، القريبة من يافا، فهي المركز الأكبر لتوزيع الواردات على البلاد.

وقد أدى تدفق الأقمشة على فلسطين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر الى توقف الصناعات النسيجية في البلاد، أو الى ضمورها. فالنسيج المستورد أفضل وأرخص. وبالفعل توقفت معامل القماش في كل من القدس ونابلس والخليل، وذلك مع بداية القرن العشرين.

أما الأرض فكانت ملكيتها، أو ملكية معظمها، محصورة في عدد قليل من العائلات، فقد كان خمسة من أفراد عائلة سرسق الارمنية التي تعيش في بيروت، والتي باعت أراضيها للصهاينة، يسيطرون على مائتي ألف دونم، في منطقة عكا وحيفا والناصرة، فضلاً عما يملكونه من مرج ابن عامر. وهناك سبعة آخرون من مالكي الأراضي يعيشون في دمشق وبيروت، ويهيمنون على ٢٣٥,٠٠٠ دونم. وهذا يعني أن نصف أراضي فلسطين قد كانت في حوزة أناس يعيشون خارج البلاد. وهناك خمس عائلات فلسطينية تهيمن على ربع مليون دونم من الأرض في غزة والقدس ونابلس وحيفا. وفي بداية الانتداب البريطاني كان ثمة اثنان وأربعون شخصاً يملكون أكثر من مليون دونم أرض في فلسطين، ومعظمهم يقيمون خارج البلاد.

وهكذا، بات ناصعاً تماماً أن البلاد قد كانت في قبضة حفنة صغيرة من المصارف الأجنبية التي تشاركها الفريسة شرذمة من كبار مالكي الأراضي، وذلك عشية تسليمها للصهاينة على أيدي الانجليز وحلفائهم في العالم العربي.

الفصل العاشر

الصهاينة والانجليز

١ ـ نشوء الصهيونية :

كان نابليون بونابرت أول سياسي يُقْدِم على اتخاذ موقف صهيوني في التاريخ الحديث كله. ويتلخص الموقف الصهيوني في «انشاء دولة يهودية» على الأراضي الفلسطينية. وفي بيانه الذي وجهه الى اليهود يوم كان يحاصر عكا، خاطبهم بأنهم «ورثة فلسطين الشرعيين»، وأعلن أنه يقدم لهم «ارث اسرائيل» في وقت لا يتوقعه أحد.

والحقيقة أن مناخ اوروبا قد كان مهيأ تماماً لصدور مثل هذا البيان، إذ ان تلك القارة، أو ناحيتها الغربية، كانت قد عاشت مائتي سنة من التحول إلى الصهيونية قبل نابليون. ويمكن القول، بكل طمأنينة، الى أن مارتن لوثر هو أول صهيوني في التاريخ، وأن عصره هو لحظة الانتقال من «اللاسامية» الى الصهيونية في اوروبا.

في الربع الأخير من القرن السادس عشر، أي بعد مرور نصف قرن على

وفاة مارتن لوثر، كتب الشاعر الانجليزي، كريستوفر مارلو، مسرحية «اليهودي المالطي»، وهي نص أدبي ينبثق من النزعة اللاسامية، التي هي معاداة اليهود والبطش بهم. وبعد ظهور هذه المسرحية بقليل كتب وليم شكسبير مسرحية مشهورة عنوانها «تاجر البندقية». وهذه اكثر ميلاً الى اللاسامية من تلك. وفي الحق أن شكسبير لايمكن استيعابه الا على ضوء هذه المسرحية، فهي مفتاح لمسرحياته الأخرى كلها.

ولكن موقف الانجليز من اليهود قد تغير جذرياً بعد مضي جيل واحد على وفاة شكسبير. فقد هيمنت الحركة البيوريتانية على انجلترا في اواسط القرن السابع عشر. والبيوريتانيون، أو الطهرانيون، قوم مولعون بالتوراة، ويقدسونها أكثر من الانجيل. وقد آمنوا بأن «توطين اليهود في فلسطين» هو الشرط الوحيد لقدوم المسيح المنتظر، وبالتالي لبدء «العهد الألفي السعيد»، أي أن ألف سنة من السعادة سوف تحل على الأرض، وبعد ذلك تقوم القيامة.

وهكذا أخذت الآداب في اوروبا تميل كثيراً الى التعبير عن وجوب «توطين اليهود في فلسطين». فما ان حل القرن التاسع عشر حتى كان التيار الصهيوني في الآداب الاوروبية، ولا سيما في انجلترا والمانيا، قد ترسخ تماماً: وقد تمادى اللورد بايرون، الشاعر الانجليزي المعروف، ونشر عام ١٨١٥ مجموعة شعرية عنوانها «الألحان العبرانية»، وهي عمل صهيوني من الغلاف الى الغلاف.

ودخلت الصهيونية الى حيز الرواية، فنشر دزارئيلي رواية عنوانها «دافيد آلروي»، عام ١٨٣٣، وهي رواية عرقية الى حد متطرف. ودزرائيلي يهودي تنصر، ثم أصبح رئيساً لوزراء بريطانيا. كما نشرت الكاتبة الانجليزية جورج اليوت، عام ١٨٧٤، رواية عنوانها «دانيال ديروندا» لتقدم الشخصية اليهودية بوصفها يقظة الوعي واكتشاف الذات والماضي والتراث.

وفي صفوف اليهود، وهم صنف من الناس قلما يهتمون بالآداب والفنون، فقد ظهر كاتب يسمى لسنغ. ونشر هذا الكاتب، عام ١٧٧٩، رواية باللغة

الألمانية عنوانها «ناتان الحكيم»؛ وفيها يظهر صلاح الدين الأيوبي خسيساً ومتوحشاً، كما يظهر الفارس الصليبي وضيعاً، اذا ما قورن بناتان، وهو اليهودي المتحلي بالحكمة والرزانة والوقار.

وفي عام ١٨٦١ نشر الحاخام اليهودي الألماني، هيرش كاليشر، كتاباً عنوانه «البحث عن صهيون»، وكان هذا الحاخام شديد النشاط بحيث استطاع ان يؤسس أول جمعية صهيونية في ألمانيا. وبعد مرور سنة واحدة على ظهور الكتاب الأخير، نشر موسى هس، وهو يهودي ألماني أيضاً، كتاباً عنوانه «روما والقدس»، ليبشر بالدور المجيد الذي سوف تلعبه فرنسا في مستقبل اليهود، وفي تأسيس دولتهم المرتقبة.

ولكن الصهيونية قد أخذت تستشري في روسيا بعد مقتل القيصر اسكندر الثاني عام ١٨٨١. فبعد مضي سنة واحدة على اغتيال الملك الروسي، نشر كاتب يهودي اسمه ليوبنسكر كتاباً عنوانه «التحرر الذاتي» كما أنه أسس جمعية صهيونية وسماها «أحباء صهيون». وفي ظلال هذه الجمعية، لمع اسم الكاتب الصهيوني أحدها عام، أو أحد العوام، كما لمع اسم الشاعر الصهيوني بياليك. وتبنت هذه الجمعية مبدأ «التجمع والاقتحام»، أي التنظيم والزحف باتجاه فلسطين.

ومع ظهور هرتزل في العقد التاسع من القرن الماضي، أصبحت الصهيونية حقيقة ملموسة بل فاقعة. وقد ألف هرتزل، وهو صحفي من بودابست، عاش فترة طويلة في فينا، ألف عدة كتب، أهمها «الدولة اليهودية» و«الأرض القديمة الجديدة»، فضلاً عن مذكراته التي دوّن فيها تجربته الصهيونية. وتتلخص أبرز فكرة يتبناها هرتزل في أن الكيان الصهيوني سوف يكون خندقاً للدفاع عن الحضارة الاوروبية ضد الهمجية الآسيوية، أو العربية، على الأقل.

* * *

أما على مستوى السياسة فإن الصهيونية لم يتحمس لها الكثير ون خارج انجلترة. ففي الحق أن الجزر البريطانية قد كانت القلعة الصهيونية الوحيدة في العالم خلال القرن الماضي. وكان اللورد بالمرستون، رئيس وزراء بريطانيا زهاء عام ١٨٣٠، أول انجليزي يتبنى الصهيونية على نحو عصابي. وكانت زوجة بالمرستون أماً لزوجة اللورد شافتسبري، فأصيب اللورد بعدوى الصهيونية نتيجة لاحتكاكه الطويل بزوج حماته، فانهمك الرجل ايما انهماك بمشروع توطين اليهود في الارض التي بغير شعب، على حد قوله. وقد استطاع شافتسبري أن يقنع بالمرستون بانشاء قنصلية بريطانية في مدينة القدس، عام ١٨٣٨. وقد كلفت هذه القنصلية بحماية اليهود ومساعدتهم، كما أنها احصتهم فوجدت أنهم لا يبلغون عشرة آلاف نسمة. وهم موزعون على ثلاثة مدن هي القدس وطبرية وعكا.

وفي أواسط القرن التاسع عشر استطاع دزرائيلي أن يتسلم رئاسة وزراء بريطانيا. وربما كان هذا الرجل قد أسهم الى حد كبير في تنشئة جيل بكامله من الساسة المتطرفين في نزوعهم الصهيوني، وعلى رأسهم جوزيف تشمبرلين، رئيس وزراء بريطانيا، قبيل عهد بلفور، وكذلك لويد جورج، الذي اهتدى الى الصهيونية على يد حاييم وايزمن، زعيم الحركة الصهيونية بعد هرتزل.

وفي غضون الحرب العالمية الأولى كانت السياسة البريطانية في قبضة ثلاثة رجال من المهووسين بالصهيونية والمتطرفين في ميلهم الى انشاء «الوطن القومي اليهودي». وهؤلاء الثلاثة هم: لويد جورج وآرثر بلفور ومارك سايكس. والأخير هو ممثل الطرف البريطاني في اتفاقية سايكس ـ بيكو المشهورة.

* * *

بدأت روسيا القيصرية تضطهد اليهود أثر اغتيال القيصر عام ١٨٨١، الأمر الذي حدا ببعض اليهود الى مغادرة الامبراطورية القيصرية والتوجه الى فلسطين. وهكذا فإن الهجرة اليهودية الأولى قد جاءت من روسيا عام١٨٨٢ ولقد ارتفع عدد اليهود بعد هذه الهجرة الى خمسة وعشرين ألفاً في فلسطين.

وكانت آخذة بالتحسن والنمو، ولاسيما في السهل الساحلي حيث ازدهرت بيارات البرتقال. وهذا السهل هو الجزء الذي سوف ينصب معظم جهد الصهاينة على حيازته قبل سواه، وذلك نظراً لخصوبته الاستثنائية، مع أنه لم يكن في أي يوم من الأيام داخل أية دولة توراتية ظهرت في فلسطين. وهناك بنوا أكبر مدينة لهم، وهي تل أبيب، أو مدينة الربيع.

ولكنهم سرعان ما اصطدموا بالفلاحين الفلسطينيين، عام ١٨٨٦، يوم سال أول دم بشري في مسلسل الصراع العربي ـ الصهيوني. فلقد انتزعت مستوطنة بتاح تكفا، وهي قرية ملبس العربية، انتزعت من الفلاحين الفلسطينيين بالقوة المنصاعة للرشوة، وطرد منها سكانها، وحل محلهم أناس غرباء.

ولقد أسسوا الكثير من المستوطنات بعد هذه الهجرة الأولى، وذلك بمساعدة روتشيلد، الثري اليهودي الألماني. ومع أن السلطان المريض في استنبول قد رفض فكرة «الوطن القومي اليهودي»، فإنه لم يرفض رغبة الصهاينة في انشاء المستوطنات على ارض فلسطين، إذ لقد أقنعه الانجليز بأن هذه المستوطنات سوف تكون درعاً يصد عن مملكته أخطار مصر الطامحة في تأسيس امبراطورية عربية على حساب العثمانيين. فالانجليز، إذن، يريدون شكم مصر وعزلها عن آسيا العربية. وقد نظروا الى هذا الأمر من حيث هو سبب من الأسباب التي دفعتهم الى انشاء الكيان الصهيوني.

ثم جاءت الهجرة الثانية من روسيا أيضاً، وذلك عام ١٩٠٥. وجاء معها دافيد بن غوريون، الزعيم الصهيوني المعروف. ومن الجدير بالملاحظة. أن الهزات العنيفة التي المت بروسيا وبولونيا والمانيا هي العامل الأكبر في تفاقم الصهيونية خلال الأعوام السبعين التي سبقت نشوء الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨ على أرض فلسطين، إذ لولا هذه الهزات لما كان الهيجان الصهيوني قط.

وعقد الصهاينة مؤتمرهم الأول في مدينة بازل السويسرية عام ١٨٩٧،

وحددوا غاية الصهيونية بأنها «خلق وطن لليهود في فلسطين». وكثرت مؤتمراتهم بعد ذلك، فتنبه العرب الى خطورة الشأن، ولا سيما بعد الهجرة الثانية التي تفوقت على الهجرة الأولى من حيث العدد. وبدأت الصحف العربية تواجه الظاهرة الصهيونية وتتصدى لها وتفضح مقاصدها العدوانية. وكانت جريدة الكرمل الصادرة في حيفا على رأس الصحف النشيطة والآخذة بمبدأ التوعية والتصدي للخطر الداهم.

٢ ـ من بلفور الى القسام:

نشبت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤، ووقف العرب مع «الحليفة بريطانيا». فبعد أن تبادل الشريف حسين بعض الرسائل مع مكماهون، قائد القوات البريطانية في مصر، أعلن هذا الرجل الثورة على العثمانيين، في مكة، عام ١٩١٦. وكان الانجليز قد وعدوا الشريف بتنصيبه ملكاً على جميع الأراضي العربية في الهلال الخصيب وشبه جزيرة العرب. ولكن الانجليز كانوا أثناء ذلك يتفاوضون مع الفرنسيين على تقاسم الهلال الخصيب، وهذا هو موضوع اتفاقية سايكس ـ بيكو.

وانتصرت الثورة وطردت الأتراك من اسية العربية كلها. وفوجىء قادة الثورة باعلان بريطانية لوعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢، وهو الوعد الذي يمنح اليهود وطناً قومياً في فلسطين. وللحق أن هذا الوعد مثير للاستهجان، إذ لم يكن ثمة جندي بريطاني واحد في فلسطين يوم نشروا الوعد جهراً. وهذا يعني أن الانجليز قد اعطوا أرضاً لا يملكونها لأناس لا يستحقونها. وأغرب ما في أمر الوعد، الذي صاغه اللؤم الانجليزي بحذق وتفنن، أنه لا يذكر العرب قط، بل يشير اليهم باسم الطوائف غير اليهودية، مع أنهم يؤلفون تسعة أعشار السكان يومذاك.

وبهذا الوعد برهن الانجليز على أنهم قوم غدارون. فلقد نكثوا بكل وعد قطعوه للشريف. فما داموا يبتغون انشاء كيان صهيوني في فلسطين، فإنهم لن يسمحوا بقيام دولة موحدة في آسية العربية، لأن هذه الدولة سوف تتمكن ذات يوم من إزالة الكيان الصهيوني المصطنع.

وتنازل الشريف عن فلسطين للصهاينة، كما تنازل عنها أولاده. واجتمع ابنه فيصل بويز من عام ١٩١٨ في بلدة قرب العقبة. كما وقع مع ويزمن اتفاقية ١٩١٩ تحاول ان تخفف من حدة الخلاف بين العرب والصهاينة.

وللحق أن الشريف الذي تنازل عن فلسطين قد ظل متشبثاً بوحدة آسية العربية، بعد أن تسلخ منها جميع الأراضي الواقعة الى الغرب من نهر الاردن. ولكن، هيهات! اذ لو تمت مثل هذه الوحدة لما كان لدويلة الصهاينة ان تكون الا قزماً يقعي الى جوار عملاق. وهذا يعني أن الانجليز سوف يؤسسون الشرط الكفيل بتهديم الكيان الذي اصطنعوه.

وحين أصر الشريف على مطلبه اعتقله الانجليز ونفوه الى قبرص، حيث اغتالوه بالسم، ثم عينوا ابنه عبد الله أميراً على الاردن، كما عينوا ولده الآخر، فيصل، ملكاً على العراق، ولكن بعدما رضي كل منهما بالدولة الصهيونية، وكذلك بتجزئة آسيا العربية الى دويلات هزيلة، لاخطر منها على الكيان الصهيوني.

* * *

أما الفلسطينيون الذين صعقوا للنبأ فقد بدأوا النضال على الفور.

دخل الجنرال اللنبي إلى القدس، قادماً من مصر، بعد مضي شهر ونصف الشهر على صدور وعد بلفور. وفي السنة التالية، اكمل الانجليز احتلال فلسطين كلها. وعند ذاك اقتنع الجميع بأن وعد بلفور قد بات رهن الانجاز.

وزاد في الطين بلة أن مؤتمر سان ريمو، عام ١٩٢٠، قد أصدر صكاً يخول بريطانية حق الاشراف على فلسطين وادارتها واعدادها للاستقلال وتقرير المصير.

وهـذا هو صك الانتـداب المشهـور. والغـريب أن هذا المؤتمر الذي عقد من أجل السـلام، ويتبنى حق تقـريـر المصـير لجميع أمم الأرض، قد أوكـل بريطـانيـا بالانتـداب على فلسطـين، مع أن سيـاسة بريطانية في فلسطين لم تعد خافية على أحد بعد صدور وعد بلفور. ان صك الانتداب على فلسطين يتناقض مع سياسة عصبـة الامم المؤمنـة بحق تقـريـر المصـير لجميـع الشعـوب. وهكـذا اتضح أن المنظـمات الـدوليـة هي العـدو الثاني للفلسطينيين بعد الانجليز. وستكون أمريكا العدو الثالث. وأما الصهاينة فلا وجود لهم بغير هؤلاء الأعداد الثلاثة.

* * *

كان أول رد جدي قدمـه الفلسطينيـون ضد بريطـانية هو تأسيس «الجمعية الفدائية» السرية عام ١٩١٩. وفي العام التالي انتفضوا ضد الصهاينة في القدس. ووقع أول صدام دموي في القرن العشرين بين الفلسطينيين واعدائهم. وفي عام ١٩٢١ كان سيـلان الـدم البشـري أغزر. وذلك في ياقا، وكذلك حول مستعمرة بتاح تكفا. فلقد تجمع آلاف الفلاحين الفلسطينيين قرب هذه المستعمرة واندفعوا من أجل استردادها من الصهاينة الذين أخذوها بالرشوة. ولكن الانجليز تصدوا للفلاحين وطردوهم وقتلوا منهم ستين رجلاً، فضلاً عن الجرحى.

وتشكلت أحزاب كثيرة في فلسطين. وعقد الفلسطينيون سبع مؤتمرات بين عام ١٩١٩ وعـام ١٩٢٨. وكـانت جميعهـا تنـادي بأن فلسطـين جزء من سوريـا العـربيـة، وتطـالب بضم فلسطـين الى سوريـا. وأخـيراً سئم الفلسطينيون هذه المؤتمـرات العـديمـة الجـدوى، واقتنعـوا بأن بريطـانيـا هي الداء، ولا تفاهم مع بريطانية الا بالسلاح.

وفي الحق أن بريطـانيـا قد كانت علة العلل في المأسـاة الفلسطينيـة. فاثـر صدور صك الانتـداب، عينت هربـرت صمـوئيـل، اليهودي البريطاني، مندوباً سامياً على فلسطـين، بعـد ما حددت تخوم فلسطين وفقاً لمطالب الصهاينة. وقد أصـدر صمـوئيـل هذا مرسـومـاً يقضي بالسماح لأكثر من ستة عشر ألفاً من اليهود

بالدخول الى فلسطين، وذلك بعد شهر واحد من تعيينه في منصب المندوب السامي.

ولكن الفلسطينيين اكتفوا بالمؤتمرات خلال الفترة الواقعة بين عام ١٩٢١ وعام ١٩٢٩. وفي هذا العام اندلعت ثورة البراق. والبراق حائط من حيطان المسجد الأقصى، ويسميه اليهود حائط المبكى، اذ عنده يبكون مجدهم الغابر. ففي ١٤/٨/١٩٢٩ وصل حشد من الصهاينة الى الحائط وأخذوا يسبون الاسلام والمسلمين. وبعد ذلك بتسعة أيام هاجم العرب في القدس بعض تجمعات الصهاينة. ثم اندفع العرب في معظم أرجاء فلسطين وراحوا يهاجمون الأحياء اليهودية والمستوطنات ومكاتب الحكومة. أما سلاحهم فهو العصي والخناجر والحجارة. ورد الصهاينة الفعل وراحوا يهاجمون العرب، ولا سيما مساجدهم المملوءة بالناس. وكان الانجليز دوماً يدافعون عن تجمعات الصهاينة، ولكنهم لم يدافعوا أبداً عن تجمعات العرب.

واستمرت الصدامات اسبوعاً واسفرت عن قتل عدد من الناس، فضلاً عن الجرحى. واعتقلت بريطانية تسعمائة عربي ومائة صهيوني. وحكمت بالاعدام على خمسة وعشرين عربياً، وعلى صهيوني واحد فقط. وفي يوم الثلاثاء الموافق للسابع عشر من حزيران عام ١٩٣٠، أعدم الانجليز في سجن عكا ثلاثة رجال دخلوا في ضمير الشعب الفلسطيني، وهم فؤاد حجازي ومحمد جمجوم وعطا الزير. وبهذه المناسبة كتب الشاعر الفلسطيني ابراهيم طوقان قصيدة مشهورة عنوانها «الثلاثاء الحمراء».

* * *

أخذت المانية تزداد اضطراباً بعدما هيمن عليها الحزب النازي عام ١٩٣٢. وبدأ اليهود يتعرضون للاضطهاد فيها على نحو لم يألفوه في ذلك البلد من قبل. وهكذا أخذوا يهاجرون من البلد الذي كان مضرب المثل في التسامح

الـديني . ولهـذا السبب فقد تدفقت على فلسطين موجة كبيرة من الصهاينة ، عام ١٩٣٣ ، ومعظمهم من بولونيا والمانيا .

وراح الانجليـز يستقبلون الـوافـدين الجـدد بالترحاب ، علماً بأن بريطانية كانت قد أصـدرت الكتـاب الابيض عام ١٩٣٠ ، وهـو الكتـاب الذي يحاول أن يقارب بين الطرفين المتنازعين . ولكن بريطانية ، حين سمحت للمهاجرين الجدد بدخـول البـلاد بهذه الكثـرة ، كانت لا تعمل شيئاً سوى زيادة التوتر وتعميق هـوة الخـلاف . والحقيقـة ان لجنة شو التي ارسلتها بريطانية للتحقيق في امور فلسطين ، اثـر ثورة الـبراق ، كـانت قد اوصت بأن لا تسمـح حكـومـة الانتداب للصهاينة بالتدفق الكبير على البلاد ، كما جرى عام ١٩٢٥ .

ولكن بريطـانيـة سرعـان ماألغت الكتاب الأبيض بكتاب آخر سماه العرب الكتـاب الأسـود ، وهـو بمثـابـة رسـالـة بعثها مكدونالد الى حاييم وايزمن ، عام ١٩٣١ ، بهدف طمأنة اليهود واقناعهم بأن بريطانية لن تتخلى عن وعد بلفور .

وفي عام ١٩٣٣ ، وهـو العـام الـذي شهـد موجـة كبـيرة من المهـاجـرين الصهـاينـة ، عمدت الحكومة البريطانية الى تهجير الفلاحين العرب من مساحة من الأرض تبلغ واحـداً وأربعين ألف دونم ، في وادي الحوارث الواقع في مرج بني عامر . وهذه الأرض قد بيعت للصهاينة من قبل اسرة لبنانية ، وذلك عام ١٩٢٩ .

واثـر ذلـك هبت المـدن الفلسطينيـة تتظـاهـر مطـالبة بإيقاف الهجرة ومنع بيع الأراضي للصهاينة . وكانت المظاهرات عنيفة وجريئة ، ولا سيما تلك التي جرت في القـدس ويـافـا ، في ١٣/١٠/١٩٣٣ ، ثم في حيفـا ونابلس بعد ذلك بأيام . وقد امتـدت الانتفـاضـة فشملت معظم أرجـاء فلسطين ، واستمـرت شهرا ونصف الشهر . وقتل في هذه الحركة أربعة عشر عربياً ، وجرح أكثر من مائتين .

ومـع ذلـك ، فإن المهـاجـرين الصهـاينـة قد زاد عددهم عام ١٩٣٤ عن عددهم في السنـة السـابقـة . ولكنـه ازداد ازديـاداً لم يسبق له مثيـل من قبل ، عام ١٩٣٥ ، إذ تدفق على البـلاد ستـون ألف مهـاجـر ، معظمهم من المـانيا وبولونيا

وروسيا. وازاء هذا الخطر الداهم لم يجد الفلسطينيون محيداً عن اشهار السلاح في وجه الانجليز والصهاينة معاً.

٢ ـ خمسة أعوام دامية:

وصل الى فلسطين عام ١٩٢١ رجل من خريجي الجامع الأزهر، اسمه عز الدين القسام. وقد جاء هذا الرجل العظيم من مدينة جبلة الواقعة الى الجنوب من اللاذقية، على الساحل السوري. وقد سبق له ان اشترك في نضال الشعب السوري ضد الفرنسيين. وحين انتكست الثورة السورية في تلك السنة بحث عن ملاذ له في فلسطين.

وفي عام ١٩٢٥ أصبح القسام إماماً لجامع الاستقلال في حيفا. وبعد ذلك بقليل أخذ يعمل على تأسيس تنظيم ثوري هدفه طرد الانجليز والصهاينة من البلاد. وكان هذا التنظيم هو الأول من نوعه في فلسطين كلها. وعلى غراره بنى أحمد طافش جماعة «الكف الأسود» في قضاء صفد، كما بنى عبد القادر الحسيني جماعة الجهاد المقدس في القدس، وذلك في أوائل العقد الرابع من القرن العشرين. ومن المؤكد أن القساميين كانوا يمارسون تدريباتهم العسكرية سراً في جبل الكرمل، أثناء ثورة البراق عام ١٩٢٩.

وأخذ القسام ينشط بين الفلاحين والعمال العرب، ولا سيما العمال المشتغلون بقلع الحجارة في الكرمل وسواه. وبينما كان يتحتم على الشيخ أن يعمل في السر خوفاً من مشانق الانجليز، كان الصهاينة يتدربون علناً وتحت اشراف الانجليز، بل راح اتباع الارهابي الصهيوني المشهور، جابوتنسكي، يهاجمون العرب في قراهم وينزلون بهم أفدح الخسائر.

ويبدو أن الانجليز كانوا يراقبون القسام وتحركاته. فبينما كان القسام يتجول في قرى جنين لدعوة الفلاحين الى الثورة، بصحبة فصيل من رفاقه المسلحين، اصطدم بالانجليز في احراش يعبد، في ١٩٣٥/١١/٢٩. وجرت معركة بين

الطرفين اسفرت عن استشهاد القسام وبعض من رفاقه. وبذلك بدأت مرحلة الصدام الدموي المسلح في فلسطين. أما الشيخ، الذي شُيّع جثمانه بمظاهرة شعبية عاصفة، فقد صار النموذج الأعلى، في وعي الناس، لكل ثوري أو وطني صادق.

ولم تمض سوى خمسة أشهر على استشهاد القسام حتى بدأ الشعب الفلسطيني اضراباً استمر نصف سنة، وذلك في ١٩٣٦/٤/٢٠. وقبل هذا التاريخ بخمسة أيام بدأ القساميون عملياتهم العسكرية، وكان يقودهم هذه المرة رجل بلغ سن الثمانين من العمر، وهو الشيخ فرحان السعدي. وراح الانجليز يمارسون التعسف والجور. فهم يداهمون البيوت وينهبونها ويمزقون المصاحف ويعتقلون كل من حامت حوله الشبهات. وكان أبشع فعل أقدموا عليه هو تدمير الحي القديم في يافا بحجة تجميل المدينة. أما الهدف الفعلي فهو تمكين الجيش البريطاني من السيطرة على هذا الحي، والضغط على العمال المضربين، ولا سيما عمال الميناء، للعودة الى العمل. وقد حدث ذلك في حزيران عام ١٩٣٦.

وتضخم عدد أفراد القوات الثائرة، وازداد نشاطها، واعترفت تقارير الانجليز بأن هذه القوات لا تمارس النهب وقطع الطرق، وإنما هي تخوض حرباً وطنية، هدفها درء الخطر الصهيوني. ولكن الانجليز واجهوا الثورة بالبطش، فعمدوا الى نسف بيوت الثوار، وأصدروا قانوناً يخول محاكمهم الحق في اعدام كل شخص يضبط في حوزته أي سلاح ناري. وللحق أن الانجليز أمعنوا في تعذيب الناس، ولا سيما في القرى، حيث كانوا يجلدون الأبرياء بغير رحمة.

وتأججت الثورة يوم دخل فوزي القاوقجي الى فلسطين بصحبة مائتي مقاتل معظمهم من العراق. وخاض القاوقجي بعض المعارك الموفقة ضد الانجليز، ولا سيما معركة بلعا الأولى والثانية. وبرهن الرجل على أنه يملك دماغاً عسكرياً شديد الندرة. ولكن القاوقجي لم يكن الا تابعاً صغيراً لنوري السعيد، رئيس وزراء العراق. والجميع يعرفون علاقة هذا الرجل بالانجليز. ولا

ريب في أن نوري السعيد هو الذي أرسل القاوقجي الى فلسطين، وهو الذي سحب القائد العسكري الممتاز من فلسطين قبل مضي شهرين على وصوله اليها، وذلك في أواخر تشرين الأول عام ١٩٣٦ وربما كان نوري السعيد يريد مطلباً معيناً من الانجليز، فلما لبوا رغبته، أمر القاوقجي بالانسحاب.

وفي ١١/١٠/١٩٣٦، أصدر بعض الملوك العرب نداء يدعون فيه الناس «للاخلاد الى السكينة حقناً للدماء، ومعتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل».

ولكن الثورة لم تتوقف، بل ازدادت ضراوة خلال تشرين الأول، وهو الشهر الذي صدر فيه نداء الملوك العرب. وكان من أهم العوامل في تأجيج الثورة وصول بعض المتطوعين السوريين الى فلسطين خلال شهر أيلول. وكان الشيخ محمد الأشمر وسعيد العاص على رأس هؤلاء المتطوعين. ولقد استشهد سعيد العاص في تشرين الأول، وذلك في مكان قريب من مدينة القدس.

ولكن القيادة السياسية، ومعظمها من أشباه الاقطاعيين وأشباه المترسملين الذين انتعشوا في ظلال الانتداب، قد عملت جاهدة من أجل انهاء الاضراب. وبالفعل توقف الاضراب في أواخر تشرين الأول. وانسحب القاوقجي، كما انسحبَ الأشمر، واستشهد سعيد العاص. وأخذت القوات المسلحة بالتفكك.

وأرسلت بريطانيا لجنة يترأسها اللورد بيل، من أجل التحقيق في الأمور واقتراح الحل المناسب. وقدرت اللجنة عدد القتلى العرب بألف نسمة. أما الصهاينة فقد خسروا ثمانين قتيلاً، وثلاثمائة من الجرحى، وأكثر من مائتي ألف شجرة.

واقترحت لجنة بيل تقسيم فلسطين الى قسمين، واحد للعرب وآخر للصهاينة. ورفض العرب مشروع التقسيم عام ١٩٣٧. أما الصهاينة فقد انقسموا الى شطرين، شطر يقبل ويمثله وايزمن البعيد عن التهور، وشطر يرفض، ويمثله بن غوروين الشديد الميل الى الارهاب وسفك الدماء.

بالطبع لم ترد بريطانيا أن تدفع بفلسطين كلها لقمة واحدة الى المعدة الصهيونية، لأن مثل هذا الاجراء المتهور سوف يضع جميع حلفاء بريطانيا من العرب، داخل فلسطين وخارجها، في قفص الاتهام. وكان وايزمن أقدر الزعماء الصهاينة على تفهم موقف بريطانيا، ولهذا فقد وافق على مشروع التقسيم، وأعلن أنه لن يرضى به الا مؤقتاً، ريثما تتاح الفرصة أمام الصهاينة لابتلاع مالا يستطيعون هضمه الآن. ولقد انجزوا هذه الغاية بالفعل سنة ١٩٦٧.

* * *

وعندما يئس الفلسطينيون من تراجع بريطانيا عن قرار التقسيم، ومن ايقافها للهجرة الصهيونية، عادوا من جديد الى السلاح، وعلى نحو أعنف هذه المرة. وبدأت الصدامات الدموية المسلحة بعدما اغتال الثوار حاكم الجليل في الناصرة، وهو الرائد اندروز، وذلك في ١٩٣٧/٩/٢٦. وتأججت الثورة لكي لا تتوقف الا بعد سنتين كاملتين. وقد بلغت أوجها بين بداية الربيع ونهاية الخريف من عام ١٩٣٨.

وقد يئس الحاج أمين الحسيني من السياسة البريطانية، بعدما عمل لفترة طويلة على مبدأ التقرب من الانجليز، أملاً بأن ينقذ ما يمكن انقاذه من أرض فلسطين وعند ذاك أعلن ان بريطانيا عدو استراتيجي للعرب، وصديق استراتيجي للصهاينة. والتجأ الى الحرم، ثم تمكن من الهرب الى بيروت، حيث راح يجمع التبرعات والأسلحة للغرض نفسه.

وحين رأى الانجليز تأجج الثورة على نحو لا مثيل له من قبل، فقد عمدوا الى جملة من الاجراءات الكفيلة بقمع الثورة:

- استقدموا الى البلاد آلافاً من الجنود الجدد المدججين بأفتك الأسلحة، ولا سيما الطائرات والدبابات والمدافع.

- احتلوا سبعمائة قرية في الجليل ومنطقة نابلس، أقامت فيها قواتهم على نحو دائم.

ـ عمموا منع التجول ليلاً على جميع أرجاء فلسطين.

ـ تبنوا مبدأ الحرب المتحركة التي تجعل الثوار مطاردين على الدوام، ولا سيما بعد احتلال القرى، هذا الاحتلال الذي يحرم الثوار من قواعد تموينهم وامدادهم.

ـ أقاموا شريطاً شائكاً على الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية، وشريطاً آخر على بعض الحدود السورية ـ الفلسطينية، وذلك بغرض منع اتصال الثورة بالخارج، وعزلها عن ظهيرها الأساسي الذي هو العالم العربي.

ـ اعتقلوا آلاف الفلسطينيين وزجوهم في السجون وعذبوهم على الخوازيق، واضطهدوهم بوحشية مغولية. ونفوا الكثيرين إلى خارج البلاد، واعدموا كل من وجدوا في حوزته أي سلاح ناري. وكان عدد الذين اعدموا بالمئات، ومن بينهم الشيخ فرحان السعدي الذي أعدم في ٢٨/١١/١٩٣٧، على الرغم من أنه قد تخطى الثمانين.

ـ داهموا البيوت والمنازل، في القرى وجلدوا بالسياط آلاف الفلاحين، ونهبوا كل ما هو ثمين، ولا سيما حلي النساء، وفتحوا النار على الأبرياء العزل وقتلوا الشيوخ والاطفال والنساء. واعتدوا على الأعراض، فمارسوا الاغتصاب، بل مارسوا الشذوذ الجنسي على بعض الأطفال. وكانت قرية سعسع في الشمال، وقرية عتيل في الوسط، أكثر القرى تعرضاً للقتل والاغتصاب والنهب.

ـ أحرقوا ونسفوا آلاف البيوت في فلسطين، وارتكبوا من المجازر ما يندى له جبين الانسانية خجلاً. وكان من أشد تلك المجازر هولاً تلك التي ارتكبوها في جنين، اثر اغتيال الثوار لحاكم المدينة، واسمه موفيت، وذلك في آب عام ١٩٣٨.

ولم يكتفوا بالمجزرة بل عمدوا الى تدمير جزء من المدينة، حتى ان واحداً من الانجليز لم يحتمل هذه الهمجية، فكتب الى امرأته في بريطانيا يقول:

«ان هذا ارهاب بريطاني لا يصدقه مدني مثلي لولا ان شاهدته بعيني. وما

قولك بأشخاص ركضوا هرباً للنجاه، فاطلقت عليهم النار فسقطوا! . أما ذلك هو دأب النازية؟ أما التعذيب ابتزازاً للإقرار، فمما تشمئز لوصفه نفس الأبي، وما أريد به الا القاء الرعب في نفوس الناس، لاعقاب المذنب، وما وقفوا عند تدمير المنازل، تنكيلاً، بل تسفلوا فنهبوا وسلبوا نقوداً ومجوهرات».

ومما يتناقض مع هذه الرسالة ذلك الاعلان الذي طالما صرح به الانجليز والصهاينة معاً، وخلاصته رغبة الطرفين في بناء «قلعة للديمقراطية» على الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط.

ومع ذلك، فقد استمرت الثورة في التأجج، وخاضت ضد الانجليز والصهاينة عدداً من المعارك لايحصى. وكانت معركة شعب، في ٢٠ / ٨ / ١٩٣٨، واحدة من أهم تلك المعارك. فقد استمرت أربعة أيام متوالية، وقتل من الانجليز خلالها مائة وخمسون جندي، وخسروا ثلاث طائرات. وحدثت معركة أخرى في الجليل الشرقي، في ٥ / ١٠/ ١٩٣٨، وامتد خط القتال من طبرية الى صفد، ثم اتجه غرباً حتى كاد يلامس مشارف عكا. وكان القائد الممتاز ابو ابراهيم على رأس قوات الجليل في كلتا المعركتين. وكان جبل الجرمق معقلاً ممتازاً لقوات الجليل. وقد تمكنت هذه القوات من احتلال مدينة طبرية ورفع العلم العربي على السراي.

وكان جبل جرزيم معقلاً حصيناً لثوار منطقة نابلس. وكذلك تحصن رجال الثورة في جبال القدس. واستطاع الثوار في تلك الجبال المنيعة أن يحرروا نابلس والقدس وأريحا وبئر السبع. وقد احتلوا هذه المدينة الأخيرة ثلاث مرات خلال عام ١٩٣٨.

وفضلاً عن (أبو ابراهيم) العامل في الجليل، ولا سيما في قضاء عكا الذي خاض أكثر المعارك عنفاً طوال الفترة الثانية من الثورة، وذلك نظراً لقربه من بيروت، حيث الحسيني يرسل السلاح والعتاد، فقد اشتهر قائد آخر كان يعمل في الجليل الى الغرب من الناصرة، وهو القائد ابو درة. وفي وسط البلاد برز ثلاثة من

القادة الممتازين، وهم عبد الرحيم الحاج محمد وعارف عبد الرازق وحسن سلامة. والحقيقة أن عبد الرحيم الحاج محمد كان أفضل قائد وأكفأ عسكري عرفته فلسطين خلال تلك الآونة. وباستشهاده في آذار عام ١٩٣٩، انقصم ظهر الثورة. ومما زاد من ضعف الثورة بعد استشهاد كبير زعمائها، اقصد عبد الرحيم الحاج محمد، أن النظام الاردني قد تمكن من القاء القبض على (أبو درة) وهو يعبر الحدود من الاردن الى فلسطين، ثم اعدم في عمان، وباعدامه أخذت نيران الثورة تجنح الى الانطفاء.

والحقيقة أن الذين اوقفوا الثورة هم الفرنسيون وليس الانجليز. فمنذ أوائل عام ١٩٣٩، أصبحت الحرب العالمية على الأبواب. وكف الفرنسيون عن معاداتهم للانجليز الذين سوف ينقذونهم من براثن هتلر.

وكان الفرنسيون قد سمحوا للثورة بالنشاط في سوريا ولبنان. أما الآن فما عادوا يقبلون ذلك. ولهذا فقد اغلقوا المكتبين الفلسطينيين في دمشق وبيروت. وهرب الحاج أمين الحسيني الى بغداد، وانتقلت القيادة الفلسطينية كلها إلى هناك. وهكذا عزلت الثورة عن العالم العربي، وقطع عنها كل امداد وتغذية، ولم يبق أمام الثوار الا الاستسلام، أو مغادرة البلاد.

وبالفعل غادر عارف عبد الرازق فلسطين الى سورية، واستسلم عند الحدود للفرنسيين، ومعه بعض رفاقه. فكان أن نقل الى بغداد. كما وصل الى بغداد كل من حسن سلامة وأبو ابراهيم. أما عبد القادر الحسيني الذي كان يقود قوة الجهاد المقدس في القدس، فقد فضل السفر الى برلين، حيث تلقى بعض التدريبات العسكرية، وذلك بعد ماأصيب بجرح طفيف عام ١٩٣٦.

* * *

أصدرت بريطانيا عفواً عاماً عن جميع الثوار، مع نشوب الحرب العالمية الثانية. ودعت العرب الى التعاون معها ضد الألمان. كما دعت الصهاينة الى مثل هذا التعاون. والجدير بالذكر أن بريطانيا كانت قد أنشأت فرقة مسلحة من

الصهاينة، بقيادة ضابط انجليزي اسمه ونغيت، وكلفت هذه الفرقة بحراسة الخطوط الحديدية ليلاً.

وفي ١٩٣٩/٥/٢١، أصدرت بريطانيا كتاباً سمي الكتاب الأبيض، وهو يتضمن وعداً من بريطانيا باقامة دولة فلسطينية مستقلة.

وبالطبع ما كان الناس يجهلون الخدعة الكامنةوراء الكتاب الأبيض، فلقد صار الغدر البريطاني مشهوراً حتى لم يعد يخفى على الأطفال. ولكن الثورة قد حيل بينها وبين ينابيعها، فجفت وانتهت مع بداية الحرب العالمية الثانية، أوبعد خمسة أعوام دامية ومريرة.

٣ ـ عام النكبة وما بعده:

لم يرفع الستار كلياً عن اسرار عام ١٩٤٨. ولا ريب في أن ذلك العام لم يكن بغير اسرار خفية يحدس العقل بوجودها حين يصطدم ببعض الوقائع التي لا تذعن للتفسير. ومما يستحق التدوين ههنا أن قاع الشعب الفلسطيني قد أشاع في أوساطه، منذ توقيع الهدنة الأولى في ١٩٤٨/٦/١١، بأن ثمة مؤامرة عالمية وعربية تستهدف طرد الفلسطينيين من ديارهم بغية تسليمها للصهاينة.

* * *

انتهت الحرب العالمية الثانية بفوز الحلفاء على المحور، وبذلك تقرر مصير فلسطين نهائياً، إذ لا ريب في أن انتصار الحلفاء كان يعني قيام الكيان الصهيوني.

ولكن الصهاينة في فلسطين أحبوا أن يظهروا مظهر قوة وطنية معادية للاستعمار، شأنهم في ذلك شأن الشعوب العربية أو الشرقية التي قاتلت ضد الفرنسيين والانجليز منذ أول وصول لهم الى الاقطار العربية. ولهذا فقد راحوا ينفذون بعض العمليات الصغيرة ضد الجنود الانجليز. وقتلوا بالفعل حفنة ضئيلة العدد من جنود بريطانيا التي كانت على اتم استعداد لابادة الشعب

الفلسطيني كله، خلال الأعوام الخمسة الدامية، من أجل حماية الصهاينة. وللحق أنه لولا الانجليز لاستطاع الشعب الفلسطيني خلال عام ١٩٣٦ أن يطرد الصهاينة، غير المسلحين يومذاك، من فلسطين بواسطة الحجارة.

وذراً للرماد في العيون قام الانجليز في ٢٩/ ٦/ ١٩٤٦ بمداهمة بعض مستوطنات الصهاينة، حيث عثر على بعض الأسلحة. وبينما كان الانجليز يحكمون بالاعدام على كل فلسطيني يقبض على السلاح في حوزته، فإن بريطانيا لم تعدم صهيونياً واحداً، على الرغم من كثرة الأسلحة التي ضبطت في المستوطنات ويمكن للمرء أن يحدس بأن جميع أسلحة الصهاينة التي صادرها الانجليز قد أعيدت اليهم بعد قليل.

* * *

وعلى أية حال، فإن بريطانيا قد عرضت المشكلة على هيئة الأمم المتحدة. وبرهنت المنظمات الدولية على أنها ـ بعد الانجليز ـ العدو الثاني للفلسطينيين، إذ لقد صوتت الأمم المتحدة على قرار التقسيم، لصالح الصهاينة، في ٢٩/ ١١/ ١٩٤٧. ومن المؤكد أن الصهاينة وحلفاءهم ماكان لهم من قرار التقسيم الا هدف واحد، وهو أن تولد الدويلة الصهيونية ولادة شرعية. أما حدود هذه الدويلة فسوف يحققونها على الأرض بطرائق اخرى. ولا ريب في انهم كانوا، وما زالوا، يريدون فلسطين كلها، مع السماح لأصحاب البلاد بهامش صغير يعيشون فيه تحت السيطرة الفعلية للصهاينة.

والسؤال المهم، الآن، هو هذا: هل يحق للأمم المتحدة أن تعمل على انشاء دول لا وجود لها من قبل؟

ورفض العرب قرار التقسيم، ورضي به الصهاينة. وبدأت الاشتباكات بعد صدور القرار مباشرة. وكانت يافا هي السباقة الى المبادرة. واستطاعت قرية سلمة الواقعة بجوار تل أبيب أن تتصدى للصهاينة وأن تلحق بهم خسائر كبيرة. أما في القدس، فقد استطاعت جماعة الجهاد المقدس التي كان يقودها عبد القادر

الحسيني أن تنفذ سلسلة من عمليات النسف الموفقة التي أرهقت الصهاينة، وذلك في شباط وآذار من عام النكبة.

وتحركت جامعة الدول العربية، وهي يومذاك في قبضة الانجليز دون ريب، وعقدت مؤتمراً في بلودان وآخر في عالية، وقررت أن تسارع في تشكيل جيش اسمته جيش الانقاذ ليقاتل في فلسطين ريثما يتم جلاء الانجليز عنها في ١٥/ ٥/ ١٩٤٨، وحينذاك فإن الجيوش العربية سوف تدخل البلاد وتحررها من الصهاينة. وأعلن رئيس وزراء مصر يومذاك، في مؤتمر عالية، وبزلّة لسان فاضحة، أن الجيوش العربية سوف «تقوم بمظاهرة عسكرية» في فلسطين. وهذا يتضمن أن المصير مقرر سلفاً، وأن كل شيء مبتوت في أمره على نحو مسبق، والا فلماذا تكون هنالك «مظاهرة عسكرية» بدلاً من حرب حقيقية؟

وعلى أية حال، فقد بدأ جيش الانقاذ يعبر الحدود منذ كانون الثاني، عام ١٩٤٨. وأخذ يناوش بعض المستوطنات الصهيونية ولكن دون جدوى، في الغالب الأعم. فالجيش مرتجل وعدده صغيرة (ستة آلاف جندي)، وتسليحه خفيف، ونظامه متدهور.

وأخذ الناس يرتابون في أمر هذا الجيش يوم اكتفى أديب الشيشكلي، قائد منطقة الجليل، بارسال ثمانين جندياً وحسب الى مدينة عكا المحاطة بالمستعمرات الصهيونية. والأنكى من ذلك أن الشيشكلي قد سحب هؤلاء الثمانين جندياً في ١١/٥/١٩٤٨. وعبثاً راح أهل عكا يلحون على الشيشكلي بأن تحتفظ مدينتهم بحفنة الجنود هذه. وحين سئموا منه فقد ذهبوا إلى بيروت يستثيرون نخوة الحكومة اللبنانية، فمدينتهم جزء من فينيقيا، وهي لم تكن قط في أي يوم من الأيام جزءاً من أية دولة توراتية. ولكن الحكومة اللبنانية لم تصغ لهم ولم تنفعهم في شيء. فراحوا الى بنت جبيل وقابلوا ضابطاً كبيراً في جيش الانقاذ، والحوا عليه بوجوب ارسال الجنود الى عكا قبل ضياعها، ومن أجل رفع معنويات المقاتلين الفلسطينيين داخل المدينة. فكان أن أرسل القائد خمسين جندياً الى عكا، وذلك

اجتناباً لضغط السكان الذين كانوا يرون الكارثة بأعينهم. ولكن هؤلاء الجنود الخمسين غادروا المدينة بعد ليلتين فقط من وصولهم اليها، ولم يشتركوا بأي قتال على الاطلاق. ومع ذلك تريد الصهيونية أن توهم العالم بأنها قاتلت الجيوش العربية وهزمتها. والحقيقة أن ما جرى في عكا لا يمكن تحميل مسؤوليته لضابط صغير يسمى الشيشكلي، فهو ليس أكثر من جندي يتلقى الأوامر وينفذها. أما المسؤولون الحقيقيون عن سقوط عكا في السادس عشر من أيار، فهم أولئك القابعون في دهاليز السلطة داخل العواصم العربية.

ولا لزوم ههنا للدخول في التفاصيل، فإن سقوط يافا وحيفا وصفد وطبرية وبيسان قد تم بالطريقة نفسها على وجه الدقة. ففي صفد، مثلاً، بينما كان النصر يوشك ان يتحقق لصالح العرب، وعندما أخذ الصهاينة ينسحبون من حيهم الخاص مع عائلاتهم، وذلك في السابع من أيار، أخذ الاردنيون بمغادرة المدينة على نحو مفاجىء، كما أن الشيشكلي أصدر أمراً بالانسحاب من قلعة صفد دون أن يتعرض لأي هجوم من قبل الصهاينة، الذين لم يعرفوا من أمر هذا الانسحاب شيئاً الا بعد يومين. وقد صرّح القائد الاردني فيما بعد أنه انسحب من صفد بناء على اوامر الملك وأوامر غلوب باشا، وهذا ضابط بريطاني كبير كان يتحكم بالمملكة الاردنية كما يشاء.

أما في طبرية وبيسان فقد راح الجيش الاردني ينقل الناس منهما الى خارج حدود فلسطين بسياراته الخاصة. وفعل الجيش الاردني الشيء نفسه في حيفا. وقد ساعده الجيش البريطاني على تهجير السكان بسفن بريطانية. وقد انسحبت السريتان الاردنيتان من حيفا على نحو مفاجىء، في ١٩٤٨/١/١٦. ولكن المدينة صمدت حتى الثاني والعشرين من نيسان.

وأرسل جيش الانقاذ ضابطاً عراقياً الى يافا ومعه ثمانون جندياً، وذلك في شباط. وطلب الضابط أسلحة وذخائر ومزيداً من المتطوعين، ولكن أحداً لم يسمع صوته قط، فما كان منه الا أن غادر المدينة مع جنوده.

ثم وصلت الى يافا قطعة عسكرية لا يزيد عددها عن خمسمائة جندي، ومعها أربع مصفحات وفصيلة مدفعية. وهاجم الصهاينة حي المنشية وارتكبوا فيه مجزرة مروعة. فانسحب جيش الانقاذ وراح ينصح الناس بمغادرة يافا. وقد خسر العرب في يافا ٧٧٠٠ إصابة بين قتيل وجريح. وأعلنت عصابة الارجون الصهيونية. أنها تكبدت أكثر من ألف وتسعمائة إصابة. أما عصابة الهجنا، فأحجمت عن التصريح بخسائرها.

* * *

أدركت القيادة الفلسطينية خطورة الموقف. فتحرك عبد القادر الحسيني مع رفيق له الى دمشق. وهناك طلب من مكتب الجامعة العربية أسلحة وذخائر. والح في الطلب. وكان الحاج أمين الحسيني يصرح باستمرار قائلاً: سلحوا الشعب الفلسطيني، أيها العرب، ولن يكون هناك أي داع يدعو جيوشكم الى القتال في فلسطين. ولكن تسليح الفلسطينيين هو أول الممنوعات.

ما الذي قدمه مكتب الجامعة العربية لعبد القادر الحسيني؟ قدم له عشرين بندقية وحسب. أخذها وذهب الى قطنا (غرب دمشق) ليشهد ضباط جيش الانقاذ، وهم من جنسيات عربية مختلفة، على ما قدمته الجامعة العربية للفلسطينيين. وكان قبل ذلك قد صرخ في وجوه المسؤولين في المكتب بأنهم خونة متفقون مع الصهيونية. والانجليز على تسليم فلسطين. ثم قال لرفيقه: اذن، فلنذهب ولنستشهد في بلدنا.

وعاد الحسيني الى القسطل، وهي قرية الى الغرب من القدس. وقاتل وسقط شهيداً على أرض القسطل، في التاسع من نيسان، ونزل نبأ استشهاده نزول الصاعقة على رؤوس الفلسطينيين.

ونكب الفلسطينيون مرة أخرى، بعد مضي أقل من شهرين على استشهاد الحسيني، حين استشهد حسن سلامة في رأس العين. وحسن سلامة هو أحد قادة الثورة في السنوات الخمس الدامية.

وفي ذلك الربيع المأسوي اقترف الصهاينة جملة من المجازر أبرزها مجزرة حي المنشية في يافا ومجزرة دير ياسين ومجزرة ناصر الدين قرب طبرية، ومجزرة عين الزيتون في قضاء صفد.

وهكذا اسقطت في أيدي الصهاينة جملة من المدن والقرى الفلسطينية تحت سمع الانجليز وبصرهم، وقبل انسحابهم من فلسطين في ١٥/٥/١٩٤٨، يوم أعلن الصهاينة قيام دولتهم اعلاناً رسمياً. واعترفت بالدولة الجديدة جملة من الدول، أهمها تلك المجموعة التي صوتت في الأمم المتحدة لصالح قرار التقسيم.

* * *

وجاء الآن دور الجيوش العربية التي أخذت بالتدفق على فلسطين ابتداء من ١٥/٥.

كان الانجليز قد أسسوا ثلاثة جيوش ممتازة في العقد الرابع والخامس من القرن العشرين. وقد أعدوا هذه الجيوش بحيث تتمكن من مجابهة الالمان، فيما لو نزلوا في مصر أو الهلال الخصيب. فقد كانت المانيا في أمس الحاجة الى النفط، وكان النقص في الطاقة النفطية عاملاً هاماً من عوامل الهزيمة التي لحقت بالجيش الألماني.

أما الجيوش الثلاثة الممتازة فهي المصري والعراقي والاردني. وأما بقية الجيوش العربية فما كانت الا في طور التشكيل. وأهم ما ينبغي الانتباه اليه هو أن الانجليز كانوا يحتلون الاردن والعراق ومصر، ولهم فيها جيوش كثيفة جداً. فقد رابط مائة ألف جندي بريطاني على ضفتي السويس وحدها، إذ لو هيمن الألمان على القناة لوصلوا الى منابع النفط في السعودية والخليج.

وبالطبع ما كان الانجليز المتشبثون بوعد بلفور ليسمحوا للجيوش الثلاثة بالدخول الى فلسطين الا ضمن مقدار محدود، أو الا بكميات قليلة يتمكن الصهاينة من مجابهتها بعد تزويدهم بأسلحة أفضل من أسلحة هذه الجيوش.

وأغرب ما في الأمر أن العرب، بعد دخول جيوشهم الى فلسطين باسبوع واحد وحسب، قد اعلنوا عن استعدادهم لوقف اطلاق النار، بناء على طلب مجلس الأمن الدولي، مع أن الجيوش الثلاثة قد احاطت بتل أبيب احاطة السوار بالمعصم. فالعراقيون من الشمال والاردنيون من الشرق والمصريون من الجنوب.

وأصبحت حقيقة الامور واضحة وضوح الشمس في يوم تموزي. وإليك خلاصة القول:

إذا خلّي بين الفلسطينيين والصهاينة، فإن جيوش الغربيين سوف لن تتدخل في القتال، ولكن الفلسطينيين سوف يهزمون قطعاً، وسوف ينشأ الكيان الصهيوني على أرضهم، شاؤوا أم أبوا. فتسليح الصهاينة أفضل بكثير من تسليح الفلسطينيين الفقراء الذين فاجأتهم الحرب وهم على غير استعداد لها.

واذا تدخلت الجيوش العربية تدخلاً جدياً، بأسلحتها المتفوقة على أسلحة الصهاينة، فإن الدول الاوروبية، ومعها أمركا سوف تتدخل علناً وتهزم العرب. ويقيناً كان على العرب أن يتجهوا نحو هذا الخيار، ويحرجوا الغربيين، ويفضحوا حقيقة الامور للعالم وللتاريخ.

والجدير بالذكر أن مجموع القوات العربية العاملة في فلسطين منذ أواخر أيار قد كان معادلاً لمجموع القوات الصهيونية. فعدد العرب الذين تحت السلاح بالفعل، بما في ذلك جيوشهم النظامية وجيش الانقاذ والمجاهدون الفلسطينيون، لا يتعدى خمسة وثلاثين ألفاً، وهو رقم طفيف جداً حين ينسب الى عدد سكان العالم العربي. وقد حشد الصهاينة مثل هذا العدد تماماً في خريف سنة الكارثة. ولكنهم، مع ذلك، ظلوا يفتقرون الى التدريب الممتاز الذي كانت تتمتع به الجيوش الثلاثة، وهي التي أعدها الانجليز لمجابهة الألمان.

وبالطبع لم يكن الصهاينة قادرين على دحر هذا العدد الطفيف من الجنود في بداية أمرهم، أي قبل الهدنة الأولى، ولكنهم سوف يتمكنون من ذلك بعد أن يتزودوا بأحدث الأسلحة، وبعد أن يجندوا أكبر عدد ممكن من رجالهم. ولهذا فقد

توجب على العرب أن يحشدوا مائة ألف جندي في فلسطين، ولكن هيهات! فالانجليز لن يسمحوا بذلك قط. وهذا هو التفسير الوحيد والمعقول لضآلة حجم الجيوش العربية في فلسطين.

وقصارى القول أن الجيوش العربية التي كانت شديدة القدرة على رمي الصهاينة في البحر في أواخر أيار، نظراً لكفاءتها الحربية وتفوقها في السلاح، قد عمدت، بدلاً من ذلك، الى توقيع اتفاقية الهدنة مع الصهاينة. وقد أصبحت الهدنة سارية المفعول ابتداء من ١٩٤٨/٦/١١.

كل من عاش في تلك الفترة داخل فلسطين يعلم تماماً أن تسليح الصهاينة كان خفيفاً وأن عدد قواتهم كان ضئيلاً. (ولكن هذا سوف يتضخم بعد الهدنة الثانية). فلو انقضت الجيوش العربية على تل أبيب في أواخر أيار لاحتلتها قطعاً. أما ما سوف يجري بعد احتلالها فشيء معروف. ان مائة ألف جندي بريطاني سينقضون على القوات العربية في فلسطين ويدحرونها الى خارج الحدود. فمهما حاول الصهاينة أن يزيفوا الحقائق، وأن يظهروا بمظهر البطولة الخارقة، وأن يوهموا الناس بأنهم أقاموا دولتهم بفضل شجاعتهم النادرة وكفاءتهم القتالية العالية، فإن الحقيقة أوضح من أن تخفى. وماذا عساهم يقولون عن اتفاقية حماية الكيان الصهيوني التي وقعتها أمريكا وبريطانيا وفرنسا عام ١٩٥٠؟

إن السؤال التالي سيبقى بغير جواب إلى أجل غير مسمى، مع أنه السؤال الحاسم بالفعل: لماذا لم تنقض الجيوش العربية على تل أبيب، في أواخر أيار، على الرغم من أن جيوش الغربيين سوف تتدخل في القتال بكل تأكيد؟ ماذا كان العرب سيخسرون (فضلاً عن فلسطين التي لا بد من ضياعها في جميع الأحوال) لو أنهم أقدموا على تلك الخطوة؟

أما أن الجيش الصهيوني قد كان موهوناً قبل الهدنة الأولى، فهذا شأن تؤكده الوقائع والأحداث التي جرت خلال عام الكارثة. بل أن حرب السويس نفسها تؤكد تفوق الجيش المصري على الجيش الصهيوني. فإثر تأميم قناة

السويس، اتفق الصهاينة مع الانجليز والفرنسيين، على أن يشن الجيش الصهيوني هجوماً على سيناء، وأن يدحر المصريين حتى الضفة الغربية للقناة. وبذلك تتعطل الملاحة في هذا الممر الدولي، مما يخول كلاً من بريطانيا وفرنسا حق التدخل لابعاد الطرفين المتحاربين عن ذلك الممر المائي. وهجم الجيش الصهيوني في تشرين الأول (١٩٥٦)، يقوده موشي دايان، أحسن الضباط في جيش الصهاينة. وقاتل دايان في (أبو عجيلة) من الفجر حتى غروب الشمس، ودحر في المساء على أيدي رجال قطعة صغيرة لا تتجاوز ألف جندي. ثم عاود الهجوم في اليوم التالي، وقاتل من الفجر حتى الغروب، ودحر مرة ثانية. وكرر الفعل نفسه في اليوم الثالث، ودحر كما دحر في اليومين السابقين. وعند ذاك يئست بريطانيا وفرنسا من الصهاينة، وانزلتا قوات غزوهما في بور سعيد. فما كان من الجيش المصري الا أن انسحب الى الممرات. وبذلك اجتاح الصهاينة سيناء دون قتال.

يقيناً إن الجيوش العربية الثلاثة قد كانت تقاتل على خير وجه حين تصدر اليها الأوامر بالقتال. وهجمات الصهاينة على الجيش الاردني في اللطرون شديدة الشهرة. خمسة هجومات على اللطرون (قرب القدس) صدها الجيش الاردني ببسالة، على الرغم من أن غلوب باشا هو القائد الفعلي لذلك الجيش. كان الهجوم الأول في ٢٤/٥، أما الهجوم الخامس فحدث في ١٨/٧.

أما معارك القدس، فقد برهنت بما لا يقبل الدحض البتة على أن الصهاينة قد كانوا عاجزين تماماً عن انتزاع أي شيء من تحت أقدام الجنود الاردنيين الشديدي الصلابة، شريطة أن يكون غلوب قد أصدر الاوامر لهؤلاء الجنود بالقتال لا بالانسحاب. وغلوب لا يصدر مثل هذه الأوامر الابناء على خطة مصممة سلفاً، وكان عبد الله التل يقود الكتيبة الاردنية في القدس، وقد برهن على قدرات قيادية استثنائية.

أما الجيش العراقي فقد هزم الصهاينة في جنين هزيمة منكرة، بعد ما احتلوا المدينة بالفعل، وذلك نظراً لتفوق الصهاينة بالعدد والعدة على ثلاثمائة

مقاتل فلسطيني كانوا وحدهم يدافعون عن جنين. وبعدما احتل الصهاينة المدينة زحفت كتيبة عراقية لا يزيد عددها عن خمسمائة جندي، واحاطت بجنين ومشارفها. وهرب الصهاينة بعد ما خلفوا أكداساً من جثث قتلاهم. واعترفوا بأنهم تكبدوا ١٢٤١ إصابة في جنين وحدها. ومع ذلك فإنهم ما انفكوا يحاولون اقناع العالم بأنهم أبطال ميامين، وبأنهم هزموا الجيوش العربية بفضل كفاءتهم القتالية العالية.

ومن المفارقات أنهم، مع ذلك، يعترفون بهزائمهم أمام بعض القرى العربية. ففي كتاب عنوانه «حرب فلسطين، ١٩٤٧ - ١٩٤٨، الرواية الصهيونية»، تراهم يقرون بأنهم هزموا أمام لوبية والطيرة واجزم وجبع وعين غزال. ولقد هزموا كذلك أمام قرية البروة، في قضاء عكا.

والحقيقة ان معركة لوبية (في قضاء طبرية) هي دليل قاطع لا يدحض البتة على أن الصهاينة قد كانوا يفتقرون الى العدد والعدة، في ربيع عام النكبة، اذا ما قورنوا بالجيوش العربية. ولكن، على الرغم من تفوقهم في العدد والعدة على الفلسطينيين، فقد استطاعت مائتا بندقية، عززتها نجدات من القرى الأخرى، لا تزيد البتة عن مائتي بندقية، أن تدحر قوة صهيونية لا تقل عن ألف جندي، مسلحين بالسيارات المصفحة ومدافع الهاون والرشاشات. ففي لوبية قدم الصهاينة دليلاً لا يدحض على أنهم لا يصلحون للقتال، تماماً على النقيض مما اشاعوا في العالم كله. إذ لقد استطاع الفلاحون غير المدربين أن ينتزعوا المصفحات من أيدي الصهاينة، فضلاً عن اسلحة أخرى، وذلك قبل الهدنة الأولى بيوم واحد[1].

ومن المفارقات أن تخفق الجيوش النظامية الجيدة التسليح والتدريب حيث ينجح الفلاحون. وحين يعلم المرء أن هذه الجيوش قد اعدها الانجليز لمجابهة

---

١ ـ ان كاتب هذه السطور قد كان شاهد عيان على ما جرى في لوبية، عام النكبة.

الألمان، فإنه سوف يستهجن تماماً أن تكون هذه الجيوش قد هزمت على أيدي عصابات قليلة العدد والعدة. والحقيقة أن الصهاينة المتفاخرين دوماً ببطولاتهم، إنما يطعمون أنفسهم جوزاً فارغاً، كما يقول المثل الشعبي.

وفي الواقع أن الجيوش العربية اثبتت تفوقها منذ دخولها الى فلسطين في أيار. وعندما اندلع القتال مرة ثانية بعد انتهاء الهدنة الأولى في ٩/ ٧، عادت الجيوش الثلاثة لتثبت تفوقها من جديد. ومع ذلك فقد صدرت الأوامر لهذه القوات بالتراجع عن تل أبيب وضواحيها. فتراجع الجيش العراقي عن الساحل باتجاه الشمال الشرقي، وتراجع الاردنيون عن الرملة. وسقطت اللد الفارغة من أية قوات عربية باستثناء حفنة صغيرة من المقاتلين الفسلطينيين. وأخذ الصهاينة الرملة دون قتال أبداً. وارتكبوا مجزرتين في اللد والرملة. أما في الشمال حيث لا وجود لأي من الجيوش الثلاثة على الاطلاق، فقد تراجع جيش الانقاذ عن الجليل الادنى، وتراجعت قوات الفلسطينيين الضئيلة العدد عن الناصرة وصفورية ولوبية. وتوقف القتال صبيحة ١٩/ ٧. ولم يبق للعرب في الشمال سوى الجليل الاوسط. والجليل الأوسط أرض لم يدخلها لصهاينة طوال عهد الانتداب، اذ لا وجود لهم هناك على الاطلاق، وهو أرض جبلية لاتقل مساحتها عن ألف وخمسمائة كيلومتر مربع. ويسكنها زهاء مائة ألف فلسطيني. وفي وسطها يقع الجرمق الأشم الذي عجزت بريطانيا عن احتلاله في السنوات الخمس الدامية. يقيناً إن ألف جندي وحسب كانوا قادرين على حماية الجليل الاوسط. ولو وفر العرب الاسلحة للفلسطينيين لما عجز أصحاب الأرض عن حمايتها. ولم لا، ما داموا قد دحروا بريطانيا عن الجرمق؟

وحين قام الصهاينة بالهجوم على الجليل الأوسط، صباح الثلاثين من تشرين الأول، لم يستطع جيش الانقاذ ان يقاتل أكثر من بضع ساعات. وهكذا سقط الشمال كله، وبقي الجنوب، حيث يسيطر الجيش المصري بكل ثقة بالنفس.

ومما هو جدير بالتنويه أن الصهاينة قد ارتكبوا بعض المجازر في ثلاث من قرى الجليل الاوسط، أولها مجزرة عيلبون، وذلك انتقاماً من تلك القرية التي اسهمت اسهاماً ممتازاً في صد الصهاينة عن لوبية عشية الهدنة الأولى. كما ارتكبوا مجزرة أخرى في كفر عنان، الواقعة الى الشرق من الرامة، ومجزرة ثالثة في الصفصاف، وهي قرية شديدة القرب من الجش وصفد. وثمة أخبار مفادها أنهم اعتدوا على بعض النساء اعتداء مشيناً في أعالي الجليل.

* * *

أما هزيمة المصريين في الجنوب فشيء يثير الاستهجان، نظراً لما فيها من مفارقة عجيبة فبينما كان في استطاعة مصر، أن تقذف بالصهاينة الى البحر، لو سمح لها بذلك، فقد تحتم على الفرقة المصرية، وهي أكبر قطعة عربية في فلسطين يومذاك، أن تتمرغ كرامتها في الوحل، عندما اندلع القتال بين الصهاينة وبين المصريين في ١٦/١٠، وذلك بعد انتهاء الهدنة الثانية بأقل من شهر.

لم يكن لدى الصهاينة قبل الهدنة الأولى سوى أربع طائرات. أما مدفعية الميدان والدبابات المجنزرة فلم يكونوا يملكون منها شيئاً يومذاك. ولكن الموقف تغير على نحو جذري بعد انتهاء الهدنة الثانية في ايلول. ويبدو أن الاسلحة التي جلبها الصهاينة من تشيكوسلوفاكية قد اكتمل شحنها واكتمل التدريب عليها خلال الهدنتين، وخلال الأيام العشرة التي تفصل بين الهدنتين.

وهكذا تشكلت فرقة صهيونية معززة بالمدرعات المجنزرة والمدافع الثقيلة والطائرات القاذفة، ووضعت تحت قيادة ضابط كبير يسمى يغال آلون. وكان هدفها السيطرة على النقب الذي من أجله اغتال الصهاينة الوسيط الدولي، برنادوت. ولا لزوم للدخول في تفاصيل القتال الذي بدأ مع بداية الخريف وامتد حتى قلب الشتاء. فقد استطاع آلون أن يحتل النقب كله، ومن ضمنه بلدة بئر السبع، وأن يشطر الجيش المصري الى شطرين، الأول في الخليل والثاني في غزة والأراضي القريبة منها. وعلاوة على ذلك فقد حاصر لواء مصرياً في الفالوجة. ثم

وُقعت الهدنة الدائمة بين مصر والصهاينة، ورفع الحصار عن لواء الفالوجة وعاد الى بلاده، ونقل لواء الخليل الى مصر، وبقي قطاع غزة في قبضة المصريين، وقد ظل في قبضتهم حتى حرب حزيران، عام ١٩٦٧.

وههنا يتبدى التآمر البريطاني بأوضح صوره.

كان شطر كبير من أسلحة الفرقة المصرية وذخائرها قد استهلك في القتال اثناء الصيف، ولكن دون أن تتجدد وفقاً للمطلوب. وحين هوجمت مواقع المصريين الى الشرق من غزة، طلبت القيادة المصرية في فلسطين من الكتيبة المرابطة في بئر السبع أن ترسل الى غزة جميع الأسلحة الثقيلة التي في حوزتها، علماً بأن الهجوم الصهيوني على بئر السبع قد كان وشيكاً. وهذا دليل مقنع على ان الفرقة المصرية في فلسطين قد كانت تكابد نقصاً في الذخيرة والسلاح.

وبدلاً من ان تبادر القاهرة الى ارسال الذخائر والأسلحة الى الجبهة، بل عوضاً عن ان ترسل فرقة جديدة الى فلسطين، أو فرقتين، فإنها راحت تستجدي من ملك الاردن أن يفتح النار من جهته ليخفف الضغط عن المصريين. وكان الجيش العراقي والجيش الاردني قادرين على فعل المعجزات. وسافر رئيس وزراء مصر إلى عمان واجتمع بالملك، وطلب منه أن يفتح الجيشان الهاشميان النار على المحور الذي يقوده آلون، والمؤلف من خمسة عشر ألف جندي، أي ما يعادل تماماً عدد القوات المصرية.

وألح شكري القوتلي كذلك على الملك كي يفتح النار من جهة الخليل. ولكن الملك ظل على عناده، والنار لم تفتح قط من تلك الجهة. وشاعت في الأوساط الشعبية عبارة «ماكو أوامر» التي كان يرددها الجنود العراقيون. وحتى اللواء المصري في الخليل لم يتحرك لنجدة اخوانه المصريين في بئر السبع والفالوجة وسواهما.

والجدير بالتنويه أن الجيش المصري قد أبدى بطولات لا يستهان بها أثناء الحصار، فقد كبدهم خسائر فادحة، وقد استعصى عليهم أن يزحزحوه متراً

واحداً في بعض المواقع. وحتى اللواء المحصور في الفالوجة، والذي أبى الاستسلام بأي شرط من الشروط، كان ينقض على مواقع الصهاينة وينتزع بعضها من تحت أرجلهم.

لماذا لم ترسل مصر ثلاث فرق جديدة الى فلسطين؟

لأنها كانت سوف تصطدم بمائة ألف جندي بريطاني يرابطون على قناة السويس، ويتحكمون بكل حركة من غرب القناة الى شرقها.

حسناً، ولكن لماذا لم ينقض الجيش المصري على الانجليز في قناة السويس يومذاك؟

لأن الجيش المصري سوف يباد قطعاً، أو سوف تحل به كارثة ـ مروعة.

ويصدق القول نفسه على الاردنيين والعراقيين. فقد كان عليهم أن يقاتلوا الانجليز في الاراضي الاردنية والعراقية نفسها. وعند ذاك سوف تحل بهم كارثة رهيبة.

وهكذا آثر العرب السلامة مع ضياع فلسطين على الكارثة مع ضياع فلسطين أيضاً.

ويبقى سؤال خطير، بل ما من سؤال آخر أخطر منه: لماذا لم يقم الصهاينة بطرد الفرقة المصرية من قطاع غزة؟ أو لماذا تركوا قطاع غزة في قبضة العرب، مع أن الجيش المصري قد تفكك، ولم يبق سوى بضع ضربات ليقذف ببقاياه الى سيناء؟

لعل مما هو واضح بعض الشيء أن ثمة مركزاً يربض في لندن، أو ربما في واشنطن، وأن هذا المركز هو الحائز على حق اصدار القرارات الحاسمة. فهو الذي يمنح النصر في فلسطين لهذه الجهة، وينزل الهزيمة بتلك. واضح كذلك أن المركز قد صمم على تنفيذ نسخة مختزلة من قرار التقسيم، ينال بموجبها عرب فلسطين شطراً صغيراً من بلادهم، شريطة أن ينضم هذا الشطر الى الدولة الاردنية. وارتأى المركز أن هذه الدولة بحاجة الى ميناء على البحر المتوسط، وأن هذا الميناء

لا يمكن أن يكـون في شمال فلسطين ولا في أواسطها، بل **حصراً في الجنوب**. وهكذا ظل ميناء غزة جزءاً من حصة العرب.

وبالفعل، ضمت الى الاردن جملة الأراضي التي سميت الضفة الغربية، أما قطاع غزة فقد تطلب ضمه موافقة مصر التي ظلت معادية للاردن منذ حرب فلسطين عام ١٩٦٧، وذلك لأن الاردن لم ينجد المصريين يوم كانوا يقاتلون في فلسطين. وفضلاً عن ذلك فإن تسليم غزة الى الاردن لايمكن أن يتم الا في ظل حل شامل للصراع العربي الصهيوني. وحتى اليوم (عام ١٩٨٨) يبدي الصهاينة أتم استعداد لتسليم الضفة والقطاع الى حكومة الاردن. وأغلب الظن أنهم صادقون في ذلك. ولكن العقبة الكؤود التي تواجههم الآن هي الشعب الفلسطيني الذي أعلن الثورة في ١٩٦٥/١/١. ويريد الصهاينة أن يطمسوا هوية هذا الشعب، بل يتنكرون لوجوده تنكراً أعمى، بحيث لا يعترفون الا بوجود اللاجئين المحتاجين الى توطين.

وخلاصة القول ان الصهاينة الذين رفضوا الاعتراف بوجود الشعب الفلسطيني، والذين صرحوا بهذا الرفض ابتداء من عام النكبة، قد جاؤ وا بالبرهان المقنع والحاسم على أنهم كانوا يرفضون قرار التقسيم، رفضاً مستتراً أو ضمنياً، ومنذ صدوره عام ١٩٤٧، بل قبل صدوره، بل منذ مطلع أمرهم.

وعلى أية حال، هنالك سؤال آخر. ما دام الصهاينة قد هزموا الجيش المصري، فلماذا لم يقاتلوا ويهزموا الجيشين الهاشميين في الضفة الغربية، علماً بأن عدد جنود الجيشين الهاشميين معاً في فلسطين لا يتجاوز البتة عدد أفراد الفرقة المصرية؟

الجواب عن هذا السؤال واضح. لقد صمم المركز على أن يمنح الضفة الغربية للمملكة الاردنية. ولو تعنت الصهاينة ورفضوا ذلك لسمح المركز (لندن أو

واشنطن) للجيشين الهاشميين بالقتال، بعد السماح لفرق اردنية وعراقية جديدة بالدخول الى فلسطين، وعند ذاك سوف تحل بهم كارثة مروعة. وبما ان من عادة الدول الكبرى أن تتأرنب أمام رغبات الصهاينة، فإن في المعقول أن تكون الصهيونية هي التي اقترحت ابقاء الضفة الغربية وقطاع غزة في أيدي العرب، وذلك لأن من شأن هذه الخطوة ان تخفف من وقع المصيبة على الفلسطينيين، وأن تعجل بالتالي عملية الصلح بين العرب والصهاينة.

* * *

وقّع الصهاينة هدنة دائمة مع لبنان، وأخرى مع سوريا. والحقيقة أن قوات الجيش اللبناني لم تتخط بلدة المالكية الواقعة الى الجنوب قليلاً من الحدود اللبنانية ـ الفلسطينية، أما الجيش السوري الذي اتخذ من بلدة سمخ مركزاً لقيادة الجبهة، فقد نفذ عدداً من العمليات العسكرية في منطقة بيسان ومنطقة الحولة. وكانت أبرز منجزاته احتلاله لمستعمرة مشمار هيردن. والحقيقة أن الجيش السوري قد كان في طور التكوين، ولولا ذلك لكان في امكانه أن ينجد المصريين في الجنوب من جهة الجليل الأوسط.

أما الهدنة الدائمة مع الاردن فكانت مشينة حقاً، فضلاً عن أنها تنطوي على مفارقة غريبة لا يسوّغها الذهن.

وقعت هذه الهدنة في رودس، في ٣/٤/١٩٤٩. وكان الجيش العراقي حينئذ لا يزال يسيطر على المثلث (جنين ـ نابلس ـ طولكرم)، ويتحدى الصهاينة الذين ما عادوا يتجاسرون على الاقتراب منه بعد الدرس الذي تلقنوه في جنين.

وبموجب اتفاقية الهدنة الدائمة تنازل الملك الاردني، عبد الله بن الحسين، عن القرى التالية: أم الفحم، عارة، عرعرة، باقة الغربية، طيرة المثلث، حلحولية، الطيبة، قلنسوة، كفر قاسم (التي سوف يرتكب فيها الصهاينة مجزرة مروعة أثناء حرب السويس)، بيت صفافا، بتير، القبو، الولجة. ومعظم هذه القرى كان يسيطر عليها الجيش العراقي قبيل تسليمها للصهاينة، أو يوم ابرمت

اتفاقية رودس في الثالث من نيسان (١٩٤٩) لأن الجيش العراقي قد انسحب منها بعد توقيع الاتفاقية، وذلك في ٢٧/٤/١٩٤٩. والجدير بالتنويه أن هذه القرى تقع في أراض سهلية شديدة الخصوبة. فحين ادعى الصهاينة انهم يريدون العودة الى «أرض أجدادهم» قد اكتشفوا حجة ممتازة لابتزاز الأرض من أصحابها الشرعيين. فقد آلت اليهم جميع بيارات البرتقال التي غرسها الفلسطينيون قبل أول هجرة صهيونية الى البلاد، علماً بأن جميع الاراضي الواقعة بين يافا وعريش مصر لم تدخل في أية دولة توراتية على الاطلاق.

ولكن لماذا انسحب العراقيون دون قتال؟

لأنهم كانوا يعرفون ما يستطيع الانجليز أن يفعلوا في أرض العراق نفسها. فالانجليز مصممون على تنفيذ وعد بلفور بأي ثمن. ولقد قتلوا أربعة عشر ألف فلسطيني، عدا الجرحى والمعتقلين والمنفيين، خلال فترة تقل عن أربع سنوات (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩)، لأن الفلسطينيين حاولوا منع الانجليز من تنفيذ وعد بلفور، الذي ما كان في الميسور منعه الا بوقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين، الامر الذي رفضه الانجليز رفضاً باتاً على الدوام. ولو حاولت أية دولة عربية أن تقاتل الانجليز لتمنعهم من تنفيذ وعد بلفور، لكان مصيرها أبشع من مصير الشعب الفلسطيني، دون ريب.

فههنا، حيث جرت معركة حطين، وحيث أخفق ريكادس قلب الأسد، صمم الانجليز على انشاء كيان غريب من شأنه أن يفري أكباد العرب. ولقد حان الحين لكي يسدد العالم العربي فواتيره القديمة. وهذا هو اللؤم الانجليزي بالضبط.

أعلن الصهاينة أن عدد قتلاهم طوال حرب النكبة، وهم يسمونها «حرب الاستقلال»، قد بلغ ٦٠٧٤، بينهم ألفان من المدنيين، والحقيقة أن هذا الرقم لا بد من مضاعفته اذا ما اراد المرء أن يقترب من الحقيقة. ففي معركة صغيرة خاضها الصهاينة حول قرية لوبية، ضد بعض الفلاحين الفلسطينيين، ترك

الصهاينة أربعة وسبعين جثة، عدا عن الجثث التي تمكنوا من اخلائها. فلئن كان هذا هو حالهم مع قرية، فكيف كان حالهم مع المصريين في الجنوب، ومع الاردنيين في اللطرون والقدس، ومع العراقيين في جنين وسواها؟

أما خسائر الجيوش العربية فطفيفة قطعاً، وهي لا تتعدى ألفي جندي، أو نحو ذلك.

وأما الفلسطينيون فقد تكبدوا آلاف القتلى، فضلاً عن ان تسعمائة ألف فلسطيني قد شردوا من ديارهم وصاروا مجرد لاجئين مبثوثين في جملة من الاقطار العربية وغير العربية. وهذه جريمة ليس من عادة التاريخ أن يغفر أمثالها، بل هو يعاقب عليها أشد عقاب.

* * *

ثمة مجموعة من الأسئلة شديدة الصلة بأسرار عام النكبة. وأهم هذه الأسئلة هي:

١ ـ مادامت الدول العربية تعلم سلفاً أن الغربيين ما كانوا يسمحون لها بأكثر من «مظاهرة عسكرية»، فلماذا زجت بجيوشها في حرب خاسرة سلفاً؟ ألم يكن عدم الدخول الى فلسطين أشرف وأسلم؟

٢ ـ لماذا كان عدد الجنود العرب في فلسطين طفيفاً جداً إذا ما قورن بعدد سكان العالم العربي وإمكانياته الضخمة، ولماذا تطابق مع عدد الجنود الصهاينة، أو نقص عن عددهم؟

٣ ـ لماذا سارعت الجيوش العربية الى القبول بالهدنة الأولى مع أن الصهاينة كانوا الطرف الضعيف يوم دخلت الجيوش العربية الى فلسطين؟

٤ ـ لماذا لم يتدخل الجيشان الهاشميان عندما استعر القتال بين المصريين والصهاينة؟

٥ ـ لماذا لم ترسل مصر مزيداً من الأسلحة والذخائر والجنود الى فلسطين عندما تفوق الصهاينة على المصريين؟

٦ ـ لماذا سمح الانجليز لجيش الانقاذ بالدخول الى فلسطين قبل انسحابهم منها، علماً بأن الانجليز كان لهم سبعة وسبعون ألف جندي في فلسطين عند بداية عام النكبة؟

٧ ـ لماذا أحجمت الجامعة العربية عن تسليح الفلسطينيين، ولا سيما بعدما أبدوا بطولات نادرة في يافا والقدس ولوبية وسلمى والبروة واجزم والطيرة وجبع وعين غزال وسواها؟

وهناك أسئلة كثيرة أخرى وتفاصيل قد لايلمها الاكتاب قائم بذاته.

* * *

وأخيراً، للعقل أن يتساءل عن جدوى الكيان الصهيوني، وعن الدوافع التي دفعت الغربيين الى انشائه على حساب العرب، ثم عن مصير هذا الكيان والجهة التي تقرر هذا المصير.

لا مبالغة في القول بأن الكيان الصهيوني لا نفع فيه لأحد على الاطلاق، بما في ذلك اليهود أنفسهم، بل لعله أن لايعادل الآلام التي ألحقها بالصهاينة وحدهم، إذ لاريب في أنهم قد تكبدوا عشرات الألوف من الاصابات خلال الأعوام الستين الأخيرة. وفضلاً عن ذلك فإنه مشروع باهظ التكاليف، ولامردود له على الاطلاق. وأبلد ما في هذا المشروع أنه لا يريد من الفلسطينيين أن يفعلوا شيئاً سوى الترحيب بأبناء «الشعب المختار» العائدين الى «أرض أجدادهم». وإن فعل الفلسطينيون أيما شيء آخر فهم المخربون المناهضون للحضارة والانسانية معاً.

ارقصوا، أيها الفلسطينيون، وغنوا طرباً وابتهاجاً بعودة «الشعب المقدس» الى «الارض المقدسة»! وإن لم تفعلوا ذلك، فانتم القتلة والمخربون وصانعو الصحارى والمركوسون في الهمجية بحكم طبعكم الأبدي. هذا هو منطق الصهيونية السخيف.

ولقد قيل الكثير عن الدوافع التي دفعت الغربيين الى إقامة الكيان

الصهيوني في قلب العالم العربي، وهو كيان يشكل خانة شاذة داخل الرقعة العربية، لأن لون هذه الخانة ليس من لون تلك الرقعة.

وخلاصة ما قيل أن الكيان الصهيوني ما بني على أرض فلسطين الا ليحقق ثلاثة أغراض:

١ ـ منع العرب من الاتحاد.

٢ ـ استنزاف طاقات العرب في الصراع وعرقلة نموهم وتحولهم الى قوة عالمية.

٣ ـ حماية المصالح الامبريالية في العالم العربي.

ولا مبالغة في القول بأن هذا كله لايصمد أمام النقاش الجدي، وذلك لأن:

ـ الكيان الصهيوني يحث العرب على الاتحاد بدلاً من أن يرسخ التجزئة، إذ من شأن الشعوب أن تتحد أمام الأخطار والتحديات المصيرية.

ـ ولأن العرب يستنزفون طاقاتهم في القمار والترف.

ـ ولأن حماية المصالح الامبريالية قد أوكلت الى الطبقة الخائنة في العالم العربي. انها طبقة الفنادق الباذخة والسيارات الفاخرة والسجائر الأجنبية والوسكي والمجوهرات، وما الى ذلك. وأغلب الظن أن هذه الطبقة لن تغادر الفنادق الى الخنادق في أي يوم من الأيام.

والأقرب الى الصواب ان يقال بأن الكيان الصهيوني لم ينشأ لكي يحارب الوحدة العربية، وإنما حوربت الوحدة العربية لكي ينشأ الكيان الصهيوني، ولكي لا يزول من الوجود.

أما مصير الصهاينة فخاضع للاحتمالات، أو قل للمتغيرات التي سوف تطرأ على حركة العالم بوجه عام، وعلى حركة العالم العربي بوجه خاص. فأحسن دفاع يمكن أن يلجأ اليه العرب هو اغلاق حدودهم في وجه الصهاينة. وعند ذاك لن يكون أمامهم الا أن يتعفنوا في داخل هذا الغيتو الذي لم يتورعوا عن ارتكاب

ابشع الجرائم من أجل انشائه. والحقيقة أن مصير الصهاينة سوف يحدده الشارع العربي، وليس الجيوش العربية ولا الحكومات العربية. فإذا أصر الشارع العربي على الرفض وظل يرجم الصهاينة بالحجارة كما كان يرجم الزناة، فإن الكيان الصهيوني سوف يتلاشى وينقرض، على الرغم من ارادة الغربيين.

ومما لا ريب فيه أن مصير فلسطين طوال التاريخ قد كان يتحدد على الدوام خارج حدود فلسطين. وما زال هذا القانون ساري المفعول حتى الساعة الراهنة، ولسوف يظل كذلك الى أجل غير مسمى. فماذا عساها أن تكون قطعة الأرض الصغيرة المسماة فلسطين، وهي القطر الذي لم يستطع ان يستقل في أي يوم من الأيام، والذي لا يتألف الا من صحراء وكتلتين جبليتين تجاورهما مروج شديدة الضيق؟ ان هذه الأرض لا مستقبل لها الا اذا تكاملت بمصر وبقية الهلال الخصيب، وصارت جزءاً عضوياً في منظومة عربية متجانسة. ويقنياً انها لن تصبح كذلك مادامت في حوزة الصهاينة الذين جعلوا منها مجرد تابع هامشي للامبراطورية الأمريكية.

وبالطبع، ما من شيء قد حسم بعد، على الرغم من مرور أربعين سنة على ولادة الكيان الصهيوني المفتعل والمتطفل على العالم العربي. وأغلب الظن أن وجود هذا الكيان موقوت بحكم الناموس الكلي الذي يتحكم بمسار التاريخ الفلسطيني طوال الأزمان. فما كانت فلسطين على الدوام الا ممراً للغزاة، والا واحدة من مناطق نفوذ القوى العظمى ونصف العظمى.

وأغلب الظن أن الشارع العربي لن يقبل بالصهاينة في أي يوم من الأيام. وإن هو سكت عنهم فعلى مضض وحسب. ولسوف يظل ينتظر الفرصة المواتية بغية التخلص منهم الى الأبد، تماماً كما سبق له أن تخلص من الصليبيين وغير الصليبيين.

قائمة المراجع

١ ـ ابن خياط، تاريخ خليفة ابن خياط، تحقيق الدكتور اكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار القلم، دمشق ـ بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧.

٢ ـ ابن القلانسي، تاريخ دمشق، تحقيق الدكتور سهيل زكار، الطبعة الأولى، دمشق، دار حسان، ١٩٨٣.

٣ ـ ابن هشام، السيرة النبوية، الجزء الرابع، تحقيق ابراهيم الابياري ومصطفى السقا وعبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى الباني الحلبي واولاده بمصر، ١٩٣٦.

٤ ـ الأشقر، أسد، الخطوط الكبرى في تاريخ سورية، الجزء الأول، القسم الأول، الطبعة الثانية، ١٩٨١.

٥ ـ بردج، انتوني، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو ونبيل الجيرودي، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.

٦ ـ بهنسي، عفيف، الفنون القديمة، المجلد الأول، دار الرائد اللبناني، الحازمية ـ لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٢.

٧ ـ توما، أميل، جذور القضية الفلسطينية، دار الجليل، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨١.

٨ ـ توينبي، ارنولد، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة فؤاد محمد شبل، الجزء الأول، الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٦.

٩ ـ جاردنر، سير ألن، مصر الفراعنة، ترجمة نجيب ميخائيل ابراهيم، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

١٠ ـ جودة، صادق أحمد داود، مدينة الرملة، مؤسسة الرسالة ودار عمار، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.

١١ ـ جيبون، ادوارد، اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة لويس اسكندر، الجزء الثاني، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩.
١٢ ـ جيـو وايـدنغـرين، ماني والمانوية، ترجمة سهيل زكار، دار حسان، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
١٣ ـ حتي، فيليب، تاريـخ سوريـة ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبـد الكـريم رافق، والجـزء الثـاني، ترجمـة كمال اليـازجي، دار الثقـافة، بيروت، ١٩٨٢ و١٩٨٣.
١٤ ـ الحنبـلي، مجير الـدين، الأُنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، الجزء الأول والثاني، دار الجليل، بيروت، ١٩٧٣.
١٥ ـ حنيطي، حرب، جنـين، المنظمـة العـربيـة للترجمـة والثقافة والعلوم ودائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية بلا تاريخ.
١٦ ـ خلف، علي حسين، عز الدين القسام، الجزء الأول، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
١٧ ـ الـدبـاغ، مصطفى مراد، الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الأولى، ١٩٨٠. (ثلاثة أجزاء).
١٨ ـ ديليتش، فريـدريـك، بابـل والكتـاب المقدس، ترجمة ايرينا داود، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧.
١٩ ـ ديورانت، ول، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود، الجزء الأول من المجلد الأول، القاهرة، ١٩٦٥.
٢٠ ـ ذا النـون، عبـد الحكيم، تاريـخ فلسطـين القـديم، دار الكتـاب العربي، سورية، الطبعة الأولى، ١٩٨٤.
٢١ ـ الـرضيعي، يوسف رجب، ثورة ١٩٣٦ في فلسطـين: دراسـة عسكـريـة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢،
٢٢ ـ زعيتر، أكرم، الحركة الوطنية الفلسطينية، ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩، يوميات أكرم

زعيتر، الطبعة الأولى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ١٩٨٠.
٢٣ ـ السواح، فراس، لغز عشتار، دار سومر، وباشراف دار الغربال، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
٢٤ ـ سوسة، أحمد، العرب واليهود في التاريخ، دمشق، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السادسة، بلا تاريخ.
٢٥ ـ الشريف، ريجينا، الصهيونية غير اليهودية، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٥.
٢٦ ـ الشريف، ماهر، تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي، بيروت، دار ابن خلدون، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
٢٧ ـ صالح، عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم، الجزء الأول، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية، القاهرة، ١٩٦٧.
٢٨ ـ العسكري، يسار، صفد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودائرة الثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية. بلا تاريخ.
٢٩ ـ العسلي، بسام، الظاهر بيبرس، دار النفائس، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨٣.
٣٠ ـ العك، خالد عبد الرحمن، تاريخ القدس العربي، مؤسسة النوري، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٦.
٣١ ـ غربية، عز الدين، يافا، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودائرة الاعلام والثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية. بلا تاريخ.
٣٢ ـ غوجانسكي، تمار، تطور الرأسمالية في فلسطين، ترجمة حنا ابراهيم، دائرة الثقافة ـ منظمة التحرير الفلسطينية، الطبعة الثانية، ١٩٨٧.
٣٣ ـ القصري، محمد فايز، حرب فلسطين، الجزء الثاني، دمشق، المطبعة العمومية، الطبعة الأولى، ١٩٦٢.
٣٤ ـ كوفان، جاك، ديانات العصر الحجري الحديث، ترجمة سلطان محيسن،

دمشق، دار دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ .
٣٥ ـ كوفان جاك، الوحدة الحضارية في بلاد الشام بين الألفين التاسع والثامن قبل الميلاد، ترجمة قاسم طوير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ .
٣٦ ـ الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٧٩ .
٣٧ ـ الماضي، مروان، عكا، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ودائرة الاعلام والثقافة بمنظمة التحرير الفلسطينية. بلا تاريخ.
٣٨ ـ محمود، معين أحمد، تاريخ مدينة القدس، دار الاندلس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩ .
٣٩ ـ موسكاتي، سبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب ابوبكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦ .
٤٠ ـ يحي، لطفي عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة، بيروت، دار النهضة، الطبعة الثانية، ١٩٧٩ .
٤١ ـ حرب فلسطين، ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، الرواية الاسرائيلية الرسمية، ترجمة أحمد خليفة، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤ .
٤٢ ـ وثائق فلسطينية، جمعها وصنفها حسين العودات، دائرة الثقافة/ منظمة التحرير الفلسطينية، ١٩٨٧ .
٤٣ ـ الكتاب المقدس، العهد القديم والعهد الجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الاوسط.

الفهرس

كلمة ٥
الفصل الأول: فجر الحضارة ١١
الفصل الثاني: الكنعانيون والأموريون ٢٥
الفصل الثالث: شعوب البحر وشعوب الصحراء ٥٧
الفصل الرابع: ثلاثة شعوب من الشرق ٧٣
الفصل الخامس: ثلاثة شعوب من الغرب ٨٩
الفصل السادس: فلسطين تستعرب ١١١
الفصل السابع: الحروب الصليبية ١٣١
الفصل الثامن: المماليك ١٣٩
الفصل التاسع: العثمانيون ١٤٧
الفصل العاشر: الصهاينة والانجليز ١٥٩
المراجع ١٩٩

صدر عن الأهالي

١ ـ النباتات الطبية واستعمالاتها	د. محمد العودات و د. جورج لحام
٢ ـ المعتزلة والفكر الحر	د. عادل العوا
٣ ـ ساعة الشؤم (رواية)	غابرييل غارسيا ماركيز، ترجمة صالح علماني
٤ ـ من الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان	د. عبد الله حنا
٥ ـ والليل الذي يسكنني (شعر)	ممدوح عدوان
٦ ـ الفضاء هذا العالم الجديد	مجموعة من الباحثين، ترجمة عيسى طنوس
٧ ـ السينما والقضية الفلسطينية	حسين العودات
٨ ـ أناباز (قصيدة طويلة)	سان جون بيرس، ترجمة عبد الكريم كاصد
٩ ـ الفرسان الثلاثة (للاطفال)	سليمان العيسى وصلاح مقداد
١٠ ـ الداء السكري	د. ميه الرحبي
١١ ـ المرأة في حضارات بلاد الشام القديمة	علي القيّم
١٢ ـ أزهار الكرز (أشعار يابانية)	ترجمة عدنان بغجاتي
١٣ ـ وضاح وليلى (للاطفال)	سليمان العيسى
١٤ ـ القيامة والزبال (مسرحيتان)	ممدوح عدوان
١٥ ـ الذاكرة والغضب (رواية)	فائز الزبيدي
١٦ ـ حكاية الرجل الذي رفسه البغل (قصص)	وليد معماري
١٧ ـ حكى لي الأخرس (سخريات صغيرة)	خطيب بدلة
١٨ ـ قدّاس من أجل فلاح اسباني (رواية)	رامون خ. سيندر، ترجمة عاصم الباشا
١٩ ـ البطل الملحمي في روايات عبد الرحمن منيف	د. أحمد جاسم الحميدي
٢٠ ـ الذهب (قصة للأطفال)	يحيى الشيخ

٢١ ـ التلوث وحماية البيئة	د. محمد العودات
٢٢ ـ مسرح الريادة (دراسة)	عبد الفتاح قلعه جي
٢٣ ـ طبرصف والزينبية	عدنان عمامة
٢٤ ـ الكاتبات السوريات ١٨٩٣ ـ ١٩٨٧	مروان المصري
٢٥ ـ حطين	يوسف سامي اليوسف
٢٦ ـ الانتفاضة بالكاريكاتير	الأهالي
٢٧ ـ زوبك (رواية)	عزيز نسين، ترجمة: عبد القادر عبد اللي
٢٨ ـ الطفل والاحلام (دراسة)	د. عبد الرزاق جعفر
٢٩ ـ من قاموس التراث	هادي العلوي
٣٠ ـ الحب والظلال (رواية)	ايزابيل الليندي، ترجمة: صالح علماني
٣١ ـ دراسات في أدب عبد السلام العجيلي	مجموعة من الكتاب، تحرير: ابراهيم الجرادي
٣٢ ـ قيامة عبد القهار عبد السميع	حسن. م. يوسف
٣٣ ـ الحياة الفكرية في حلب في القرن التاسع عشر	فريد جحا
٣٤ ـ أرق الليلة الفاصلة	منيف حوراني
٣٥ ـ النفق (رواية)	ارنستو ساباتو، ترجمة: عبد السلام عقيل
٣٦ ـ كيف تُكتب الرواية؟	غابرييل غارسيا ماركيز ـ ترجمة صالح علماني
٣٧ ـ الرؤية المنهجية لدراسة الأخلاق	محمد الجبر
٣٨ ـ تسعة أشهر حتى الولادة	ترجمة غازي أبو عقل
٣٩ ـ مرايا صغيرة (شعر)	شيركو بيكه س
٤٠ ـ السواد (رواية)	حسن حميد
٤١ ـ الجغرافية السياسية والجغرافية الستراتيجية	أحمد عبد الكريم
٤٢ ـ السؤال الآخر	فاضل الربيعي
٤٣ ـ بم التعلل (شعر)	حميد العقابي
٤٤ ـ الشذوذ الجنسي	د. ناجي الجيوش
٤٥ ـ ليلة ناعمة (مجموعة قصصية)	دينو بوزاتي، ترجمة د. منذر عياشي
٤٦ ـ بين حدود النفي (شعر)	كريم ناصر
٤٧ ـ ارتقاء المجتمعات الشرقية ـ ج١، ج٢، ج٣	مجموعة من الباحثين السوفييت
٤٨ ـ سورية الجنوبية	مجموعة من المترجمين

٤٩ ـ تفاح الشيطان (رواية)	احمد يوسف داود
٥٠ ـ السقوط الثاني (شعر)	أحمد جان عثمان
٥١ ـ سوسيولوجيا النص الروائي	عبد الرزاق عيد
٥٢ ـ التجارة الداخلية.. السوق والتنمية	منير الحمش
٥٣ ـ النقد الأدبي الحديث	سمر روحي الفيصل
٥٤ ـ معراج الموت «قصص»	ممدوح عزام
٥٥ ـ موت مدرس التاريخ العجوز «قصص»	حاتم علي

تاريخ فلسطين عبر العصور

يقدم هذا الكتاب عرضاً مختصراً للتاريخ الفلسطيني منذ العصور الحجرية وحتى القرن العشرين. ويأخذ أهميته من أن المكتبة العربية لاتضم سوى كتب تتناول تاريخ فلسطين خلال مرحلة زمنية محددة، وتكاد تخلو من دراسات التاريخ العام والشامل لفلسطين منذ بدء الحضارة الانسانية حتى اليوم.

ولعل هذا الكتاب يسد هذا النقص.

الناشر

السعر ٨٠ ل.س

يوسف سامي اليوسف
تاريخ فلسطين عبر العصور